عصر ورجال

فتحي رضوان

عصر ورجال

الجزء الثاني

مكتبة الأسرة
القراءة للجميع
٢٠٠٨

برعاية السيدة
سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د . إيناس حسنى

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

عصر ورجال

الجزء الثاني

تأليف: فتحي رضوان

القراءة للجميع
مكتبة الأسرة
٢٠٠٨

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : حامد عويس

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

رضوان ، فتحى

عصر ورجال/ فتحى رضوان .ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

مج ٢ ٣١٦ ص ؛ ٢٤سم.

تدمك : ٢ - ٣٨٠ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ ـ مصر - تاريخ - العصر الحديث - ثورة ١٩١٩م.

٢ - الأدباء العرب - مصر.

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٧٤٦ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978 - 977- 420 -380 - 2

ديوى ٩٦٢,٠٤٨

الفصل الثامن

يوسف حلمى

خرج يوسف حلمى من الدنيا . بلا ولد ، ولا لقب ، ولا ثروة ، ودون أن يشغل وظيفة ، أو يحقق أملا واحداً من آماله . .

وقد جمع فى نفسه وتاريخه من المتناقضات ، ما لم يجتمع فى سواه ، فقد كان وفديا ، ووطنيا ، وشيوعيا ، ومتدينا ، ومحباً للدنيا ، متأنقا ، وثوريا فدائيا احتمل شظف الحياة ، وضيق الرزق ، وقد كان كاتبا وممثلا ، وصحفيا ، ومحامياً ومحبا للموسيقى . كان متين البناء فياضا بالصحة ، ثم مات فجأة ، بعد أن عانى ألمـا مبرحاً ، ومرضاً عضالا ، وعاد إلى بلده — بعد رحلة علاج فاشلة — هيكلا عظميا .

ولا أحسب أن إنسانا استطاع أن يمثل الشباب المصرى فى الحقبة الواقعة بين ثورتى سنة ١٩١٩ ، وسنة ١٩٥٢ مثلما استطاع أن يمثله يوسف حلمى . فقد كان فى يوسف كل مزايا هذا الشباب ، وكل عيوبه ، وقد كانت المزايا والعيوب جلية فيه جلاء جعل تمثيله لجيله كاملا . فالمؤرخ الذى يسره أن يعرف فيم كان يفكر الشبان المصريون فى هذه الفترة من حياة بلادهم ، وكيف كان يتصرفون وأية آمال ساورتهم ، أو متاعب صادفتهم ، أو مخاوف أفزعتهم . وكيف اضطرب منهم من اضطرب وتذبذب من تذبذب ، واستهدف للمخاطر من استهدف ، واستبسل وثابر وصمد ، من منحه الله القوة والإرادة ، فعليه أن

يقرأ تاريخ يوسف حلمى ، ويتأمل فيه ، فعلى صفحته انعكست صور الشباب المصرى كما قلت ، بطوائفه المختلفة ، ونوازعه المتباينة ، وأهوائه المتعددة ، وحظوظه المتفاوته من النجاح والفشل ، والقـــوة والضعف ، والمثالية والوصولية .

وقد كان يوسف حلمى زميلا بكل ما فى هذا الـكلمة من معنى . فقد ولدنا فى سنتين متعاقبتين ، فقد ولد فى أول سنة ١٩١٢ ، وإن كنت قد قرأت فى بعض الصحف أنه ولد فى سنة ١٩١١ فى ميت بره بالمنوفية ، ولا أدرى ماذا كان يعمل والده على وجه التحقيق ، وكل ما وصلنى فى هذا الصدد ، كان نقلا عن الأستاذ عبد العزيز الصوفانى ، الذى قال لى إن والد يوسف كان أمين الصرة التى كانت ترسل مع المحمل إلى مكة .

ولحق يوسف حينما وصل إلى سن التعليم الابتدائى بمدرسة خليل أغا بباب الشعرية ، ولـكنه حينما دخل مدرسة الخديوية انتقل إلى حى ، السيدة زينب وسكن فيه ، وهو الحى الذى عشت فيه أكثر سنى طفولتى وصباى وقد كان يوسف زميـلا لبعض أصدقائى ، فاستطعت أن أراه ، فى فترة الدراسة الثانوية ، وأسمع الـكثير من أنبـائه ، ومعابثاته ، ومحاولاته .

وقد كان فى فترة الدراسة الثانوية من هواة التمثيل والأدب — والصحافة فـكان عضوا بارزاً فى فرقة تمثيل الخديوية ، وكان يلقى محاضرات على زملائه فى مدرسة الخديوية ، وأذكر أن أحد مدرسى اللغة العربية علق على محاضرة ليوسف فقال « لقد عرفت اليوم كيف يكون التلميذ أستاذاً لأستاذه » ولو أن

هذا الأستاذ اعتاد أن يعقب بهذه العبارة على محاضرات تلاميذه ، النابهين طبعاً .

وقد كان ما يصلنى من أنباء يوسف ينفرنى منه ، بل ما يخيفنى على وجه أصح ، وكنت مستعدا لهذا النفور ، لأن يوسف كان يبدو لى شابا متأنقا مسرفا فى الأناقة ، وكان صوته عريضا أجش ، فإذا تكلم ، خيل إلى السامع أنه يصطنع هذا الصوت ، فإذا اتبعه بقهقهة ـ وكثيرا ما كان يقهقه ـ زاد الشعور بتكلفه . ولكن حينما يألفه الإنسان ويراه على سجيته ، يتأكد له أن ما بدا من تكلفه وتصنعه ، لا يمثل حقيقته تماما .

وقد أخبرنى أحد زملاء يوسف أنه اصطدم يوما بأحد مدرسيه ، وكان هذا المدرس مصابا بعرج فى إحدى ساقيه ، فما كان من يوسف إلا أن قال له وهو يتحرش به : احترم العاهة .

فلما سمعت ذلك أجفلت إجفالا شديدا ، فقد كنت فى الدراسة الثانوية تلميذا ريفياً ، فى أسيوط وبنى سويف ، حيث يحترم التلاميذ مدرسيهم ، ويرهبونهم ، ولا يجرؤن على مخاطبتهم بهذا الأسلوب أو بما يقرب منه ، ومن كل هذا بدا لى يوسف حلمى يومذاك ، كقاطع طريق .

ولما سافرت إلى الصعيد وعدت علمت أن يوسف كان واحداً من جماعة اصطنعت أسلوبا كان يباعد بينى وبينه ، فقد كانت جماعته هذه تسهر فى أحد المقاهى بحى السيدة زينب قريبا من المذبح ، إلى ما قبل الصبح بقليل ، وكان منزل أحد هذه الجماعة فى حى عميش بالسيدة زينب ، هو مقرها ، وقد اصطحبنى أحدهم يوماً إلى هذا المنزل ، فدخلنا إلى حجرة (مندرة) فى منزل بحارة من حارات هذا الحى ، وقد كانت أرض المندرة عارية مما يغطى بلاطها

وقد وضعت فيها كنبتـان أو ثلاثة من الطراز الذى كان معروفا بالـكنب الاسطامبولى ، ثم دخل شاب ضخم ، أحسست أنه غادر لتوه فراشه ، فقد كست علامات النوم وجهه ولاسيما عينيه البارزتين قليلا ، وأجفانه الثقيلة، مع أن النهار قد انتصف وكان يلبس جلبابا وينتعل (شبشبا) أو قبقابا لست أدرى ثم جلس على الـكنبه ووضع فى حجره وسادة من وساداتها ، وأخذ يتـكلم وكأنه يستأنف حديثاً قطعه منذ قليل ، وراح يضحك على كلام نفسه ، مستملحا فـكاهاته هو .

فخرجت من هذه الزيارة ، وكأنى الهارب من غول ، لا ألوى على شىء ومرت أيام ، وانتهت دراستى الثانوية ، وعدت إلى القـــاهرة فاقترحت على أصدقائى أن نبدأ نشاطا قومياً ، وأن نقف فيه من الأحزاب جميعاً على بعـد واحد ، لا نميز بين واحد منها دون الآخر ، باعتبارها جميعاً مدرسة قديمة ، تنهج فى السياسة نهجاً تقليديا ، لا يتفق مع وجهات نظرنا فى السياسة ، التى تهدف إلى شق طريق جديد ، يتخطى الأحزاب والملك ، ليواجه الانجليز وحدهم . وتنفيذاً لهذه السياسة الجديدة التى رحب بها زملائى طفنا على قبور الزعماء فزرنا ضريح سعد ،ولم يكن قد نقل بعد إلى مدفنه الجديد ، وقبر مصطفى كامل ومحمد فريد ، وألقينا على كل قبر خطبة ، وتصادف أن حل يوم ١٣ نوفمبر فى تلك الأيام ، وكان الوفديون يحتفلون به كل عام على عادتهم بوصفه عيد الجهاد فذهبنا إلى بيت الأمة ، لنحصل على بطاقات دعوة لنشهد هـــذا الاحتفال ، وتسلمنا هذه البطاقات ، وخطونا نحو الباب خطوتين ، فإذا يوسف حلمى ومعه مأمون الريدى سكرتير بيت الأمة يلحقان بنا ، ويفتشاننا ، ويستردان بطاقات الدعوة بحجة أننا محسوسون على الوفد وهى تهمة لو صحت لما استدعت

هذا الإجراء العنيف . فزاد نفورى من يوسف ، وبقيت سنين طويلة أتحاشاه بل أتحاشى النظر إليه إذا اجتمعنا فى مكان .

وأنشأنا مصر الفتاة التى كان الوفد يخاصمها بعنف ، ويسوىء نظر الناس إليها ، وكان يوسف — بعد أن أتم تعليمه فى كلية الحقوق — وفديا متطرفا فكانت وفديته داعية إلى تعميق الخلف بيننا ، ثم أخرج مجلة الكاتب فى سنة ١٩٣٧ ، فهاجم فيها مصر الفتاة ، وبقينا على هذا النحو ، على طرفى نقيض ولكنه بدأ يكتب فى جريدة روز اليوسف اليومية فى الصفحة الأولى خواطر بعنوان همسة ، وقد كان اشتغاله فى هذه الجريدة التى خرجت على الوفد ، فى سنة ١٩٣٥ سبباً فى أن تضيق الشقة نوعا بينى وبينه ، فكنا نتبادل كلاما عابرا كلما جمعتنا المناسبات الطارئة، ثم كسدت روز اليوسف اليومية ، وأصبح إصدارها لا يقصد منه سوى المحافظة على رخصتها التى كانت القوانين تنص على إسقاطها إذا لم ينتظم صدورها فترة معينة .

وقد حدث أن ألقيت خطابا شديدا ضد النحاس وهو فى وزارته التى شكلها عقب إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ وكان الوفديون قد كونوا فرقا شبه عسكرية عرفت باسم (القمصان الزرق) تشبها بفرق مصر الفتاة التى كان أعضاؤها يلبسون القمصان الخضراء ، فأمرت قيادة القمصان الزرقاء جماعات منها بالهجوم على المسرح الذى كنت أخطب فيه ، وتم هجومها تحت سمع البوليس وبصره ، بل فى حمايته وإشرافه ، ولكنى استطعت بشق الأنفس أن أنجو بنفسى ، وكلما ذهبت إلى مكان فى ذلك اليوم وجدت جماعات من هذه الفرق متربصة هناك ، لتبطش بى وبزملائى بهراواتهم وخناجرهم ، فأمام مكتبى وبيتى وأمام الحزب رابطت جماعات منهم ، فرحت أسير على

غير هدى فى شوارع القاهرة حتى وجدتنى أمام جريدة روزا اليوسف فدخلت إليها فألفيت فى الدور الأرضى منها ، يوسف حلمى جالساً إلى مكتب صغير ، وإلى جانبه مصباح كهربائى ، وبين يديه ، بعض الورق ينظر فيه ،وكان وحيدا كما كان المكان هادئا ، تسوده بعض الوحشة ، ولكنه كان بالنسبة لى كالمرفأ ، وكنت ليلتها كالقارب الصغير الذى تتقاذفه الأمواج ، ولا يرى شاطئا يرسو عنده . وجلست مع يوسف ، أقص عليه ما جرى ، وطلبت إليه أن يسأل فى قسم بوليس الأزبكية ، الذى كان المسرح الذى خطبت فيه واقعاً فى دائرته ، عما جد منذ تركت هذا المسرح ، وبعد مكالمة قصيرة فهمت من يوسف أن النيابة انتقلت إلى القسم ، وأن أمراً صدر بحبسى ، فقمت فى الحال ، لأقدم نفسى للنيابة بعد أن سلمت عليه ، فشد على يدى ، وتمنى لى حظا سعيدا .

ثم مضت أيام أخرى ، كنت أرى فيها يوسف أنيقاً ، يقود عربته الصغيرة وسمعت أنه يسكن فى حى الزمالك — وهو حى الأغنياء — وأنه تزوج بإبنة أحد الوزراء الباشوات ، فأحسست من كل هذا ، أنه أصبح يمت إلى عالم آخر غير العالم الذى أعيش فيه وأنتسب إليه ، على أنه فى ذاته لم يكن ليزيد فى نظرى عن شاب طموح ، يتخذ من الأدب والفن ، تسلية وتلهية ، وأنه ليس منهما فى شىء .

وقد كان يستوقف نظرى دائما أن يوسف بقى — بعد أن عاد إلى الوفد — فى مكانه لا يتحرك ولا يتقدم ، مع أنه كان يعمل مع الزعيم الوفدى المرحوم يوسف الجندى فى مكتب المحاماة ، وهو إذا قورن بأكثر شباب الوفد ، الذين كانوا يتقدمونه ، كان يفضلهم جميعاً .

ثم سمعت أنه سيرشح عن إحدى دوائر القاهرة فى انتخابات سنة ١٩٤٢،

فقلت لنفسي يومذاك إن هذا أول اعتراف من جانب الوفد ببعض ما يستحقه يوسف ، ولكن هذه الإشاعة لم تتحقق .

ولما انضممت إلى الحزب الوطني ، وعملت على إعادة تنظيمه ، سمعت من الأستاذ الصوفاني أكثر من مرة أن يوسف يحب أن ينضم إلينا ، فخبت هذه الرغبة إحدى نزواته ، ثم اختلفنا مع قدامى أعضاء الحزب واستقللنا باللجنة العليا للحزب الوطني ، فعاود يوسف إبداء رغبته في أن ينضم إلينا ، وألح بعض إخواننا في قبوله ، فقبلناه وبدأت صلتي بيوسف تتوثق توثقا شديداً .

هنالك عرفته على حقيقته: قلب طفل في جسم رجل مع عقل شاب . وقد كان هذا الثالوث غير المتكافىء ، هو السبب في تعثر يوسف وأحياناً في تخبطه . كان يبتهج بأطايب الحياة ، ويتذوقها ، ابتهاج الطفل وتذوقه . ويفكر في الأمور – مع تقدمه في السن – بعقل الشاب الذى يكره التحفظ والاحتياط ، ويضيق بالتدبر والأعداد ، وهو في آخر الأمر رجل ، كامل الرجولة ، جميل الطلعة أنيق الملبس ، يحب المداعبة ، ولا ينقطع عن الضحك إلا قليلا . وكان يوسف قد نشر في جريدة أخبار اليوم ، قبل أن ينضم إلينا ، مقالا بعنوان « من بعيد » ، أو « صوت من بعيد » ، بدا منه اقتناعه بمذهب الحزب الوطني وأسلوبه ، لذلك لم يكن من الصعب أن يندمج معنا ، والحق أن انضمامه إلينا ، كان زاداً جديدا لنا ، وكنا خليقين أن ننتفع به ، وكان خليقا هو أن يجد فرصة لإظهار مواهبه ، وإنضاجها ، لولا قلقه ، واندفاعه .

أصدرنا مجلة اللواء الجديدة ، مجلة شهرية ، بعد أن كنا نصدرها في تاريخ سابق ، أسبوعياً ، فاعتنى بها يوسف وأشرف عليها ، وبذل لها من وقته وجهده وخبرته الشيء الكثير ، وقد كانت الرقابة مفروضة على الصحف ، فاعترض

الرقيب على شيء من مقالات المجلة ، فإذا بيوسف يرسل برقية نارية إلى رئيس الوزراء ، ويوقعها بأسمى أنا ، دون أن يرجع إلى أو يطلعنى عليها ، بل دون أن يخبرنى . وقد كان هذا العمل، نموذجا لأسلوب يوسف فى العمل .

ولما كان يوسف شديد الاهتمام بموسيقى سيد درويش فإن عمله الوطنى لم يحل بينه وبين أن يواصل اهتمامه بذكر سيد درويش ، وبالعمل على إحيائها ، وتسجيل أغانيه وإعادة تمثيل أوبريتاته ، وقد أقام لنا حفلة فى نادى الحزب الوطنى ودعا إليها محمد البحر ابن الشيخ سيد درويش ، وأسمعنا بعض أدواره « وطقاطيقه » .

ثم حدث ما دعا إلى انفصال يوسف عن اللجنة العليا للحزب الوطنى ، إذ كان قد انضم إلى اللجنة المصرية للسلام العالمى ، وكان يجب أن يتفرغ لها ، وأن يتخلى عن عضويته للحزب الوطنى الذى كان يؤمن بالحياد الدقيق بين المعسكرات جميعاً ، وقد عز على يوسف أن يضطر للخروج من الحزب الوطنى ، بل حز فى نفسه واعتبر ذلك داعيا لقطيعة تقوم بينى وبينه ، ولكن الظروف أبت أن تجمعنا على الرغم منه ، فترة كانت على قبحها من حيث الظاهر ، من أجمل فترات حياتنا ، زادتنى به معرفة ، وزادته قرباً منى . ففى ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، ألقى القبض علىّ وعلى يوسف وسعد كامل وأرسلنا جميعاً إلى سجن الأجانب فعشنا فى زنازين متجاورة ، وكنا نأكل من طعام واحد ، إذ اتفقت عائلاتنا على أن يتناوبوا فيما بينهم إرسال الطعام إلينا . وبقينا هكذا متجاورين متلازمين أربعة شهور فى سجن الأجانب ، ثم انتقلنا - أعنى نقلتنا الحكومة - إلى معتقل الهاكستب فى صحراء مصر الجديدة ، وعلى مقربة من مطار القاهرة - الدولى الآن - فعشنا فى حجرة واحـــدة ، نأكل من طعام واحد ،

وتتنفس هــواء واحداً ، ويستيقظ الواحــد منا على كلام أو مناقشة أو حركة الآخر .

ولست أزعم أن أيامنا مضت فى السجن والاعتقال ، خالية مما ينغص ، فطبيعة حياة الاعتقال ، تؤدى وحدها إلى نفور زملاء الزنزانة بعضهم من بعض ، ذلك لأن الاعتقال يثقل على نفس المعتقل ، ويفسد أعصابه ، فيصبح أسرع ما يكون إلى الغضب ، وأشد ميلا إلى توهم الإهانة ، وسوء الظن . والشركة الإجبارية المفروضة على المعتقلين ، تصبح - لأنها مفروضة - كقيد الحديد الذى يربط الواحد منهم إلى الآخر . ولــكن على الرغم من كل ذلك ، كانت الأيام التى قضيتها مع يوسف فى الاعتقــال ممتعة . فقــد أصبح من عادتنا أن نضحك على كل شىء وكل شخص ، وأن نرسم لأنفسنا وللناس صورا كاريكاتورية ، وأن نرى الحوادث ، ونقرأ الجرائد ، ونعلق على ما يجرى داخل السجن وخارجه ، بأسلوب الساخر الهازىء ولم نـكن فى هذا مفتعلين ولا متصنعين فقد كان ضحكنا صادرا من قلوبنا ، ولعله كان ثمرة اجتماعنا معا ، وزمالتنا فى العمل ، وتشابه أذواقنا ، وتقارب مشاربنا فى الجملة .

ولقد كان الــكثير من فــكاهاتنا يدور حول الطعام والملابسات المتصلة به ، فمثلا إذا وصل الطعام من منزل أحدنا وكان هزيلا ، أخذ الزميلان الأخيران فى السخرية منه ، وكان كل منا يزعم أن فى مطبخ بيته ، طهاة يتخصص كل منهم لا فى فرع من الطعام ، بل فى أجزاء الفروع ، فللأسماك طاه ، وللمقليات آخر ، وللمشويات ثالث ، وفى فروع الحلويات ، للـكنافة واحد ، و (للـكريم شانتى) ثان ، و (للبافرواز) ثالث وهكذا ! . وحينما يهبط الطعام عن أسوأ مستوى

مألوف تعلل هذه الحالة بحصول إضراب موظفى المطابخ فى المنزل الذى أرسل الطعام .

ولما انتقلنا إلى الماكستب ، لعبنا سويا كرة القدم ، ولكنه كان طوال النهار ، مشغولا بإعداد حفلة لذكرى سيد درويش ، فكان منذالصباح الباكر مع زملائه ومعاونيه منهمكا فى إعدادالحفلة ، يحفظهم الأدوار ويضبط الأصوات ويجرى «البروفات» . وقد طال انتظارنا لهذه الحفلة فلما أقيمت لم تستغرق سوى نصف ساعة أو أزيد من هذا بقليل ، ولكنها كانت شيئا طريفا ، كسر الرتابة والتشابه فى حياتنا

ولما وصلنا إلى معتقل الماكستب، اختار لنا زملاؤنا الذين سبقونا إليه حجرة ما لبثت حتى تجملت وازينت بفضل السيدة سامية راشد حرم يوسف حلمى ، فقد أعدت للحجرة ستائر من الكريتون ، واشترت للمنضدة الموجودة فى الحجرة غطاء من المشمع . وقد كانت الحجرة فى أول الأمر مليئة بأنواع الحلوى وللمكسرات ، والمسليات الأخرى كالفستق ، والفول السودانى المقشور وكان زملاؤنا فى المعتقل يزوروننا ، فلا نبخل عليهم بتقديم ما جاد به علينا الأصدقاء والضيوف ولكن هذه الطرائف بدأت تتناقص ، مع مرور الزمن ، فكان ذلك التناقص موضوعا جديدا لفكاهاتنا وتعليقاتنا الضاحكة . وقد وضعنا فى الحجرة مروحة كهربائية كنا نحسبها آية من آيات الصناعة الحديثة ، فلما خرجنا من المعتقل أدركنا أنها أقرب ما تكون من الكراكة .

وخرجت من المعتقل مع يوسف فى ٢٥ من يولية سنة ١٩٥٢ فى يوم واحد بعد قيام الثورة بيومين ، وكنا خلال الاعتقال قد رفعنا دعويين أمام مجلس الدولة بطلب الأفراج عنا ، لأن الأحكام العرفية التى اعتقلنا بسببها وفى ظلها ،

كانت معلنة لحوادث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ، ولم تكن لكلينا أدنى صلة بهذه الحريق ، فلما قامت الثورة ، وتولى الوزارة على ماهر ، وقد نشأت له حاجة سياسية عندى ، اقترح عليه الافراج عنى تنفيذا لحكم مجلس الدولة الذى كان قد صدر بالفعل بإطلاق سراحينا وكانت حكومات قبل الثورة ممتنعة عن تنفيذه بما فيها حكومة على ماهر نفسه .

استأنف يوسف إصدار مجلة الكاتب ، لحساب حركة السلام ، والطريف فى الأمر أن هذه المجلة لم يكن يطيب لها أن توجه حملاتها العنيفة لأحد سواى ولكن هذه الحملات لم تكن قادرة على أن تفسد ظنى بيوسف ، أو تقطع علاقتى القلبية به ، فقد عرفته على حقيقته فى الشهور السبعة التى جمعتنا فى السجن والمعتقل ، فلم أخدع بما يبدو عليه ، أو يبدر منه ، فقد بقى بالنسبة لى فى جميع الأحوال : رجلا ضخماً ، يحمل عقل شاب ، وقلب طفل ..

وجمعتنى به - بعد الإفراج عنا - جنازة فلما انتهينا من تشييعها ، اقتربت منه وحييته ، وطلبت منه أن نلتقى ، فانتهز فرصة الزحام ، واختفى عن ناظرى ، فانتابتنى لبضع دقائق ، حالة من الغضب المقترن - غيابيا - بالعتاب على زميل السجن والمعتقل ، ولكنى ما كدت أخطو خطوتين من المكان الذى تركنى فيه يوسف حتى رحت أضحك ملء القلب ، فقد عاودتنى بعض ذكريات الشهور السبعة التى قضيناها سويا ..

واعتقل يوسف بعد ذلك أكثر من مرة ، وهاجر من بلاده ، وغاب عنها طويلا وعاد إليها ، ولقى فى هذه الفترة عناء وتعبا شديدين وتعرض لعشرات من المحن ، ثم تلاقينا من جديد ، فوجدت يوسف على العهد به ، مرحا ، لم يفقد الأمل فى مستقبل سعيد .

ولكن كان كل ذلك فى الظاهر ، أما فى الباطن ، فقد دفع يوسف ثمن هذه الحيوية المتدفقة ، وهذا الانفعال الشاب ، وهذا القلق المتجدد ، وهذا الطموح الذى لا يضبطه شىء من التدبر أو التدبير ، فأصاب الوهن قلبه ، وفاجأته أزمة قلبية ، وهو عند أحد أصدقائه فى عزبة قريبة من القناطر الخيرية ، وحمل إلى منزله فى عربة إسعاف ، ووصل إلى بيته فى الزمالك ، وهو على هذه الحال ، فاطلت زوجته وزميلة حياته سامية راشد من النافذة ، فخيل إليها أن (يوسف) قد حمل إليها جثة هامدة ، وأنها فقدته إلى الأبد ، فاصابتها هى فى الحال ، نوبة من نوبات القلب ، لم تمهلها طويلا . وماتت هذه الزوجة التى عرفناها خلال شهور الاعتقال السبعة ، زميلة لنا جميعا ، تحمل إلينا الأخبار والاشاعات ، وتدخل إلى قلوبنا جميعا زياراتها ما تحمله زيارة الأخت لأخيها ، وهو خلف القضبان . فكانت فى حياتها ، وبمماتها ، مثلا رائعا للزوجة المخلصة التى يحملها الحب لا على الوقوف مع زوجها فحسب ، بل والإيمان بمبادئه ، والدفاع عنها ، وإن لم تكن قد تهيأت من قبل فى كثير أو قليل لهذه المبادىء ، ولا لذلك الإيمان .

وأخفى أصدقاء يوسف عنه هذا النبأ ، فلم يشترك فى تشييع جنازتها ، وهى التى لم تتركه لحظة ، فلما تحسنت حالته ، ونقل إليه النبأ ابنها فى الصحف فى سطور مؤثرة دامعة .

وعلمت متأخرا بمصاب يوسف ، فلما بلغنى النبأ أسرعت إليه فى منزل أحد أقربائه فى الزمالك ، فرأيته فى سرير ، لم يضعف المرض بريق عينيه ، ولم تحل الكارثة بينه وبين أن يضحك كأن لم يحدث شىء . أما أنا فلم أتمالك نفسى من البكاء ، فبكيت ، وراح هو يخفف عنى ويواسينى .

وعاد يوسف بعد ذلك إلى المحاماة ـ بعد طول الغياب والتغرب واستأنف

نشاطه الأدبى ، فأصدر أعدادا من مجلة (الفد) ، ثم نشر أربعة عشر مقالا فى النقد المسرحى بمجلة الكاتب ، وكان القدر أبى إلا أن يبقى على صلة يوسف بهذه المجلة ، فيوسف هو الذى أصدرها فى سنة ١٩٣٧ ، ثم عجز عن موالاة إصدارها لأنها صحيفة رأى ، ولا مال عند صاحبها ، يتحمل الخسارة الفادحة ، ثم عاد فأصدرها فى السنتين السابقتين على ثورة سنة ١٩٥٢ فكانت واحدة من صحف الشباب التى أصلت النظام القديم شواظا من نار وعملت على زعزعة أسس هذا النظام المتداعى ، كاللواء الجديد والاشتراكية ، والملايين ، ثم تولت دار الجمهورية للتحرير إصدار هذه المجلة ، فكتب فيها يوسف هذه المقالات الأربعة عشر ، وكان آخر ما كتبه . وأشهد أن المقالات التى كنت أقرؤها فى هذه المجلة ليوسف ، كانت شيئاً جديداً وجميلا وموحيا . ولو اطمأنت نفس يوسف ، ووجد شيئا من الرعاية ، لأمتع قراء اللغة العربية بآثار جميلة وغنية بتجاربه التى اتسعت ، ومشاهداته التى تعددت وتنوعت ، واتصالاته التى ترامت آفاقها .

كما عاد يوسف إلى الصحافة عاد إلى المحاماة أيضا ، وكان من حظى أن تزاملنا فى آخر القضايا التى شهدت فيها المحاكم يوسف حلمى المحامى ، وقد كان خصمنا محامياً شابا ، كأسوأ ما يكون المحامى المبتدىء ، كيدا فى الخصومة ، وثرثرة فيما لا ينفع ولا يفيد ، وكذبا مفضوحا فخرج يوسف ، وهو يقول : المحاماة أصبحت مهنة كريهة . انها لم تعد تطاق .

ومضت أيام وسمعت أن يوسف يشكو مرضا فى الصـــدر ، بعد الذبحة الصدرية ، ثم علمت أن العلة لم تكن فى الصدر ، وإنما كانت هذا الداء الخبيث اللعين ، السرطان الذى سطا على يوسف وهو يتهيأ لبدء حياة جديدة ، بعد طول الغربة والعذاب ، وأخذ يعتصره على طريقته الرهيبة ، وهو لا يدرى علته .

وذهبت إلى يوسف ومعى ابنى الذى عرفه إبان فترة الاعتقال وبعدها ،

كان يوسف هذه المرة فى مصر الجديدة ، وكان كلانا ـ أنا وابنى ـ يعرف حقيقة العلة التى يشكو منها يوسف ، وأنه مفارق هذه الدنيا ، وشيكا . ولذلك كانت هذه الزيارة عذاباً لنا ، ما بعده عذاب .

دخلت إلى الحجرة التى قد رقد فيها يوسف على سرير خاص ، يمكنه من أن ينام على وضع يخفف شيئا ما من آلامه ، وكان الجو حارا ، وجبين يوسف يتفصد عرقا ، وفى يده منديل ، يمسح به هذا العرق ونظر إلىّ بعينيه الواسعتين اللتين كانتا توحيان فى حالة الصحة ، بدهشة صاحبها الممزوجة بالتحدى . لم يخف بريقهما كثيرا ، ولكن كانتا تفيضان بالتعبير عن الألم ، والخوف من المستقبل ، والتشبث بأهداب الأمل ..

وجلست إلى يوسف ، وأنا لا أكاد أستطيع النظر إليه ، ولما تكلم ـ ويا ليته ما تكلم ـ زاد عذابى ، وحيرتى واضطرابى ، فقد قال : الحمد لله أن ما أشكو منه ليس السرطان .. وكل شىء يهون إلى جانب السرطان » .

وكدت انفجر فى البكاء ، لهذا العزيز الذى يتألم ، والذى يعانى مع الألم خديعة الأمل الكاذب ..

وسافر إلى إنجلترا ، وعاد جسداً نحيلا ، يرفع فوق اكتافه رأسا ضخما ، وأريد له أن يقضى أيامه الباقية فى المستشفى ، فأبى إلا أن يذهب إلى بيته ، قائلا أنه أخذ كفايته من السجن والاعتقال والمستشفى ، ولا يريد أن يموت فيما يشبه السجن والاعتقال . . وأجابوه إلى طلبه ، وكان يوسف هذه المرة عارفا علته ، مطلعاً على مصيره ، فإنه لم يكف عن القول لصديق له فى إنجلترا : أنى ذاهب . .

وفى اليوم الأول من يناير سنة ١٩٦٤ ، فتحت صحيفة الأهرام ، على أسوأ ما تقع عليه العين .. نعى يوسف . !

إن القلق ، والتنقل ، لم يمكنا يوسف من أن تتضح معـــالم شخصيته ، وتتـكامل آثارها فى أى جانب من جوانب نشاطها . كان خليقاً أن يكون كاتبا سياسيا ،أو قصاصا،أو ناقداً فنيا ، أو كاتب مقالات قصيرة ،أو كاتبا مسرحيا . وكان يمكن أن يكون محاميا كبيرا ،أو ممثلا ضخما ،أو خطيبا ممتازاً . وقد عالج هذه الفنون وتلك الألوان المتباينة من النشاط البيانى والأدبى ، ولـكنه لم يكن يستقر فى معالجته لأى منها الفترة التى تتيح لمواهبه أن تنضج ، وصلات الناس به أن تتوثق ، ومعرفته بالفن تتعمق ، وتجربته تتأصل .

دخل معهد التمثيل ، مع الدفعة الأولى من طلابه ، ولـكنه لم يمثل رواية واحدة ، واشتغل بالنقد الفنى أوالمسرحى على وجـه خاص فى جريدة كوكب الشرق . التى كان يحررها طه حسين فى سنة ١٩٣٢ ثم فى جريدة الوادى التى تولى طه حسين تحريرها كذلك لحساب الوفد ، ولـكنه لم يواصل هذا اللون من العمل الأدبى . ولو استمر فى ممارسته لـكان من كبار النقاد ، مع توافره على الدراسات فى الآداب الأجنبية ، وموالاته الإنتاج فى هذا الجانب من الثقافة الأدبية .

وفى سنة ١٩٤٠ كتب مع زميله يوسف جوهر مسرحية بعنوان : « إمرأة من السماء» ومن الصدف الغريبة ،أن يكون بطل هذه المسرحية محامياً كيوسف وأن يصاب بالسرطان ، ويموت به ، كما مات يوسف أيضا . ولـكنه لم يثن بمسرحية أخرى وكتب فى سنة ١٩٤٧ مسرحية إذاعية لعلها من أوائل المسرحيات الإذاعية ، ولـكنه لم يردفها بثانية ، وهكذا كان جل أعماله كبيضة الديك — ولما صدرت جريدة روز اليوسف اليومية نشر يوسف فى صدرها مقالات قصيرة بعنوان همسة ، ولـكنه لم يعد إلى هذا الطراز من التعليقات بعد ذلك ، فى أية جريدة أخرى وكان يشرف فى روز اليوسف اليومية أيضاً على صفحة الشباب وكانت تنشر مرة فى الأسبوع ، وصفحة « من القراء وإليهم » .

وفى ميدان القصه القصيرة نشر يوسف أول قصصه فى سنة ١٩٣٤، تحت عنوان «بهجت أفندى فى أرشيف المالية» وقد قدم لها الكاتب الموهوب الدكتور سعيد عبده بمقدمة قال فيها :

« أقدم إلى قراء روزا اليوسف قصاصاً ناشئاً يستطيعون أن يلمسوا فى قلمه روح القصاص الملهم .. ناشئاً، وإن كان يقول أنه يمارس الكتابة والقراءة منذ سنة ١٩٢٥ » وقد والى يوسف نشر قصصه فى روزا اليوسف، بحيث استطاع أن يضم هذه القصص فى مجموعة بعنوان من (أغوار المحيط) . وقد كانت هى مجموعته القصصية الوحيدة، وإن واظب على نشر بعض قصصه فى مجلة الكاتب سنة ١٩٣٧، وآخر ساعة ودنيا الفن سنة ١٩٤٧ وأخبار اليوم فى سنة ١٩٤٨ . ولكنه كف عن معالجة القصة بعد ذلك .

ومن هنا كان يوسف ممثلا للشباب المصرى الذى يريد أن يشمل بنشاطه كل نواحى الحياة ومجالاتها . فأكثر شبابنا الذين استطاعوا أن يظهروا على مسرح الحياة العامة، كانت تتوزعهم الميول الأدبية والسياسية والفنية . وكان التراث القديم، تراث الدين والأدب العربى القديم والخطابة، يزاحم فيهم الميل إلى الآداب الغربية بما فيها من تمرد على القديم كله . وكانت النزعات الوطنية، والنزعات الاجتماعية، تتصارع فى نفوسهم، فيبدو تطرفهم اليمينى حينا، وتطرفهم الاجتماعى اليسارى حيناً آخر . ولكن كان أكثر هؤلاء، لا يستقر على اتجاه ولا يستمر فى منهج إلا أن يوسف أبى إلا أن يجمع فى نفسه كل طموح وآمال وقلق أبناء جيله . ولكن علة القلق لم يذهب سدى، فقد ألقى بذوراً فى كل ناحية، وضرب مثلا للاستبسال والتضحية، فقد تحمل من الآلام والعذاب، ما لم يتحمله مثله كثير من أبناء جيله . وقد كانت مجلة الكاتب بأجيالها الثلاثة منذ صدورها فى سنة ١٩٤٧ ثم فى عهد ما قبل الثورة مباشرة،

ثم فى ثوبها الأخير ، مساهمة جدية ، جليلة القدر والقيمة ، فى الأفكار والمبادىء والتطورات التى تحققت فى بلادنا ، ومن هنا لا سبيل إلى إنكار دور يوسف حلمى فى تحقيقها ، وفضله فى التحضير لها ، والعمل المضنى فى سبيلها .

قال يوسف حلمى وهو يقدم مجلة الكاتب سنة ١٩٣٧ :

« الحكم الديمقراطى هو حكم الشعب : الحكم الذى يتساوى فيه أبسط الأفراد مع رئيس الوزراء فى الواجبات والحقوق ، الحكم الذى يمكننى أنا وأنت وغيرنا من أن نتقدم للانتخاب مصوتين أو نواباً ، مشتركين بهذه الصفة أو بتلك فى حكم البلاد الذى يعطينى ويعطيك — ويعطى غيرى وغيرك الحق فى أن يرفع فى وجه كبير الوزراء سيف التقويم إذا رآه أخطأ أو حاد عن السبيل ... وإذا كان الحكم الدكتاتورى يعدم كل شخصية إلا شخصية الدكتاتور فمعنى هذا انعدام الفكر الحر ، وبالتالى انعدام الإحساس بالشخصية الفردية ، ومتى انعدم الإحساس بالشخصية الفردية تبلد العلم والابتكار والاختراع ، وتباطأت خطى المدنية .

« لهذا نؤمن بهذه المبادىء التى تتلخص فى كلمات الديمقراطية والكرامة الفردية والحرية الشخصية ، وسندعو لهذه المبادىء ونغرسها فى نفوس الشباب ، وسنظل من أنصارها حتى يحدث الله بعد ذلك أمراً نتثبت به من أننا كنا مخطئين وما نظن شيئاً من ذلك سوف يحدث إلا إذا تصورنا أن العالم يمشى على رأسه » .

وقد وضع فى يدى الأستاذ فؤاد دواره مجلتين أو ثلاث ، وقصاصات صحف فيها جميعاً بعض آثار يوسف حلمى ، أو بعض ما كتب عنه ، وهى فى جملتها تعيننا على تطور أفكار يوسف ، وأسلوبه فى الكتابة ، وبنهجه فى الحياة

والذى آسف له أنى لم أستطع أن أعثر على نسخة من كتابه (جرائم ومرافعات) الذى أصدرته دار (الكتب للجميع) فى سلسلتها الشهرية ، فى سنة ١٩٤٧.
من هذه القصاصات نجد عدد من مجلة روز اليوسف صادر فى ٢٢ يولية سنة ١٩٤٨ يكتب يوسف بعنوان « نعم . . . المستقبل للحزب الوطنى يقول فيه :

« إنها ليست نبوءة ولا رجما بالغيب ، بل أستطيع أن أقول أيضاً أنها ليست نوعا من التفاؤل ، وإنما هى حقيقة مستقبلة تستمد وجودها من الحقائق الماثلة فى اللحظة الراهنة كما إذا جمعت واحدا واحدا فإن النتيجة لن تكون إلا اثنين ، وكما إذا قررت أن الهلال ستكمل استدارته فى الليلة الرابعة عشر . أما الحقائق الماثلة فهى أن عوامل الفناء التى تدب فى كيان الأحزاب المصرية جميعاً أكثر عدداً وأقوى فعلا من عناصر الحياة والبقاء فيها وأنه يبدو لأول وهلة أن الوفد الذى كان رمز أمة كاملة ، قد ضعف الآن واضمحل ، كما يضعف الملاكم العجوز ويترنح تحت ضربات خصمه .

ثم قال :

« وهنا يتضح فارقان هامان جدا بين الحزب الوطنى وبين غيره من الأحزاب ، فإن الحزب الوطنى يوم قام بين أعضائه خلاف حول مبدأ جوهرى من مبادىء الحزب ، فإنهم وإن جهروا بهذا الخلاف فإنهم لم ينقسموا الانقسام الذى يستتبعه الخلاف إذا وقع فى هيئة سياسية أخرى ، وهو إنشاء حزب جديد بل سرعان ما التأم الصدع ، وهو الالتئام الذى تستديمه طبيعة الأشياء لأنه حزب ليس للشخص فيه أثر كبير ، وإنما المثل الأعلى هو الذى يربط بين أعضائه وليس إلى التخلى عنه من سبيل .

« ومن جهة أخرى فقد انفرد هذا الحزب بمبادىء ظل كهان الوفد ومن

نحى نحوه يهزءون بها ويصرفون الناس عنها ، حتى شاء الحق أن يعلى كلمته فانطلق بها الوفد أول الناطقين : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء .

« ولقد كان من الأعصاب التى تمد الأحزاب الأخرى بالحياة ، خزائن الذهب التى يملكها أعضاؤه فهذه الأحزاب تعتمد الآن كما اعتمدت فيما مضى على ما يمدها به الأثرياء من رجالها من المال ، فأصحاب المال هؤلاء يسيطرون على طريقة تفكير كل حزب وتوجيهاته العامة ، ومن ثم فقد اصطبغت هذه الأحزاب بلون من الرأسمالية الصارخة مهما تظاهروا بالبكاء على مستوى الفقراء .

« أما الحزب الوطنى فإنه يميل منذ عهد مصطفى كامل نحو نوع من التعاون بين الثراء والإملاق ويترجم هذا الميل بلغة المذاهب الحديثة على أنه نسق توزيع الثروة وربما « إعادة توزيع الثروة » . يوم يكون للحزب أن ينفذ برنامجه عمليا ، فلن يعوقه من الرأسمالية عائق ، لأنها لا تسيطر على شئونه فى قليل أو كثير » .

وفى نفس السنة التى نشر فيها مقالة هذا ، نشر قصة فى أخبار اليوم ، فى عددها الصادر فى الحادى والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤٨ وهى قصة قصيرة تدور أحداثها القليلة حول طبيب أبى أن يشغل وظيفة فى الحكومة ، وأعد لنفسه عيادة صغيرة فقيرة فى إحدى القرى ، باع من أجل تأثيثها عشرة أفدنة ، بقى منها عند بدء حوادث القصة ثلاثمائة جنيه . وكان الطبيب مثالياً آلى على نفسه، أن يعيش مع الفلاحين ، وأن يضع نفسه فى خدمتهم ، وألا يتقاضى أجراً من فقيرهم، اعتمادا على ما عساه يحصل عليه من أغنيائهم . واستفتح عمله برجل فى الخامسة والأربعين ، مصاب بقذيفة نارية فى بطنه ، من بندقية إبنة أكبر أغنياء الناحية،

كانت تصطاد ، فطاشت الرصاصة ، واستقرت فى جسم الرجل . ولكن الرجل يخشى أن يكشف عن سبب إصابته ، لأنه يحسب حساب نفوذ الثرى وبطشه . ويتولى الطبيب علاج المصاب الفقير الجائع المريض ، ويبلغ ضابط النقطة عن هذه الإصابة على الرغم من احتجاج المصاب نفسه ومعارضته ، ويظهر الضابط دهشة من غفلة هذا الطبيب الشاب الذى لا يعرف شيئا عن القواعد غير المكتوبة التى تحكم الريف وتضبط علاقات أغنيائه بفقرائه ، ويصاب الطبيب المثالى ، الهائم فى أحلامه ، بخيبة أمل ، فقد كان يظن الضابط الشاب نصيره وساعده فى حملة التطهير والمقاومة لحساب الضعفاء وضد الأقوياء ، ويتجه نحو طبيب المركز ، لأنه طبيب مثله ، ولا شأن له بالبوليس والإدارة فإذا طبيب المركز كالضابط أو أكثر سوء ، فلا يبقى إلا مفتش صحة المديرية الذى أثبتت التجربة أنه من نفس الطينة ، وكان هذا الشوط كفيلا بأن يهد عزيمة الطبيب الحالم ، لولا شدة إيمانه برسالته ، هذا الإيمان الذى دفع به إلى وكيل وزارة الصحة ، ثم إلى الوزير نفسه الذى قيل له مرة أنه فى لجنة ، ومرة أنه فى المصيف ، وثالثة أنه فى مجلس النواب ، ولم يكد يسمع أن الوزير فى مجلس النواب ، حتى خيل إليه أن الفرج قد جاءه ،فذهب إلى المجلس ورأى الوزير وقد تجمع حوله عديد من النواب ، أخذ يروى لهم كيف أن طبيباً مجنوناً يطارده منذ أيام ليبلغه عن إصابة رجل من بندقية بنت أحد كبار الأغنياء ، وضج النواب بالضحك ، وضاقت السبل فى وجه الطبيب فلم يجد أمامه غير محاولة مقابلة رئيس الوزراء عند نزوله من سيارته إلى ديوانه ، وانتهزت الحكومة هذه الفرصة ، وساقت الطبيب إلى السجن بدعوى أنه كان يعتزم اغتيال رئيس الوزراء ، ثم أوقعت عليه كشفا طبياً عقلياً ، وسجلت عليه الجنون .

والقصة فياضة بإرهاصات كثيرة للتطور الذى وقع ليوسف حلمى ، فجعله

مشغولا بالجانب الاجتماعى من السياسة فهو يقول مثلا على لسان الطبيب، وهو يكشف على المصاب .

« لو أن فى مصر حكومة تعرف واجبها نحو أمثالك لما كنت هذا الشيخ المتهدم . حكومة أخرى كانت تعتمد عليك بحسبانك ضمن إحدى طبقات المجندين يوم يدعو الداعى للدفاع عن الوطن يوم يدعو هذا الداعى ، فإن مصر لن تجد بعد سن الثلاثين سوى شيوخ ومرضى وعجزة . والآن أخلع جلبابك يارجل . أقصد اسمالك ، فإنى أحب أن أسمى الأشياء بأسمائها » .

وهو يقول على لسان الطبيب أيضا وهو يخاطب زميله طبيب المركز :

« لو فرطنا جميعاً فى أداء واجباتنا مثل هذا التفريط الذى تطلبه منى أيها الزميل القديم لانهار النظام الحضرى كله ولارتد الإنسان إلى الغابات » .

ثم يقول على لسان الطبيب وهو يتخيل ما يجب أن يقوله لمفتش الصحـة .

« ولـكنى ألمح فى خلال ابتسامتك مرارة راقدة فى أغوار روحك . إنك مثلى تـكره هذا الوضع ولـكنك تحس بالعجز عن دفع المـكروه .وهذا مفترق الطرق بيننا فإنك يائس ، وأنا مؤمن ، قد لا أستطيع تغيير هـذه الأوضاع ولـكن لن أسلم لها ولهذا سأقاتل . . سأقاتل حتى النهاية . وفى طريقى إلى هذه النهاية سأكسب أمثالك المؤملين العاجزين وسأغرس فى قلوبهم الإيمان بأننا إذا تعلمنا أن نؤدى واجبنا فقد انتصرنا » .

ولما أدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية قال :

« قولو ما تشاؤون . . أنا موافق مقدما . . أدخلونى القصر الأصفر فإنى

أريد أن أفر من عالم العقلاء . هذا هو مصير الرسالة والرسول . عالم المجنونين أليق بهما . إن زملائى المجذوبين أرادو أن يحققوا المستحيل . كل بأسلوبه وطريقته فلماذا لا أكون بينهم ؟ هذا هو مكانى الطبيعى . لا أنكر أنى استحقه . بل أنا راض به أشد الرضا . . ولكن هل أستطيع أن أؤمل أنكم ستفتحون على يوما باب عزلتى لتخرجونى وتقولوا . . كان هذا الرجل عاقلا منذ عشرين سنة » .

« من يدرى قد تتحقق الأحلام ! »

وكتب فى مجلة الكاتب مقالا خفيف الظل ، لطيفاً ، لاذعا ، تحدث فيه عن الوظائف المحترمة فى المجتمع ، كالمحاماه والطب والمحاسبة ووظائف الجيش ، والوظائف المحتقرة كالحلاقة ودفن الموتى والجزارة فقال :

« مادام ستتوفر للناس جميعاً (فى ظل النظام الاشتراكى) نفس الفرص للتعليم والتثقيف والرعاية الصحية ، وما دام المجتمع موجها فسوف يسهل اكتشاف ميول الأفراد ومواهبهم ، ومن ثم يوجه كل واحد منهم إلى العمل الذى تيسره له موهبته ، فلا يتجمع فى كل مهنة إلا الموهوبون لها . والموهوبون لأى عمل يجيدون فيه ويبدعون فيزداد الإنتاج الاجتماعى المادى والروحى ، وبالتالى ترتفع الأجور جميعاً ، ويرتفع مستوى معيشة الجميع ويتسع الوقت للجميع لكى يضاعفوا من ثقافتهم ، ويصبح الطاهى والنجار والحلاق والفلاح فى مستوى ثقافة الطبيب والممثل والمدرس والمشرع ولايجد أى واحد من هؤلاء غضاضة فى مصادقة أو مصاهرة أى واحد من أولئك . . كلا لايوجد أبداً عمل حقير اللهم إلا العمل الضار بالمجتمع كعمل المرابى ، والقواد ، بل لا يوجد عمل يستحق الاحترام أكثر من عمل آخر . قد يوجد العمل

الذى يستحق أجراً أكثر من عمل آخر ولكنهما فى النهاية يتساويان فيما يلقيانه من المجتمع من تقدير ورعاية » .

* * *

ماذا أقول لأظهر أخلاق يوسف حلمى كأوضح ما تكون . تحضرنى واقعة أتردد فى إثباتها لأنها تتصل بى ، ولكنها أصبحت بعد مر الأيام ، وبعد كل ما وقع شيئا لا قيمة له إلا فى الكشف عن أسلوب يوسف فى التفكير ، وجرأته واندفاعه ، فى تنفيذ أفكاره .

كنت أقضى عطلة الصيف فى بور فؤاد ، وجاءنى خطاب مسجل ، تبينت على مظروفه خط أشبه الخطوط بخط يوسف . ولكنى تساءلت ، فيم يكتب إلى يوسف ، وما يدعوه إلى أن يرسل ما يكتبه فى خطاب مسجل ، وفضضت الخطاب وقرأت ، ويا لهول ما قرأت ، كما تقول لغة مسرح رمسيس . إن يوسف يدعونى أن أترك المصيف فورا ، وأن أدع هذه الراحة غير اللائقة فى وقت بلغ فيه أمر الملك ما بلغ من الانحطاط والتدهور والتحدى لشعور الناس ثم دعانى أن أعود فى الحال إلى القاهرة لأقود حملة صريحة ومباشرة لخلع الملك ، وأكد لى أن كل شىء مهيء لذلك ، وأنه سيكون أول من يتبعنى فى هذه الحملة .

ولا أحسب أنه كان فى مصر ، فى تلك الأيام ، شخص غير يوسف يستطيع أن يكتب خطابا فى هذا المعنى ، وبهذا الأسلوب ويرسله فى البريد . على كثرة الذين ، كانوا يحملون على الملك بشجاعة ، وفى غير تحرج . ولذلك ليس غريبا أن يعلق فى مجلة الكاتب على المقال الذى نشرناه فى اللواء الجديد « فخر البحار » التعليق التالى :

أثارت زميلتنا اللواء موضوع اليخت « فخر البحار » ، وبينت أن هذه القطعة البحرية التابعة لأسطول الدولة تقوم الآن بمهمة خاصة فى البحر الأبيض لا علاقة لها بأعمال الدولة وقد أشارت الكاتب فى افتتاحية العدد الماضى إلى

طبيعة المهمة التى ينبغى أن تؤديها قوات الدولة المسلحة جميعاً بما فيها السلاح البحرى وهى طعن الاستعمار البريطانى الرابض منذ عشرات السنين فى بلادنا والذى يركز الآن قواته فى فايد . وتحليل اللواء لمهمة فخر البحار الآن يجعل هذه المهمة أمراً خارجا عن شئون الدفاع ويجعل النفقات عليها مخالفة مالية تخص ديوان المحاسبة . ونحن نضيف إلى ما قالته اللواء أن قطعتين من قطع السلاح البحرى المصرى تقومان بحراسة « فخر البحار » فى مهمته الخاصة التى لا علاقة لها بالدفاع عن البلاد ، فما هو الرأى فيما ينفق على هذه القطع البحرية الثلاث من نفقات طائلة » .

* * *

أراد يوسف أن يجمع فى نفسه كل شباب عهده وجيله وقد استطاع أن يفعل ذلك ، ولو اقتصر بناء بدنه ، على روح واحدة من الأرواح الكثيرة التى اجتمعت فيه ، وتنافست على توجيهه ، والاستئثار به ، لكنا خليقين أن نظفر بكاتب عظيم أو محام عظيم ، أو قائد وطنى عظيم ، أو اشتراكى عظيم ، ولكنه راح فى التاريخ ، باذر بذور وإرهاصات لمستقبل حافل بالاتجاهات ، والأعمال الباهرة . .

الفصل التاسع

أحمد لطفى السيد

لقد كان اتصالى بأحمد لطفى السيد منذ البداية اتصالا مسرحياً . فقد كان وزيراً للمعارف ، يوم أن رأيته رأى العين ، وكنت تلميذا فى السنة الرابعة بالمدرسة الثانوية فى بنى سويف .

ولم يكن وزيراً عادياً ، فى وزارة عادية . بل كان عضواً فى وزارة انقلابية ، أوقفت الدستور الذى كان نافذا فى ذلك الحين ، دستور سنة ١٩٢٣ ، وعطلت الحياة النيابية ، وأقامت حكما أطلقت عليه حكم (اليد الحديدية) وقد كان لطفى السيد — فى ظاهر الأمر — هو العقل المفكر فى هذه الوزارة . لذلك اتخذت الجرائد الوفدية منه هدفا لصورها الكاريكاتورية ، وأزجالها الساخرة ، فضلا عن العديد من الأخبار التى غايتها غمزه ، والمقالات الجادة التى كانت تتناول ماضيه وحاضره . وكان أول مقال قرأته عنه ، فى جريدة البلاغ الوفدية ، التى لم أكن أقرؤها فى العادة ، وقع فى يدى مصادفة وكان المقال بقلم عباس العقاد الذى راح يورد الحجة بعد الحجة على أن لطفى السيد كان فاشلا طوال حياته وقد دأبت الجريدة الوفدية الأسبوعية الهزلية ، على تسميته (بجبل أوليمب) جبل آلهة اليونان ، لاشتهار أحمد لطفى السيد ، بترجمة آثار أرسطو . وقد كانت أزجال الدكتور سعيد عبده هى أطرف عناصر هذه الحملة وأمتعها ، وكانت هذه الأزجال معززة بصور صاروخان الرسام الكاريكارتورى الأرمنى المتمصر ما يزيدها قربا من قلوب القراء .

فأحمد لطفى السيد إذن كان وزيرا مكروها عند الناس ، لأنه كان قطبا فى وزارة كريهة إليهم ، ولكنى لم أتبين هذا المعنى ، ولم أدركه ، حينما طلب منى ناظر المدرسة الأستاذ محمد رفعت أن ألقى كلمة أرحب بها بالوزير، وكان قد ندبنى من قبل لألقى قصيدة من نظم على الجارم بين يدى الملك أحمد فؤاد . كنت إذ ذاك تلميذا صغيراً ، وكان وقوع اختيار ناظر المدرسة علىّ لتحية الوزير الضيف باسم المدرسة كلها ، شرفا كبيراً لا يخطر لى على بال أن أرفضه . ولكن الواقع أنى لم أكن تلميذا صغيرا إلى الحد الذى أفرح معه بهذا الشرف فرحا ينسينى الاعتبارات العامة الأخرى التى تحيط بالوزير ، وبزيارته . فقد كنت من أنصار الحزب الوطنى منذ شببت عن الطوق ، وكنت مدركا للفوارق السياسية بين الحزب الوطنى ، وحزب سعد زغلول ، وأنا بعد تلميذ فى السنة الثالثة الإبتدائية ، ولكن الذى لم يجعلنى أتوقف لحظة وناظر المدرسة يطلب إلى أن أعد الخطبة لأحمد لطفى السيد هو أننى كنت لا أجد فارقاً ذا بال بين حزب الوفد ، وغيره من أحزاب الأقلية ، كانوا جميعاً فى رأيى فروعا من حزب الأمة الذى قام ليناوىء الحزب الوطنى ، بإيعاز من اللورد كرومر ، أو على الأقل بموافقته وتشجيعه . وكانوا جميعاً من المؤمنين بثقافة بريطانيا السياسية ، وبأن استعمارها خير من سواه من ضروب الاستعمار الغربى ، وأن مصر تستطيع أن تفيد من الاحتلال البريطانى ، إن هى بعدت عن التطرف السياسى ، وقنعت بالتقدم التدريجى فى ميدانى التعليم والاقتصاد ، فى ظل هذا الاحتلال ، أيا كان إسمه أو لقب ممثله .

وكانت المفاوضة وحسن العلاقة بمندوب الاحتلال البريطانى ، وممارسة النقد السياسى للحكومة القائمة ، هى الطرق السلطانية التى كانت تدعو إليها ، تحبذها شعبتا حزب الأمة الرئيسيتان : أى شعبة سعد زغلول التى عرفت بحزب

الوفد، وشعبة عدلى يكن التى عرفت بحزب الأحرار الدستوريين . وقد تتابعت هاتان الشعبتان على الحكم فى مصر منذ سنة ١٩٢٤ ، دون أن يجد المصريون فارقا أساسيا فى عقلية كليهما السياسية ، ولا فى منهاجهما الوطنى ، ولا فى طبيعة العلاقات بينهما وبين الاحتلال . فصلات حزب الأحرار الدستوريين كانت وثيقة بالإنجليزية ، وسعد زغلول كان يعلن أن الإنجليز خصوم شرفاء وأنهم معقولون ، وجاء خليفته من بعده ليقول فى أثر مفاوضات خائبة بينه وبين الإنجليز فى لندن . أنه خسر المفاوضة أو المعاهدة ، ولكنه كسب صداقة الإنجليز . .

فالإحساس بأن وزارة محمد محمود الإنقلابية ، كانت وزارة خيانة وخونة ، وهو الإحساس الذى كان يشيع بين صفوف الشعب ، بما فيهم تلاميذ المدرسة ، لم يكن يساورنى مطلقاً ، بل كنت أرى فى وزارة النحاس ومحمد محمود وإسماعيل صدقى ، وجوها مختلفة لنظام حكم واحد ، أو أسماء متباينة لشخص واحد ، لم يبق عندى إذن إلا أن أحمد لطفى السيد ، وزير اشتغل بالصحافة وأنه أقرب إلى طائفة رجال الفكر منه إلى طائفة رجال السياسة ، وأنه لهذا جدير بالترحيب . ولم أكن من النضوج الذى يسمح لى أن أقوم الأفكار التى روج لها لطفى السيد ، وعمل فى سبيلها ، ولذلك فقد اندفعت إلى إعداد خطبتى ، وأنا متحمس وسعيد .

وفى اليوم المحدد للزيارة ، استعدت المدرسة كالعادة لاستقبال الوزير ، ودخل الوزير ، ومن خلفه وكلاء الوزارة وكبار المفتشين والناظر ، وكان الوزير يحمل عصا فى يده ، فسلمها لحاجبه تأدباً وطرق باب الفصل بأصبعه الطويل ، استئذاناً ، فوقع هذا التصرف من نفسى موقعاً حسناً . ودخل الفصل ، وكان الدرس درس لغة عربية ، أو درس فى أدب اللغة العربية ، إن أردت الدقة ، فى

شعر الشريف الرضى إن أردت التحديد. وقرأ مدرس اللغة العربية بيتاً من شعر الشريف الرضى ، يمدح به أمه ، لأنها أنجبته ، وسألنى الوزير ، أأذكر بيتاً مماثلا لشاعر آخر .

وقلت على الفور نعم ، فقال ومن يكون الشاعر ؟ قلت المتنبى. فتهلل وجه الوزير ، ثم سألنى أتذكر هذا البيت فقلت له ، وكأنى أنفجر به :

لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

فزاد تهلله ، ورأى أن يقف عند هذا الحد ، وخرج على الفور، وهو يشكر الأستاذ ويهنؤه ، وما كاد الوزير يبارح الفصل ، حتى أقبل علىّ المدرس ، وهو يكاد يطير فرحا ، وأثنى على ثناء جما ، ثم عاد يثنى وهكذا ، وأنا مأخوذ بهذا الذى حدث ، فإن محفوظى من الشعر كان ولا يزال قليلا ، فكيف اتفق أنى كنت أحفظ هذا البيت المعقد وأن يكون هو البيت المطلوب ، فى هذه اللحظة الحرجة .

وأتم الوزير دورته فى المدرسة ، ثم وقف على أعلى السلم الذى يصل مبنى المدرسة (بالحوش) أو الساحة التى وقف فيها التلاميذ صفوفا ليشرف عليهم منه ، ويحييهم ، ويحيونه تحية الوداع ، وخرجت من بين تلك الصفوف ، وفى يدى ورقة أعددت فيها الخطبة . وكنت قد عرضتها على الناظر ، وعلى الشيخ على الجارم ، المفتش الأول للغة العربية ، وكانا ينتظران أن أدير الكلام فيها على ما كان مألوفا فى تلك الأيام من الترحيب بالوزير وإظهار الفرحة بمقدمه ، والإشادة بعطفه على التعليم ، ورعايته للتلاميذ ، فإذا بهما يجدان خطابا يقول للوزير أنه الذى علم الناس أن الوظائف تقليد لا تخليد ، وتكليف لا تشريف ، ولذلك فإننى لا أحيى فيه الوزير ، بل أحيى فيه الصحفى الذى دعى إلى المطالبة

بالدستور والحرية ، ولم يغير الناظر حرفا واحداً من هذه الخطبة مع ما فيها من إحراج للوزير الذى كان مشاركا فى وزارة اضطهدت يومها الصحف وعطلت الكثير منها ، وسر الوزير من الخطبة سرورا عظيما ، وهنأنى عليها ، وشكرنى ولعله سأل عن إسمى.

وانتهت زيارة الوزير ، وقد ارتسمت له فى نفسى صورة رجل نحيف ، لا حظ له من الوسامة ، وإن كان أنيقا مفرطا فى الأناقة ،وقد استوقفتنى فى أنفه الضخم، ندوب صغيرة كثيرة لعلها أثر من آثار مرض الجدرى، وعينان ضيقتان غائرتان فى محاجرهما ، كما تأثرت بهدوئه الجم ، وحركته الوئيدة وبساطته وتواضعه ، اللذين أعانانى على أن أرد عليه ، وأخطب بين يديه ، فى غير خوف أو ارتباك .

ومضت الأيام ، ولحقت بالجامعة طالباً فى كلية الحقوق فى العام الدراسى الذى يبدأ فى أكتوبر من سنة ١٩٢٩ ، وكانت الجامعة لاتزال وليداً لم ينقض على مولده سوى عامين ، وكنا أول الفرق التى استمتعت بمبانى الجامعة الحديثة، ومدرجاتها الأنيقة . وفى العام التالى ، نبتت فكرة مشروع القرش فى رأس الأستاذ أحمد حسين ، وذهبت إلى مدير الجامعة ، أسأله حديثاً للعدد الخاص لمجلة المصور الذى كنت بسبيل إعداده وإصداره .

وكان مدير الجامعة هو الأستاذ أحمد لطفى السيد ، ترك الوزارة ، وشغل هذا المنصب . ولم تكن مبانى إدارة الجامعة ، بقبتها العظيمة ، وقاعتها الفسيحة، وحجرها العديدة الفاخرة ، قد بنيت بعد ، لذلك شغلت إدارة الجامعة قصرا قريباً من إدارة الجامعة ، كان أصلا قصر الثرى الإسرائيلى شيكوريل ، قتل فيه شرع فى قتل زوجته ، ثم أجرته بعد ذلك الأسرة للحكومة .

ذهبت إلى هذا القصر لأتحدث إلى المدير الحالى للجامعة ، والوزير السابق للمعارف ، وكان فى سكرتاريته اثنان من أوثق الناس صلة بالأدب ، أولهما الأستاذ مجد الدين ناصف الأديب ، ابن الأديب الشاعر حفنى ناصف ، وشقيق الكاتبة ملك حفنى ناصف السيدة الرائدة فى دنيا الكتابة النسائية والتعليم فى بلادنا . وكان الثانى هو الأستاذ حسين شوقى ابن أمير الشعراء أحمد شوقى ، وأحب الناس إلى قلبه .

ولم يتردد الأستاذ أحمد لطفى السيد فى مقابلتى ، وفى مكتبه الهادىء ، رأيت كتاب أرسطو أمامه بالفرنسية ، وفهمت أنه كان يملى الترجمة على سكرتيره الأستاذ حسين شوقى ، وخيل إلىّ أننى بعد مقدمة قد تطول ، سيسمع منى المدير الأسئلة التى جئت بحثاً عن إجابتها عنده ثم يصرفنى .

ولكن الذى حدث أنى رأيت عند مدير الجامعة رغبة قوية فى التبسط معى فى الكلام ، وقد ذكرته بنفسى ، وبما كان منى فى مدرسة بنى سويف ، فأفهمنى أنه يذكرنى ، ولكنى لم أحس مطلقا بشىء من ذلك ، وحملت ما قاله على محمل الرغبة فى مجاملتى ، أو تشجيعى .

ولم أكد أتكلم مع الأستاذ أحمد لطفى السيد قليلا حتى بدا لى ساذجاً ، أبعد ما يكون عن الواقع ، ولكنى مع ذلك كنت سعيدا بالتحدث إليه ، والاستماع لما يقوله ، فقد كان بمركزه وماضيه وشهرته ، شخصاً كبيرا ، وكنت طالباً لم أتم تعليمى .

قلت له أننا ننوى جمع تبرعات صغيرة من الناس جميعاً ، لننشىء به مصنعاً ، فنسهم بذلك فى خلق الاهتمام بالصناعة ، وبتكوين رأسمال يعين على إنشاء المصانع تكون مملوكة للشعب حقيقة لا مجازاً ، فضلا عما فى هذا العمل من

تعويد طلبة الجامعة والمدارس على المشاركة فى الشئون العامة بطريق جاد ، وتعويد الشعب على النشاط التعاونى ، الذى يقوم على تفكير قومى .

وكم كانت دهشتى حينما سمعت معالى مدير الجامعة ، يحاول جاهدا أن يصرفنا عن التفكير فى الصناعة والمصانع ، ويستحثنا على إنشاء مستشفيات للمصابات بالأمراض العقلية وأسهب فى بيان أنه لايكاد يخلو بيت من آنسة مصابة بمرض عقلى ونفسى ، وأن الآنسات الـ Norastanique (النورسوتانيك) أكثر مما نتصور ، وأنهن لايجدن العناية الطبية التى تلزمهن إذ لا يوجد فى البلد مستشفى متخصص فى علاج حالتهن . وبطبيعة الحال ، لم أعارض معالى مدير الجامعة ، ولم أسترسل فى إقناعه بحاجة البلاد إلى الصناعة والتفكير فيها ، والدعوة إليها .

ومن المصادفات الغريبة ، أن نظرى وقع وأنا أعد مواد هذا الفصل عن لطفى السيد ، على مقال كتبه فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩ ، ينعى فيه على المصريين عزمهم على التبرع لتركيا ببعض المال مساهمة فى إنشاء البحرية العثمانية وقد قال فى هذا المقال « أما قيمة المساعدة فإنها يستحيل أن تزيد على آلاف من الجنيهات لا تنفع البحرية العثمانية فى شىء ، ولكنها تنفع الاقليم الذى تجمع منه فى بناء مدرسة أو تأسيس معمل زراعى كيمائى لتخفيف مصائب الزراعة المصرية » .

فلطفى السيد كان يرى الدعوة إلى انشاء معمل زراعى كيمائى ، ضرورة فى سنة ١٩٠٩ ، ولا يرى إنشاء معمل من هذا الطراز جديرا حتى بمجرد التفكير فيه فى سنة ١٩٣٢ ، ولما رويت هذا الحديث لأصدقائى لم يصدقونى ، واعتبرونى مازحاً وراغباً فى رسم صورة كاريكاتورية لمدير الجامعة .

على أننى بعد أن نحيت جانباً فكرة مشروع القرش ، حاولت أن استخلص

من لطفى السيد شيئاً أستطيع أن أقدمه للطلبة فى الحديث الذى أردت أن أديره معه ، فوجدت أن ذلك من قبيل المستحيل ، فقد راح يتنقل من موضوع إلى موضوع ، وأنا لا أدرى إذا كان يفعل ذلك عن عمد ، تهربا من الإدلاء بحديث لطالب عن مشروع لم تتضح له معالمه بعد ، أو لأن شهيته المفتوحة للكلام جعلت تركيزه على شىء معين بذاته أمراً صعباً . والحق أننى استطعت أن أتبين كم يحب لطفى السيد الحديث ، وكم يلذ له أن ينتقل بغير قيد أو ضابط ، ممارساً قدرته فى الكلام المرسل المتصل ، وفى عرض ما اختزن من المعلومات وانصرفت من المقابلة الأولى دون أن أخرج منها بشىء من الأجوبة على أسئلتى ، وفى المقابلة الثانية ، جلست مع الأستاذ مجد الدين حفنى ناصف ، وتكلمنا عن لطفى السيد ، فقال الأستاذ مجد الدين : أنه ينفع « قعر مجلس . . » وهو تعبير إصطلاحى يطلق على المحدث الذى يستطيع أن يسيطر على المجلس الذى يشارك فيه ، بطلاوة حديثه . وفى الجلسة الثانية ، طاف بى لطفى السيد على أكثر من موضوع ، ولم أخرج منها ، بأكثر مما خرجت من الجلسة الأولى ، إلا أن للمعنى الذى راقنى كثيراً ، هو ما قاله عن أن تدقيق الكاتب فى اختيار اللفظ المناسب للمعنى الذى يريده ، رياضة خلقية وعقلية على السواء ، وتطويع للغة ، وتحديد لألفاظها . وأن الترخص فى استعمال الألفاظ حسبما اتفق وإلقاء الكلام المطاط الذى يتسع لأكثر من معنى ، هو إفساد لعقول الناس وأخلاقهم معا ، لأن كل ترخص فى الكلام ، هو ثمرة ترخص فى الأخلاق ، أو سبب له وقد قيدت هذا المعنى ، وزعمت أن مدير الجامعة يدعو أبناءه الطلبة ، إلى تعويد أنفسهم الدقة فى التعبير ، لأن ذلك يقوى إرادتهم ويجنبهم التورط فى الغموض والميوعة .

وقد كان لطفا بالغاً من لطفى السيد أنه روى لى ما كان يعانيه من التعب وهو يترجم أرسطو إلى العربية فى سبيل العثور على الألفاظ التى يراها مناسبة

للفظ الفرنسى. وقد كانت كلمة Tantalisnt من الألفاظ التى حيرته ترجمتها. وكلمة Tantlisant الفرنسية يمكن ترجمتها بالعربية العامية بكلمة (يحنث) . وهو لفظ غنى بالمعنى ، لأنه يصور حالة من يقترب اقترابا شديداً حتى يكاد يرتمى فى أحضان صاحبه ثم يبتعد ابتعادا شديداً ، وهو يعتقد أنه مطلوب ومرغوب فيه. ولما كنت فى تلك الأيام لا أكاد أفرغ من مقابلة أديب كبير ، حتى أقابل أديباً آخر ، فقد اعتزمت أن أدور على هؤلاء الأدباء بسؤال لطفى السيد عن اللفظ المساوى لكلمة (يحنس) العامية ، وحدث أنى قابلت فى اليوم التالى مباشرة الأستاذ صادق عنبر ، وكان من كتاب اللغة العربيـة ، الذين يعلمون من أصول اللغة ، الكثير ، والذين يطيلون النظر فى المعاجم العربية ، فسألته عن اللفظ المطلوب ، فقال بعد فترة من التأمل : يحاسن . ولكنى لم أطمئن إلى هذه الإجابة . وقد ذكرنى هذا بما كان يفعله حافظ ابراهيم وهو يترجم البؤساء ، فقد كان يقرر مكافآت لمن يعينه على العثور على الألفاظ التى لا يجدها للمعانى التى تشغل باله ، وأنه منح جنيها لمن أرشده إلى لفظ «ينصفق» تعبيراً بها عن فعل «قفل الباب بشدة» والتى يمكن أن يعبر عنها بالعامية بقولنا « رزع الباب » .

ومضت أيام أخرى ، وبدأت أدعو إلى عقد مؤتمر للطلبة الشرقيين ، لا تقتصر الدعوة إلى حضوره على الطلبة العرب ، بل توجه الدعوة له لطلاب الشرق كله من اليابان إلى المغرب . وكنت أحلم بمؤتمر يشهده الطلبة اليابانيون والهنود والأندونيسيون والأفغانيون والأتراك إلى جانب السوريين والعراقيين والمصريين والليبين والتونسيين والمغاربة والسودانيين ، على أن يشرف المؤتمر على نشاط متعدد الجوانب ، يشمل مباريات رياضية بين طلبة جامعات هذه الدول ، واجتماعات كشفية ، وحفلات فنية . ولاشك أن ذلك المشروع كان

يومذاك مسرفا فى الطموح ، فقد كان أكثر هذه الدول خاضعاً لحكومات استعمارية تحرص على منع قيام اتصال بين شباب الشعوب الشرقية ، ولكن كان أملى أن يلبى الدعوة بعض هذه الدول ، وأن تقوم الهيئات الشعبية فى الدول المحكومة بالاستعمار بتلبيتها بدلا من حكوماتها ، وقد كان فى مصر عدد غير قليل من الأندونيسيين والمغاربة والهنود وغيرهم .

ورحت أتصل بوزراء المعارف السابقين ، أملا فى أن أحصل منهم على تصريحات تؤيد فكرة المؤتمر ، بعد أن أنشأنا لجنة تحضيرية كان على رأسها مدير الجامعة الدكتور على ابراهيم باشا ، وقد ضمت بعض أساتذة الجامعة فى مقدمتهم الدكتور عبد الرزاق السنهورى والدكاترة أحمد أمين ومنصور فهمى وعبد الوهاب عزام ومحمد خليل عبد الخالق ، فساقنى هذا المسعى إلى منزل الأستاذ لطفى السيد فى مصر الجديدة ، فقد لقينى ذات أصيل فى حديقة منزله ، وكان معه ، شقيقه الأستاذ سعيد لطفى الذى كان مديراً للجيزة ثم مديراً للإذاعة . وقد دار بينى وبين الأستاذ لطفى السيد وشقيقه أطرف حديث .

أما لطفى السيد فقد نصحنى بألا أبعثر جهدى فى هذه المحاولات التى لن يعود منها على مصر نفع ، ذلك لأن مصر بمركزها وعدد سكانها وثروتها محسودة من جميع البلاد التى حولها . أما الهنود واليابانيون والأندونيسيون ، فأبعد من أن يضمنا معهم نشاط مشترك ، فلنكن مصريين ، وليكن تفكيرنا مصريا ، ولنقصر سعينا وجهدنا على رقى مصر ، وتحسين أحوالها . وأراد أن يقنعنى برأيه بدليل حاسم فقال أنه يذكر اجتماعا عقد لتكريم أحد الزعماء أو الأعيان السوريين أو اللبنانيين فوقف خطيب منهم يقول فى صراحة ، إن شئت التلطف فى القول ، وبوقاحة إن أردت أن تسمى الأشياء بأسمائها فقال : سوريا فيها رجال ، ومصر فيها مال ، وما ينفع المال بغير رجال » وعقب لطفى السيد على

ذلك بأن هذه نظرة العرب إلينا : أننا مجرد حقيبة نقود ، لا تنفع إلا برجال يحسنون استثمار ما فيها من مال، وهم هؤلاء الرجال. ولم يكن هذا الرأى بالشىء الجديد بالنسبة لى، فقد كنت قد ازددت معرفة لآراء لطفى السيد ، ودعوته إلى المصرية بأضيق معانيها ، وأنا أدرس تاريخ مصطفى كامل ومعاصريه ، ولذلك لم أيأس فى التو من الحصول على تصريح منه مؤيد لفكرة المؤتمر ، فقلت له : أن هذا الرأى السىء من جانب العرب فى المصريين ، راجع إلى عدم التعارف بيننا وبينهم ، وإلى سوء أحوالهم هم ، وتخلفهم الثقافى والحضارى ، والسكوت على هذا الوضع والرضاء به يضر ولا ينفع» . ورويت له أننى وأنا أتجول فى البلاد العربية داعياً إلى المؤتمر سمعت رأيين أولهما من المرحوم اسعاف النشاشيبى،جاء عرضاً فى حديث معه ، وأنا أتناول العشاء عنده ، فقد أثنيت على الجيوش المصرية فى عهد محمد على ،لأنها حققت من النجاح فى الحروب السورية ماعجز عن تحقيقه نابليون، فنظر إلىّ وقال هازئا : تقول جيوش مصرية وابراهيم بن محمد على . ! إن هذا من أضاليل التاريخ . . إن الذين قادوا هذه الحروب ، هم ضباط فرنسيون وقادة أتراك ، ولم يكن للمصريين دور يذكر فيها. أماالرأى الثانى فقد سمعته من (نبيه العظمة)، فقد قال لى : خذونا سيدى ، بأى شكل.. ضمونا إليكم — أى إلى مصر — مستعمرة ، ولاية .. نحن راضون ، المهم أن نتحد » فعقب أحد الجالسين من السوريين فقال : الشوام ما يخافون من وحدة مع أى بلد عربى ، فهم واثقون أنهم بنشاطهم ، وذكائهم ،ستصير إليهم الأمور فى أى دولة يكونون جزء فيها » .

فأمن لطفى السيد على هذا الكلام : هذا هو رأيهم . . وإن أخفاه بعضهم كياسة أو سياسة ، فهو مستقر فى أعماق نفوسهم ، لا يستأصل ولا يزول .

فعدت أقول له : أنا لا أحاول أن أنفى هذا ، لأن غايتى أن أحقق الغرض الذى جئت من أجله ، لا أن أقنع لطفى السيد ، بالعدول عن رأى عاش عليه ، ودعا إليه ، وبعد أكبر عنصر من عناصر رأسماله السياسى ، فقلت له : إننا بهذا المؤتمر لا نقيم دولة ، وإنما نعقد مؤتمرا للطلبة، وهو غير مقصور على الطلبة العرب ، وإنما سيضم غيرهم من الدول التى سبقتنا إلى الاستقلال وإلى إنشاء قوة صناعية كبيرة كاليابان ، كما سيضم شعوبا تمارس نشاطا سياسا ناجحا كالهند . . » فلم يغير رأيه وقال : لا . . لا فائدة .. لا تضيعوا جهودكم .. بلادكم أحق بنشاطكم » .

وانبرى الأستاذ سعيد لطفى لتأييد أخيه ، وحاول أن يغرينى بالعدول عن فكرة المؤتمر ، فقال : إن فى مصر ، أماكن جميلة جدا للرياضة والسياحة . . خذ مثلا الطريق ما بين القلعة وحلوان .. لا أحد من الشباب يطرقه ، ولا تقام فيه معسكرات .. »

وكدت أنفجر من الضحك ، فقد دخلت بيت لطفى السيد ، داعيا إلى مؤتمر للطلبة الشرقيين ، وكدت أخرج منه بفكرة التريض فى الطريق مابين القلعة وحلوان . . فأى بديل عظيم! ولما لم ألمح حتى بارقة أمل فى أن أظفر منه بتصريح يؤيد نشاط الطلبة عموما ، واتجاههم إلى الاتصال بإخوانهم فى البلاد التى تتشابه ظروفنا بظروف وطنهم خصوصاً فقد خرجت ، وأنا أفكر طويلا فى هذه العقيدة التى يؤمن لطفى السيد بها .

ولم تكن هذه كل مقابلاتى مع لطفى السيد ، فقد اتصلت به فترة أزمة طه حسين سنة ١٩٣٢، حينما أصدر حلمى عيسى وزير المعارف قرارا بنقله من الجامعة إلى الوزارة، واعتبر هذا النقل اعتداء على استقلال الجامعة ، وكان المظنون أن لطفى السيد ، سيكون أشد الناس فزعا من هذا الاعتداء ، وأسرعهم احتجاجا عليه ،

ولكنه تلكأ طويلا، وقد قصدته أسأله عما يراه فى هذه الأزمة ، وما ينويه فى صددها ، فدار دورانا واسعا ، دون أن يقول شيئا مفهوما ، فأغضب هذا الموقف الطلبة منه ، فذهبوا إليه فى مكتبه بإدارة الجامعة ، وتصايحوا ، وهتفوا له طويلا ، وبدا أنه يود أن يعتصم بمكتبه ، وألا يخرج إلى المتظاهرين ، فدرت إلى الباب الرئيسى ، ودخلت مكتبه بلا استئذان، وقلت له : ابناؤك يودون أن يسمعوا منك شيئا ، وأنت أحق الجميع بأن تقول فى هذه الأزمة ما يوضح السبيل للجميع » ،وود أن يتخلص منى ، ولكن خيل إليه ، أن ورائى زملاء آخرين سيقتحمون مكتبه ، فآثر أن يخرج إلى الشرفة المطلة على الحديقة ، التى تجمع فيها المتظاهرون ، وقال والسبحة فى يده ، كلاما ضاع وسط الضجيج، وقفل راجعا إلى مكتبه، ولكنه لم يستطع أن يحتمل الموقف كثيرا ، فقد كان السخط على تصرف الوزارة عنيفا ، وكان إضراب الطلبة مستمرا ، فلم تكن ثمة مندوحة من أن ينزل على مقتضى الظروف وأن يستقيل .

* * *

عشنا سنوات طويلة ، وليس ثمة رجل آخر غير لطفى السيد يحمل هذا اللقب الضخم «أستاذ الجيل » وكنا لا ندرى ما حدود هذه الأستاذية ، ولا هذا الجيل ، ولا علام تقوم هذه الأستاذية ، وفى أى نطاق تجرى ؟

ولكى نتصدى للأسئلة التى يثيرها هذا التساؤل ، لابد لنا من مراجعة سريعة لحياة لطفى السيد ، ونشاطه بصفة عامة ، ونشاطه الفكرى بصفة خاصة .

وقد روى لنا لطفى السيد حياته فى مجموعة مقالات نشرها المصور ، ثم جمعت فى كتاب ، ومن هذه المقالات ، ومن مصادر أخرى ، نستطيع أن نعرف

أن لطفى السيد ينحدر من أسرة غنية ، فقد كان أبوه عمدة لقرية برقين التى ولد فيها سنة ١٨٧٢ ، وكان جده أيضا عمدة هذه القرية ذاتها ، غير أن أباه ، كان فوق هذه العمدية باشا من باشوات المصريين . ويقول أن أهل قريته ينطقون القاف (جافا) ، والجيم ، مع تعطيشها فتكون أقرب ما تكون من الشين ، ويزعم مع ذلك أن أهل قريته كانوا مصريون أصلاء ، مع أن هذه الخصائص وحدها قاطعة بأنهم من سلالة عربية ، لا تزال تحتفظ بلهجة الأجداد وطريقة نطقهم للحروف العربية ، ويضيف هو إلى أن (برقين) قد تكون أخذت اسمها من قرية (برقين) فى فلسطين ، وهذا دليل آخر يقوى احتمال نزوح أجداده إلى مصر من فلسطين . وقد استفتح لطفى السيد ترجمة حياته بهذا الكلام ، ليكون كلامه منذ البداية إعلانا لدعوته إلى القومية المصرية فى أضيق حدودها .

ولكنه لم يكد يخطو فى ترجمة حياته حتى يذكر أنه أخذ يوما مهرة أهداها إليه والده ، إلى قرية مجاورة هى (طرانيس العرب) ولا يمكن أن يلحق لفظ العرب إلى (طرانيس) إلا لأن أهل هذه القرية كانوا بطنا أو فخذا من قبيلة عربية وافدة ، وهكذا تنفس لطفى السيد منذ اللحظة الأولى جوا عربيا ، وأحاطت به من كل جانب التقاليد العربية .

وقد حدثنا عن حياة التلمذة فى مدرسة المنصورة الإبتدائية التى أرسله أبوه إليها ، بعد أن كان قد نوى إرساله الى الأزهر ، ففهمت من هذا الحديث لماذا كان يشكو سلامه موسى من التعليم فى المدارس الإبتدائية والثانوية ، فقد كانت المدرسة الإبتدائية فى ذلك العهد أقرب إلى السجن منها إلى الثكنة العسكرية ، وهى فى الحالين أبعد ما تكون عن المدرسة وجوها . فالتلاميذ كانوا يتناولون العيش الجاف ، كل يوم ، لا تأديبا لهم ، بل لأن العيش الجاف كان الإفطار اليومى ، وكان على من أراد أن يأتدم بشىء ، أن يشترى من

جيبه الخاص الحلاوة الطحينية أو الجبن. أما العدس والفول ، فهو وجبة الغداء. وفى بعض الأيام كانت المدرسة تقدم اللحم أو الفاكهة ، تماما كما يجرى فى السجون، وفى كل يوم جمعة يسير الطلبة «طابوراً» فى شوارع مدينة المنصورة. وكان التلاميذ يعاقبون بوضع الحديد فى أرجلهم وقد روى لطفى السيد أشياء طريفة عن الفترة التى كان يتلقى فيها التعليم فى المدرسة الثانوية ، منها أن المعاملة فى المدرسة الثانوية ، كانت أرق وألطف بكثير منها فى المدرسة الإبتدائية فقد كان الطلبة يتناولون فى طعامهم البيض واللحم والفاكهة كل يوم ، إلا أن التلاميذ كانوا يوزعون على سنى الدراسة بالطول ، لا بالإجتهاد والكفاية ، فكان أطول التلاميذ فى السنة الثالثة، والذين يلونهم فى الطول فى السنة الثانية، وأقصر الجميع فى السنة الأولى ولما كان زميله وصديقه عبد العزيز فهمى فى مدرسة الخديوية الثانوية ، قد نجح فى السنة الأولى التجهيزية أى الثانوية من مدرسة طنطا ، فكان من حقه أن ينقل إلى السنة الثانية ، ولكنه لم يجب إلى طلبه — وذلك لقصر قامته — إلا بعد جهد .

وكان نظام الفتوات منتشرا فى القاهرة، فكان فى كل حارة زعيم هو (فتوتها) وكان فتوات الحارات يتنازلون بعضهم بعضا فينشرون الرعب فى المنطقة ، فآثر لطفى أن يبقى فى المدرسة حتى فى أيام الأعياد ، لكيلا يتعرض لأذى تلك الحروب المحلية. وكانت مدرسة الخديوية الثانوية ، هى ومدرسة المهندسخانة (أى كلية الهندسة) فى مبنى واحـــد ، ولكن طلاب مدرسة المهندسخانة كانوا يلبسون زيا عسكريا كاملا ، وكانوا يحملون السيوف إلى جنوبهم ، فيخلبون بمنظرهم هذا أعين زملائهم تلاميذ المدرسة الثانوية .

وقد شكا زملاء لطفى من الامتحانات الشهرية فأوفدوه إلى على باشا مبارك وزير المعارف ليرجوه أن يعفيهم منها ، وكان الوزير يستقبل التلاميذ فى

مكتبه بالوزارة ويتلطف معهم ، ويتعرف على حاجاتهم ، إلا أنه كان يضع فى مكتبه سبورة يمتحن عليها التلاميذ الذين يتقدمون إليه بالرجاء ، فإن أحسنوا الإجابة أجاب ملتمسهم .

ولما نجح فى امتحان شهادة البكالوريا – وكانت هذه الشهادة قد انشئت فى سنة ١٨٨٩ – لم يدر أية مدرسة يختار ، فأجرى القرعة مرتين ، ولما وقعت القرعة فيهما على مدرسة الحقوق دخلها ، وكان استعداده فى الرياضة وتفوقه فيها يؤهله لدخول مدرسة الهندسة ، ولكنه كره اللحاق بها ، لأنها كانت تقبل الراسبين فى شهادة البكالوريا . وكانت الدراسة فى مدرسة الحقوق خليطا من الدراسة القانونية والأدبية فقد كان ضمن موادها — إلى جانب العلوم القانونية — آداب اللغة العربية، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة والمنطق ، وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات. وسافر لطفى السيد إلى استانبول فى سنة ١٨٩٣، لقضاء فصل الصيف بها، فالتقى بصديقه وزميله اسماعيل صدقى، وفيما كانا يتنزهان يوما على (كوبرى) من كباريها ، انتقد اسماعيل صدقى تهدم (الكوبرى) وتداعيه ، وتساءل فيم تصرف أموال الحكومة وكان من خلفهما جاسوس من جواسيس الحكومة التركية المنبثين فى كل مكان ، وكان جزاء من ينتقد الحكومة النفى إلى بغداد ولكن بعث الله لإسماعيل صدقى كبيراً من كبراء الدولة يعرفه فدافع عنه بحجة أنه شاب صغير ، فأعفوا صدقى من العقاب ، ولكن ألزموه أن يعود فى اليوم التالى إلى مصر ، فعاد فعلا ، وبقى لطفى السيد يتلقى دروسا على يد جمال الدين الأفغانى الذى استقر به المطاف فى عاصمة الأتراك .

وقد وصفه لطفى السيد بقوله :

« كان رحمه الله طيب الحديث ، لطيف المعشر ، حلو الفكاهة . ولما

ذهبت إليه مع إخوانى ، ألفيته رجلا مهيب الطلعة ، قوى الشخصية ، لا نظير له بين أهل عصره فى علمه وذكائه وألمعيته . وكان أبيض اللون ، ربعة ممتلىء البنية أسود العينين ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، جذاب للنظر ، يلبس عمامة وجبة وسراويل على زى علماء الآستانة » .

ويقول لطفى السيد أنه أتم دراسته بمدرسة الحقوق فى سنة ١٨٩٤ ، فعين وسائر زملائه الذين نجحوا معه كتبة فى النيابة بمرتب قدره خمسة جنيهات فى الشهر ، وكان تعيينه أول الأمر كاتباً فى نيابة شمال القاهرة ثم نقل إلى الاسكندرية رقى بعدها سكرتيرا للافوكاتو العمومى ، ثم انتدب معاونا للنيابة ببنى سويف ، فسر بهذا التعيين لأنه وجد فى نيابة بنى سويف — صديقه عبد العزيز فهمى ، الذى حافظ على صداقته ، ومودته ، إلى آخر العمر . ويقول لطفى أنه فى بنى سويف ، ساوره وصديقه ، أن يؤلفا جمعية سرية لتحرير مصر من الاحتلال البريطانى ، وأن هذه الجمعية ضمت فيما بعد ، عداه وعبد العزيز فهمى ، أحمد طلعت الذى أصبح رئيسا لمحكمة الاستئناف ، وحامد رضوان ومحمد بدر الدين وعبد الحليم حلمى وعلى بهجت ، ومحمد عبد اللطيف .

ويروى لطفى السيد أنه التقى ذات يوم فى القاهرة بمصطفى كامل ، فقال له مصطفى ، « أن الخديو يعرف كل شىء عن جمعيتهم السرية ، وأغراضها ، وأن لا يرى تنافيا بينها وبين أن يشترك لطفى معه فى تأليف حزب وطنى سرى تحت رياسة الخديو » فقبل لطفى السيد هذه الدعوة ، وذهب الى مقابلة الخديو ، الذى شرح له أغراض الحزب الوطنى ثم اقترح عليه أن يسافر إلى سويسرا ويقيم فيها سنة ليكتسب بعدها الجنسية السويسرية ثم يعود إلى مصر ، ليصدر جريدة تناهض الاحتلال البريطانى، وحقق لطفى السيد من هذه الفكرة ، السفر إلى جنيف ، ولكنه لم يتم السنة المطلوبة ، ولم يحصل على

يتولى ترشيد المصريين ، وتلقينهم مذهبه القائل « مصر للمصريين » . وفاته أن المصريين، لم يكونوا أقل إدراكاً للمعنى الوطني منه، ولا أكثر تفريطاً في أرض بلادهم، وإنما كانوا أشمل منه نظراً لميدان المعركة ، وأعمق منه فهماً لإعتباراتها ، فإن بريطانيا لم تكن تتحمس لمصلحة مصر ، لا العاجلة ولا الآجلة ، وإنما كانت تعمل لحساب مصالحها الاستعمارية التي تثبت أقدامها في المنطقة، والتي تزيدها قوة في إذلال مصر وتركيا على السواء .

وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا المعلم السياسي الجديد ، أخرج صحيفة الجريدة في ٩ من مارس سنة ١٩٠٧ ، وقال أنها « صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح » ولقد كان أصدق ما يكون الكاتب ، حينما اتخذ من الاعتدال الصريح شعاره وشعار صحيفته ، فإنه لم يعرف التطرف طوال حياته إلا في شيء واحد ، ألا وهو الاعتدال ، إن جاز مثل هذا الكلام .

وقد تكون لهذه الجريدة مجلس إدارة ضم محمود باشا سليمان ، وكان رئيسه — كما قلنا — ومحمد محمود باشا ابن محمود باشا ، وعمر باشا سلطان ، ومحمود بك عبد الغفار ، كما ضم من كبار الموظفين فتحى باشا زغلول وكيل وزارة الحقانية وعبد الخالق باشا ثروت النائب العام ، وأحمد باشا عفيفي المستشار بمحكمة الاستئناف .

ويقول لطفي السيد أن الجرائد المنتمية إلى الخديو اتهمت هذه الجريدة باتصالها بالإنجليز، وقد علل رواج هذا الاتهام بوجود هؤلاء الموظفين الكبار ذوى المكانة، في مجلس إدارة هذه الجريدة، في وقت كانت فيه سلطات الاحتلال ، شديدة الحرص على إبعاد الموظفين المصريين عن الأعمال الوطنية والسياسية ، مهما صغرت . وبعد أيام من ظهور (الجريدة) تألف حزب الأمة واختير محمود باشا سليمان رئيساً له ، وحسن باشا عبد الرازق وعلى شعراوى باشا وكيلين ،

الجنسية التى سافر من أجل اكتسابها، لمجرد أن آريا اسمه (نافيل) قال للطفى السيد « لا أظن أن أوروبا ستساعـــدكم ، وأرى أنه لا يحرر مصر إلا المصريون » .

ويروى لطفى السيد ، أنه التقى فى جنيف بقاسم أمين ، وكان قد شرع فى تأليف كتاب (تحرير المرأة) وأنه أخذ يتلو عليه وعلى سعد زغلول ومحمد عبده - وكان آنذاك فى سويسرا - فصولا منه . وأن محمد عبده أراد أن يحضر فصلا صيفياً فى جنيف أعدته الجامعة هناك ، لدراسة الآداب والفلسفة .

وأنه قابل فى ذلك الصيف نفسه ، أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية وأنه أخذ يشكو له وهو يبكى من تصرف إبنه محمد فريد الذى ألحق به العار ، لأنه فتح (دكان أبو كاتو) ، فقد كان مكتب المحاماة عند أحمد فريد باشا لا يزيد عن دكان ، وكان المحامى لا يزيد عن صنايعى إسمه (أبوكاتو)

كما قابل باقى أعضاء الحزب الوطنى الذى منهم سعيدالشيمى (ياور الخديو) ومحمدعثمان (والد أمين عثمان) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم) وذكر لنا أن أعضاء الحزب انتحلوا لأنفسهم أسماء سرية أو حركية فكان اسم الخديو (الشيخ) واسم مصطفى كامل (أبو الفـــــداء) ، واسم لطفى السيد (أبو مسلم) .

وتقف القصة عند هذا الحد ، ويبرر لطفى السيد اقتضابها ، بأن الخديو اتصل بعلمه أن لطفى تقابل فى جنيف مع الشيخ محمد عبده فحرمه من ثقته لأنه كان يكره الشيخ محمد عبده ، وإن كان الواضح أن لطفى السيد لم يكن مهيئا لعمل سياسى بصفة عامة ، وعمل سياسى سرى بصفة خاصة ، فقد أعد تقريراً أرسله إلى الخديو ، لخص فيه نتائج مهمته فى سويسرا بأن مصر لن تستقل إلا

بجهود أبنائها ، وهو كلام سليم ولا غبار عليه ، ولكنه رتب على هذه النتيجة المعقولة نتيجة غير معقولة إذ نصح الخديو بأن يترأس حركة شاملة للتعليم ، كأن حركة التعليم هي وحدها العمل الوطنى ، وكأن الدعوة إلى التعليم ، لاتحتاج إلى من ينبه الأذهان لها ، ومن يتولى حمايتها إذا فطنت دوائر الاحتلال إلى أنها مقدمة بعمل وطنى شامل .

والحق أن لطفى السيد أراح واستراح ، حينما عاد إلى العمل الذى خلق له، وهو الوظيفة الحكومية . فقد عاد إلى مقر وظيفته فى النيابة بإسكندرية ثم بالفيوم. وفى سنة ١٩٠٥ استقال لخلاف قانونى بينه و بين النائب العمومى. وكان قد اعتزم أن يقيم فى بلده متأثرا بتولستوى ،ولكنه عدل عن خوض هذه المغامرة (التولستوية) بما فيها من متاعب بدنية وروحية فادحة ، لمجرد أن صديقه عبد العزيز فهمى أغراه بالعمل فى المحاماة، ولكنه لم يلبث أن سئم العمل فيها ، لأن صاحب قضية خاسرة ، رابط فى مكتب المحاماة يطالبهم فى الدخول والخروج ، برد أتعاب قضية دفعها للمكتب ، مع أن لطفى وزميله عبد العزيز فهمى ، كانا قد نبها هذا العميل قبل أن يقبلا قضيته بأن الأمل فى كسبها ضعيف ، ويقول عبد العزيز فهمى وهو يروى هذه الفترة من حياته وحياة لطفى السيد :

« وعند انصرافنا من المكتب قال لى لطفى : هل هذه هى المحاماة ؟ أنا فى غرفة المحامين أسمع من البعض فحش القول وهجره ، وأجد من بعض القضاء جفاء وغلظة . . وها هم أولاء أصحاب القضايا يمثلهم عم عزام (صاحب القضية الخاسرة) فالوسط من أوله إلى آخره لا يعاش فيه لذلك صممت على تطليق المحاماة » .

وهكذا يتنقل لطفى السيد من مغامرة إلى مغامرة ، أو من مشروع إلى مشروع ، بسهولة وبلا تردد ودون أن يبدأ من المغامرة حتى ولا بمقدمات تؤدى

إليها ، فهو يفكر فى تأليف حزب سرى ، ولكنه ينفض يده منه ، لأنه تلقى الدعوة للانضمام إلى حزب سرى آخرى ، ويترك الحزبين لأنه رأى أن طريق الحرية للبلاد ، هو فى نشر التعليم ، ولكنه لا ينشر التعليم ولا يعمل على نشره بل يذهب إلى مكتبه فى النيابة العمومية باسكندرية ، وحين يستقيل من النيابة العمومية يفكر فى أن يكون تولستوى مصر ، ولكن صديقه يعرض عليه أن يشتغل بالمحاماة فيدع تولستوى وينساه ويشتغل محاميا ، ولكنه يسأم هذه المهنة لأن زملاءه لا يلتزمون قواعد الأدب فى قاعة المحامين ، ولأن فى بعض القضاة غلظة ، ولأن فى أصحاب القضايا واحدا كم عبده عزام يلح فى استرداد الأتعاب التى دفعها . وينتهى المطاف بالأستاذ لطفى السيد إلى العمل الذى يمكن أن يكون أكثر اتفاقا مع ميوله ، وهو أن يرأس تحرير صحيفة يومية ، يصدرها عدد من باشوات و كبار أعيان البلاد على رأسهم محمود باشا سليمان .

وقد روى عباس العقاد فى كتاب (رجال عرفتهم) رأيا فى لطفى السيد قد يحسن إيراده هنا ، وإن كنا ، سنرجىء رسم صورته الفكرية والعقلية إلى موضع آخر من الكلام . قال العقاد :

« لا أدرى ممن سمعت ، أمن سعد زغلول أم من محمد محمود أن لطفى السيد قوى الفكر ولكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين ، فيقف به هذا التعارض دون العمل المستطاع ، او يقف به دون الحماسة لرأى من الرأيين ، ولا بد من الحماسة لرأى من الرأيين ، ولا بد من الحماسة ذات النظر الواحد لمن يريد أن يمعن إمعان الجد والعناد فى طريق مقصود

إلى غرض محدود ، ولم يكن لطفى السيد قط ذا نظر واحد يحجب عن تفكيره سائر الأنظار .

« ويلوح لى أن السماحة الخلقية تشارك هذه السماحة الفكرية فى مسلكه الديمقراطى بين الناس وبين المعتقدات .

« فلم يكن من طبعه أن يصادم أحداً ، أو يصطنع فى الخصومة قسوة ولدداً .. ولكنه كان يثبت فى مكانه ويترك لمن يخالفه أن يصطدم به إذا شاء، ولا سماحة فيما وراء ذلك إذا سامته السماحة أن يتحول عن مكانه الذى استقر عليه ، فهو عند رأيه لاينحرف عنه وإن أعطاه من الصور الفكرية مايدفع عنه شر الضغينة والافتراء » .

* * *

ورياسة تحرير «الجريدة»، هى أعظم أعمال لطفى السيد ، ولعلها هى التى أحلته فى المكان الذى احتله فى تاريخ بلاده سواء فى الجانب الفكرى من هذا التاريخ أو فى الجانب السياسى .

ويقول فى سيرة حياته ، أن ما دعاه إلى التفكير فى إنشاء هذه الصحيفة ، هو ما رآه من تحمس الرأى العام فى مصر ، لتركيا ضد انجلترا فى موضوع ميناء العقبة ، فقد ثار بشأن ملكية هذا الميناء نزاع بين بريطانيا وتركيا . وكانت بريطانيا ترى أن مصر أحق بهذا الميناء ، وكانت تركيا تنازع فى ذلك وكان الطبيعى عند لطفى السيد أن يقف المصريون مع بريطانيا ضد تركيا ، لأن بريطانيا تحتفظ لبلادهم بميناء مهم ، وقطعة أرض ذات خطر . وغاظه أن الاعتبار الوطنى يضحى به فى سبيل مكايدة بريطانيا ، وإظهار الحماسة والولاء لتركيا . وأحس بأنه لا علاج لهذه الحماسة غير العاقلة ، إلا أن يصدر جريدة

كما اختير لطفى السيد سكرتيراً له. وجميع هؤلاء من كبار أعيان الريف أصحاب الضياع الواسعة ، والثلاثة الأوائل من الصعيد .

وفى سنة ١٩١٠ رشح لطفى السيد نفسه لمجلس مديرية الدقهلية توطئة لترشيح نفسه لمجلس شورى القوانين ولكنه سقط ثم رشح نفسه لنفس المجلس فى سنة ١٩١١ ونجح . ولكن جاد بك مصطفى طعن فى انتخاب لطفى السيد، ولكن جاد بك هذا ، عرض النزول عن طعنه،إذا زاره لطفى السيد هو ووالده، ومعهما شكرى باشا المدير فى قريته (صدفه) وتناولوا عنده الغداء ، وقبل لطفى السيد هذا العرض وتمت الزيارة ، ونزل جاد بك عن طعنه ، ونجح لطفى السيد . وفى هذه الآونة كان الدكتور محمد حسين هيكل قد عاد من فرنسا بعد حصوله على درجة الدكتوره ، فطافا سويا على بعض القرى ليقدم عنها تقريرا إلى مجلس المديرية، وفى إحدى القرى وجدا الكتاب خاليا من صبيانه التلاميذ فقال لطفى السيد لشيخ الكتاب: لعلك صرفت الأولاد لتنقية الدودة» فأجاب : ليس فى بلدنا دودة لأنى أذنت الآذان الشرعى فى الجهات الأربع للقرية ، فامتنعت الدودة بإذن الله تعالى « قال هذا ، بينما كانت الدودة تكاد ترى من بعيد فى كل حقل من حولهم »

وفى سنة ١٩٠٩ أرادت الحكومة بعث قانون المطبوعات الذى كان معمولا به خلال الثورة العرابية سنة ١٨٨١ وأن مجلس شورى القوانين» والجمعية العمومية — وكان المجلسان النيابيين فى مصر إذ ذاك — وهما مجلسان شوريان لا يملكان شيئا ذا قيمة من اختصاصات المجالس النيابية قد وافقا على هذا القانون ، فأراد لطفى السيد أن يقابل السيد إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية ويحدثه فى سوء مغبة إصدار هذا القانون ، فأعطاه محمد محمود باشا خطابا إلى استاذه المستر سميث عميد كلية باليول باكسفورد ليقدمه

إلى وزير الخارجية الذى كان من تلاميذه ، وسافر لطفى السيد فعلا ، ولكن لم تتيسر له مقابلة وزير الخارجية ، رغم وساطة أستاذه المستر سميث ، إذ أحاله الوزير إلى وكيله .

وروى لطفى السيد قصة مد امتياز قناة السويس أربعين سنة تنتهى فى ٢٠٠٨ بدلا من سنة ١٩٦٨ مقابل أربعة ملايين جنيه تدفعها الشركة للحكومة المصرية ، ويقول أنه لما بلغه أن النية اتجهت إلى ذلك ذهب إلى حسين رشدى وسعد زغلول ، فأحالاه إلى بطرس غالى ، الذى حدد له موعدا وقابله فى بيته بالفجالة فلما عرض عليه لطفى السيد ، أن تطرح الحكومة هذا المشروع على الجمعية العمومية رد عليه بطرس غالى بقوله : « يالطفى ما تنزل من السحاب ، لنكون معاً على الأرض » وأبى أن يقتنع برأى لطفى السيد ، الذى واصل حملته على هذا المشروع ، وهى الحملة التى بدأها محمد فريد ، والتى تابعته فيها الجرائد الأخرى، وسارت فى أثره. ويقول لطفى السيد أنه بعد أن شارت الحملة ضد المشروع شوطا، استدعاه بطرس غالى ، فذهب إليه فى وزارة الخارجية ، حيث أفضى إليه بحديث صحفى صرح فيه بأن الحكومة ستعرض المشروع على الجمعية العمومية لتقضى فيه بما تشاء .

وبعد ذلك فى سنة ١٩١٠ كان لطفى السيد عند على شعراوى باشا فدخل بطرس غالى فسأله على شعراوى من أين جئت يا بطرس باشا فقال كنت أتنزه ماشيا فى الجزيرة فلامه على شعراوى على أنه كان يسير بلا حرس فقال بطرس : قد يكون معك الحق ، لأنى تلقيت منذ أيام كتب يهددونى فيها كاتبوها بالقتل .

فقال لطفى السيد : يا باشا أظن أن الذى يريد أن يقتل لا يهدد » وبعد ذلك بأيام قتل بطرس غالى .

وحدث بعد ذلك أن انسحب بعض أعضاء الشركة المالكة لصحيفة الجريدة ، ثم رفعوا دعوى بحل الشركة وكان لطفى السيد يعتقد أن الذى أوعز لهؤلاء الأعضاء بالانسحاب من الشركة هو الخديو عباس ، وأن مصاريف هذه الدعوى دفعت من مال الخاصة الخديوية ، وأن الأعضاء الذين انسحبوا من الشركة أنعم عليهم بالرتب والنياشين . ثم دعا الأمير حسين كامل الذى عين فيما بعد سلطاناً لمصر إلى قصره كلا من محمود سليمان وعلى شعراوى ولطفى السيد ، فلما استقروا فى المجلس قال لهم الأمير ، أنا لا أفهم أن ترفعوا دعوى ضد الخديو ، فقال له لطفى السيد ولكن الذى رفع الدعوى هو الخديو ، وسرد له شواهده على هذا الاستدلال ، وفيما هم يتحدثون دخل عليهم بطرس غالى ، فاتفقوا جميعاً على تأجيل الدعوى ، ولا تزال مؤجلة إلى اليوم .

* * *

فى سنة ١٩١٢ قامت الحرب الإيطالية الطرابلسية التى شنتها إيطاليا ضد طرابلس (ليبيا) للاستيلاء عليها ، فقد كان يعذب الطليان شعورهم بأنهم دون دول الغرب الكبرى ، لا مستعمرات لدولتهم . وقد انتهزوا فرصة الضعف الذى أنتاب حكومة تركيا ، وكان يزداد يوما بعد يوم ، فدبروا حملة استعمارية ضد طرابلس ، وكان الاشتراكيون فى إيطاليا أقوياء ، فقاوموا هذه الحملة مقاومة عنيفة ، حتى خيل لبعض الناس أن الثورة على الأبواب ، وأنها ستقتلع النظام الملكى كله ، وكان من الطبيعى أن يكون شعور المصريين مع طرابلس وتركيا ضد إيطاليا ، إن لم يكن لأن ليبيا بلد عربى ، ولأن تركيا بلد مسلم ، فلأن مصر وليبيا جارتان ، ولكن كان لطفى السيد يشكو من مركب كراهية للاتراك ، يتحرك عنده ، فى كل مناسبة ، وأحيانا بغير مناسبة ، وكان هذا المركب يلقى به فى أحضان الاحتلال البريطانى فى الوقت الذى يزعم فيه أنه حساس لكل ما يصيب استقلال مصر ، ولو من

بعيد . ولذلك فقد انتهز فرصة قيام هذه الحرب الاستعمارية القبيحة ، وأن إيطاليا صادرت سفينة مملوكة لتاجر دمياطى كانت ترفع العلم المصرى الذى كان علم تركيا فى الوقت نفسه ، ففكر فى أن يقنع صديقه رشدى باشا وكان رئيس الوزراء فى أن تعلن مصر الاستقلال عن تركيا ، وأن تتخذ لها علما خاصا بها . وانظر ماذا قال عن هذا المسعى ، جاء فى قصة حياته :

« ... رجعت مرة أخرى إلى رشـــدى باشا أطلب إليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية وأن تنصب الخديو ملكا عليها ويعترف لها الإنجليز بهذا الاستقلال، ورجوته باسم حزب الأمة أن يعرض ذلك على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر » وكل من له أدنى فهم للسياسة ، وأبسط مشاعر الوطنية ، يرى نفسه مضطرا أن يتساءل أى استقلال هذا الذى يتم بموافقة المحتلين، ومساعدتهم ، وهل هو يستأهل هذا الإسم ، ويستحق من عاقل أى مسعى . ثم كيف يتأفف إنسان من تبعية لا أثر لها ، ويهلل ويرحب ، باحتلال وتبعية جاثمين على صدره ، وآخذين بخناقه . وقد أضاف لطفى السيد فى هذا الموضع من تاريخ حياته فقال : « وطلبت لرشدى باشا ألا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزراء فى ذلك الحين » فلطفى السيد لم ير بأسا من أن يتصل بكتشنر ويعتمد عليه فى مسعاه ، ويخفى هذا عن محمد سعيد المصرى — ورئيس وزراء بلاده .

ويقول بعد ذلك « واجتمعنا فى بيت سعد زغلول نحن الثلاثة لندبر الخطة وأخذت أنا انشىء حملة فى هذا المعنى تحت عنوان ، سياسة المنافع ، لا سياسة العواطف » . وبعد ذلك قام الأمير عمر طوسن وبعض الكبراء والأعيان بجمع تبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وكانت الصحف المصرية ، عدا الجريدة — تشجع هذه الحركة ، وتنشر أخبارا عن هذه التبرعات .

وفى سنة ١٩١٢ دعى لطفى السيد إلى تأليف نقابة للصحافة المصرية فاستجاب الصحفيون على اختلاف ألوانهم - كما يقول هو - إلى هذه الدعوة ، واجتمعت الجمعية العمومية ، فانتخبت صحفياً أجنبياً مقيما فى الإسكندرية هو المسيو كانيفيه صاحب جريدة الريفورم نقيباً وانتخبت فارس نمر ولطفى السيد وكيلين .

ويتحدث لطفى السيد بفخر عن هذه النقابة ، التى جعلت للأجانب فيها نصيب الأسد إذ أن سكرتيرها فضلا عن نقيبها كانا أجنبيين ، أما فارس نمر أحد الوكيلين ، وصاحب المقطم فهو مشهور بميوله وأهوائه ، ومع ذلك فإن لطفى السيد كان يزعم أنه كان يقاوم فكرة كرومر فى خلق الجنسية المصرية التى تضم الأجانب فى مصر ، كما تضم الوطنيين الأصلاء ، مع أنه يظهر الفرح بنقابة تجعل للصحفيين الأجانب هذا النصيب الضخم ، ونقابة الصحافة ، هى ما نعلم من الأهمية فى التعبير عن المصريين .

وفى سنة ١٩١٣ حلت الحكومة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، وأحلت محلها الجمعية التشريعية ، فرشح لطفى السيد نفسه لها فسقط فى الانتخابات فأرسل إليه سعد زغلول برقية يعزيه فيها بقوله (لئن سقطت فى الانتخاب ، فلك عطف العقلاء) .

نفى هنا لطفى السيد القول الرائج من أن خصمه فى الانتخابات كان يدعو ضده فى المعركة الانتخابية بلصق تهمة الديموقراطية به ، وقد كنا نقرأ ما يكتبه بعض الصحفيين الذين تطيب لهم توبلة الكلام بما يضحك ويسلى ، أن الناخبين كانوا يسيرون فى أعقاب لطفى السيد وهم يصرخون : الديموقراطى أهه . ! الديموقراطى أهه !

وفى سنة ١٩١٤ أخبر لطفى السيد كلا من سعد زغلول ومحمد سعيد ، أن الخديو يريد أن يراه فأجابهم بأن الخديو إذا دعاه إلى ذلك ، فإنه سيلبى

دعوته . وفى أحد التشريفات قال الخديو لوالد لطفى السيد : أحب أن أراك ومعك لطفى بسراى القبة يوم السبت ، وسر والد لطفى بهذه الدعوة ولبياها معاً . وفى يوم التشريفات أحسن الخديو استقباله ، وقال أنه مسرور لحضوره ، وعند انصرافه قال له الخديو : قد عرفت الطريق فتعال عندى كل يوم سبت» فقال له لطفى - على حد ما جاء فى مذكراته - يا مولاى ما شأن الكاتب والاتصال بالسلطات » فقال له الخديو : إذن أنت لا تريد أن تأتى عندى ، فأجابه لطفى السيد : الواجب على يا مولاى أن أجىء كلما دعيت » فدعا الخديو حافظ عوض الذى كان يعمل وقتئذ سكرتيرا خاصا للخديو وطلب منه أن يدعو لطفى السيد كل يوم جمعة ليحضر كل يوم سبت .

والحق أن هذه القصة من بدايتها إلى نهايتها تشرف الخديو ، فإن حرصه على الاتصال بكبار الكتاب فى البلد ، ولو كانوا من غير رأيه ، أمر يستحق الحاكم من أجله التهنئة .

وأعلنت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، واتصل يوما لطفى السيد برشدى باشا رئيس الوزراء تليفونيا بعد إعلان الحرب ، وكان رئيس الوزراء فى الإسكندرية ، ولطفى السيد فى القاهرة ، فدعاه رشدى باشا للحضور إلى الإسكندرية ، فلبى الدعوة ، ولما قابل رئيس الوزراء سأله : أتدخل الحرب مجانا يا باشا . فأجابه رشدى باشا بأن الحكومة احتاطت لأنها أوردت فى بلاغها الرسمى بمناسبة إعلان الحرب : نظرا للاحتلال (الفعلى) . ويعنى أن الحكومة لم تسلم بشرعية الاحتلال ، إنما اعتبرته أمراً واقعاً لا إجراء تسلم به الحكومة .

فرد على ذلك لطفى السيد بقوله :

– أخشى أن يقول الناس أن هذه سذاجة سياسية ، فإذا كانت انجلترا تريد أن تجرنا معها إلى هذه الحرب فلتعترف لنا أولا بالاستقلال .

فأجاب رشدى :

– لم يفت وقت ذلك .

واعتزم رشدى أن يكلم ممثل الحكومة البريطانية فى هذه الفكرة ، ولكن كان أكثر موظفى هذه الوكالة فى الخارج ، وكان أول من عاد منهم السير ريجنالد ونجت ، فعرض عليه رشدى أن يعلن استقلال مصر ، وأن ينصب الخديو ملكا عليها ، فيعترف الإنجليز بالاستقلال وبالخديو ، فارتاع ونجت لهذه الفكرة ، وإن كان قد وعد بعرضها على رؤسائه فى لندن .

وسعى لطفى السيد لمقابلة السير جراهام مستشار وزارة الداخلية ، وكرر عليه العرض نفسه ، فحاول المستشار التملص من الرد على هذه الفكرة بحجة أن تركيا لن تدخل الحرب ، فلما ضيق عليه لطفى الخناق بقوله : إذا لم يكن دخول تركيا الحرب ضد بريطانيا ، أمر محقق فهو مجرد احتمال . اضطر السير جراهام ، أن يكشف عن حقيقة رأيه فقال : يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون أنفسكم ، فحين ظهور أول طربوش تركى من القنال تتركوننا وتجرون » .

وانقطعت المساعى عند هذا الحد ، مع السير جراهام ، بيد أن رشدى حاول أن يكسب إلى صف فكرة استقلال مصر ، وانضمام مصر المستقلة كدولة إلى معسكر بريطانيا وحلفائها ، السير رونالد ستورس ، السكرتير الشرق للوكالة البريطانية ، وقد كان ستورس فعلا – على رواية لطفى السيد – مؤيداً

لهذه الفكرة وقد وعد أن يكتب إلى والده الذى كان عضوا فى مجلس العموم البريطانى ، ليثيرها عند المسئولين البريطانيين .

تردد لطفى السيد على صديقه عدلى يكن - وكان عضوا فى الوزارة المصرية فى تلك الفترة - وسأله ماذا تم فى هذه المساعى فقال له عدلى « ايس عندى أمل فى نجاحها » .

ولما ثبت له أنه لا أمل فى تحقيق هذا المسعى ، قرر أن يكسر قلمه ، ويعتزل السياسة ، فلما علم « ستورس » بقرار لطفى السيد هذا ، اتصل به وقال له : لا تيأس .

ثم تناول بعد ذلك لطفى السيد الغداء فى منزل نجيب باشا غالى الذى كان وكيلا لوزارة الخارجية المصرية ومعهما عدلى يكن وستورس ، ولكن بعد أن توهج الأمل قليلا ، عاد فانطفأ ، فنفض لطفى السيد يده من العمل الصحفى، واستقال من رياسة تحرير « الجريدة » وعاد إلى بلده (برقين » ، على أنه لم تمض أيام كثيرة حتى أعلنت الحماية على مصر ، ونصب الأمير حسين كامل ، سلطاناً على مصر ، بعد عزل الخديو عباس ، لإنضمامه إلى تركيا التى أعلنت الحرب على بريطانيا وحلفائها ، فى صف ألمانيا وحلفائها .

وشاع فى تلك الأيام أن تركيا حكمت بالإعدام على لطفى السيد ، لأنه أثار فكرة استقلال مصر عنها ، وعرض الوقوف فى صف الحلفاء ، ضدها . وجاء السيد باشا أبو على - والد لطفى السيد - يوما إلى بيت ابنه مذعوراً ، لأنه سمع أن الإنجليز قبضوا على لطفى كما قبضوا على سعد زغلول ، واطمأن حينما علم أن الإشاعة لا نصيب لها من الصحة . وبعد ذلك بقليل جاء إلى لطفى السيد - على شعراوى باشا وقال له أن ستورس يسأل : وأضاف على شعراوى

أن السلطان حسين يرغب فى أن يتولى لطفى السيد إحدى الوظائف الحكومية. فقبل لطفى السيد - تحت إلحاح أبيه الذى كان يخشى عليه من الاعتقال - أن يعين رئيساً لنيابة بنى يوسف، ثم مديراً لدار الكتب فى المحل الذى خلا باستقالة الدكتور (شاده) الألمانى الذى غادر البلاد فى أثر إعلان الحرب.

وفى سنة ١٩١٦ فكر لفيف من أصدقاء لطفى السيد فى إنشاء مجمع للغة العربية، وكان من هذا اللفيف رشدى وعدلى ويعقوب صروف وعاطف بركات، وإسماعيل عاصم المحامى الذى نبتت الفكرة عنده أصلا، وقد وضعوا لهذا المجمع قانونا برياسة الشيخ أبى الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر، وأسندت الأمانة العامة للمجمع للطفى السيد، وضموا إلى أعضائه الشيخ محمد بخيت، والشيخ عبد الرحمن قراعة وحفنى ناصف وحلمى عيسى والشيخ الإسكندرى.

* * *

ويفتتح لطفى السيد فصلا فى مذكراته لأحداث سنة ١٩١٩، وما بعدها عنوانه « لماذا طلبنا الاستقلال » وبعد كلام طويل عن الحرية ونفاستها، وعن أن الحرية العلمية، هى سبيل الحرية السياسية، فقد قال: فإذا أحس (الأعداء) من حريتنا فى الآراء العلمية الإرادية قوة لا يقف أمامها استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء، ولا استدرار المنافع الخسيسة، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا إلى المثل الأعلى لحريتنا. ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها غير كافية فى تقريبنا من مثلها الأعلى. أقول وأؤكد أنها وحدها كافية فى انالتنا طلبتنا. فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها ولننتظر النتيجة ».

ويبدأ لطفى السيد فى سرد ماجرى فى سنة ١٩١٨ بقوله أنه نهض وأصدقاؤه

الأربعة سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعرواى ، ومحمد محمود لتحقيق هدف الاستقلال فى ظل مبادىء ولسن الأربعة عشر . وفى دار الكتب بدأوا يؤلفون الوفد المصرى . ثم نفى سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقى وحمد الباسل إلى مالطة فشمل البلاد سخط عظيم ، وقامت حركة ضخمة ، قطعت فيها خطوط السكك الحديدية ، وأعلنت الجمهوريات فى أنحاء من القطر المصرى ، كالمنيا وميت غمر . واستدعى القائد العام لطفى السيد ومعه باقى أعضاء الوفد الذين لم يعتقلوا وحملهم مسئولية هـذه الثورة فكان رد لطفى السيد :

« إن الوفد برىء منها ، وإن تبعتها تقع على السلطة العسكرية التى نفت أربعة من رجال الوفد المصرى بلا ذنب أتوه إلا أن يطالبوا بحرية بلادهم . ثم قابلت المظاهرات بالترليوز ، فغضب أهالى البلاد لقتل أبنائهم فقاموا بهذه الحركة . وإنى أنصح للسلطة العسكرية أن تستدعى حسين رشدى باشا أو عدلى يكن باشا أو ثروت باشا ليؤلف وزارة تعمل على ترضية الأمة ترضية كافية . وبهذا يقضى على الثورة » .

وبعد انصراف لطفى السيد وزملائه من مكتب القائد البريطانى بأيام قليلة ، جاءهم الدكتور يوسف نحاس ، وأفضى إليهم بأنه علم عن ثقة بأن السلطة العسكرية ، ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين وتقبض على أربعة منهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى ، وتصادر أملاكهم » وما كاد لطفى السيد يسمع هذا الخبر ، حتى قام هو وعبد العزيز فهمى فى سيارة على شعراوى ، وأوصل الأول إلى بيته ، ثم ذهب هو إلى داره فى المطرية حيث جمع كل أوراقه ذات الصلة بالعمل السياسى ، وأحرقها ويقول بأن آراء أصدقاء عـدلى ورشدى وثروت لا تخلو منها ورقة من الأوراق المحروقة ، وأنه حرقها خوفاً على أصدقائه هؤلاء . وبعد أن أتم عملية

الحرق ، لبث ينتظر رجال السلطة ليقبضوا عليه ، فطلع الصبح ، وهو ينتظر ، ولكن أحداً لم يطرق بابه .

وغيرت الحكومة البريطانية مندوبها ، فأوفدت اللورد اللنبي ، الذي أعلن أنه يقبل من أي كان ما يراه في أمر وقف الثورة القائمة وعودة السكينة والسلام إلى البلاد ، فأرسل إليه الوفد تقريراً شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها إلى تصرف السلطة العسكرية العنيفة ونصح بتنصيب رشدي أو عدلي أو ثروت رئيساً للحكومة مع الإفراج عن المنفيين الأربعة . وأجاب اللورد اللنبي هذا الاقتراح ، فعين رشدي رئيساً للوزراء ، وأفرج عن المنفيين بعد شهر واحد من اعتقالهم ، وصرح للوفد بالسفر ، فسافر لطفي السيد مع عبد العزيز فهمي وغيرهما إلى فرنسا في باخرة مرت بمالطة حيث اصطحبت المنفيين الأربعة إلى مرسيليا ثم إلى باريس ، وهناك علموا أن ولسون رئيس الولايات المتحدة ، والذي بشر بالمبادىء الأربعة عشر ، قد اعترف بالحماية البريطانية على مصر فأسقط في يد الوفد الذي لم يكن قد حقق شيئا بعد طول الإقامة في باريس . فأبواب مؤتمر الصلح الذي كان منعقداً في فرساي ، أقفلت في وجهه ، ورأى البعض أن الإقامة هناك لا تجدي ، وأن السعي الدولي لا يثمر ، وعاد الوفد ، إلى مصر ، وبدأ التناحر بين عدلي وسعد على رياسة المفاوضات . وكان من بين العائدين إلى مصر ، لطفي السيد ، الذي عرض عليه أن يعود ثانية إلى دار الكتب ، فأسرع إلى برجه المادىء ، وترك البلاد تتلظى على نار الخلاف والفرقة ، وانشغل في ترجمة أرسطو ، ثم وضع منهاجا للجامعة المصرية باعتبارها كلية آداب ، وقابل الملك فؤاد ، لتعترف الحكومة بشهادة الجامعة الأهلية ، فأفهمه الملك أن الحكومة تفكر في إنشاء جامعة حكومية ، تكون كلية الآداب التي يقترحها لطفي السيد ، إحدى كلياتها . فاغتبط بذلك ، ودعا مجلس إدارة الجامعة الأهلية في ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، ثم تعاقد المجلس برياسة حسين رشدي وكان

رئيس مجلس إدارة الجامعة — مع الحكومة ممثلة فى شخص وزير المعارف وكان زكى أبو السعود باشا ، وقد حرص لطفى السيد أن يضمن شروط العقد نصاً يقضى بتعيين الدكتور طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة .

وفى ٧ من فبراير سنة ١٩٢٨ وضع الحجر الأساسى لمبانى الجامعة الجديدة ، وهكذا تحقق الأمل فى إنشاء جامعة مصرية ، وهو أمل تاق المصريون إليه ، وتحدثوا عنه منذ سنة ١٩٠٦ ، وساهم فى العمل له مصطفى كامل ومحمد فريد .

وعين لطفى السيد أول مدير للجامعة ، وبقى فى هذا المنصب حتى أسند الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا تأليف الوزارة ، فعرض على صديقه لطفى السيد أن يكون أحد وزرائه ، فاعتذر مؤثرا البقاء فى منصب مدير الجامعة ، بيد أنه ما لبث أن غير رأيه لأن محمد محمود قال له :

- هل يرضيك ياصديقى أن تتركنى وحدى .

وقد كانت هذه العبارة ، كافية لتؤثر على لطفى السيد ، فتولى منصب وزير المعارف ، وبقيت وزارة محمد محمود خمسة عشر شهرا ، إذ تألفت فى ٢٥ من يونيه سنة ١٩٢٨ ، واستقالت فى الثانى من أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضات أجراها مع هندرسن وزير خارجية بريطانيا فى حكومة العمال . وقد تولى الحكم ، فى أثر استقالة محمد محمود ، مصطفى النحاس ، واستأنف المفاوضة مع هندرسن فى شأن المشروع الذى كانت حكومة العمال قد وضعت وعرضته على محمد محمود ، وحكومته من قبل ، فقرر الوفديون ألا يبدوا رأيهم فى هذا المشروع إلا تحت قبة البرلمان ، فأجريت انتخابات نجح فيها الوفديون ، وألف رئيسهم الوزارة ، وذهب إلى لندن وفاوض وفشلت المفاوضة ،

وعاد يعلن قولته الكريهة : خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز » . وأقصى الوفديون من الحكم وتولى إسماعيل صدقى الوزارة ، وألغى دستور سنة ١٩٢٣ الذى كانت وزارة محمد محمود قد عطلته واستبدلت به دستورا آخر وعرض وقتذاك على لطفى السيد أن يعود مديرا للجامعة كما كان ، فقبل العرض ، وبقى فى منصبه حتى نقل حلمى عيسى وزير المعارف طه حسين من كلية الآداب إلى منصب فى وزارة المعارف ، وفى ٩ من مارس سنة ١٩٣٢ كتب خطاب استقالته ، ختمه بقوله :

« ومن حيث أنى لا أستطيع أن أقر الوزارة على هذا التصرف الذى أخشى أن يكون سنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية وأغيارها ، أتشرف بأن أقدم بهذا إلى معاليكم استقالتى من وظيفتى » .

ولبث لطفى السيد بعيدا عن الجامعة والوزارة والعمل العام حتى ابريل سنة ١٩٣٥ ، ففى هذا الشهر ، عرض عليه نجيب الهلالى وزير المعارف فى وزارة يرأسها محمد توفيق نسيم باشا العودة إلى منصب مدير الجامعة فاشترط لطفى السيد لقبول هذا العرض أن يعدل قانون الجامعة لينص فيه على أنه لا يجوز نقل أستاذ بها إلا بموافقة مجلس الجامعة ، وقد بر نجيب الهلالى بوعده ، وعدل القانون على هذه الصورة ثم ضمت إلى الجامعة كليات الهندسة ، والتجارة ، والزراعة ، والطب البيطرى ، وبقى لطفى السيد مديرا للجامعة حتى سنة ١٩٣٧ حينما اجتاحت كليات الجامعة ، اضطرابات سببها الصراع بين الوفد وبين الأحزاب المعارضة له ، وكانت هذه الأحزاب قد نجحت فى استمالة عدد غير قليل من طلاب الجامعة لينافسوا سياسة الوفد التى كانت قد اتسمت بالحزبية الصارخة . ويقول لطفى السيد أنه طلب من وزارة الداخلية أن تنشىء شرطة خاصة بالجامعة حتى لا تدخل الشرطة العامة إلى حرم الجامعة ، فتعتدى على استقلالها ، ولما لم تجبه

الحكومة إلى طلبه استقال ، ثم ألف محمد محمود وزارته الثانية فى الحادى والثلاثين من ديسمبر ١٠٣٧ ، فاشترك فيها لطفى السيد وزير دولة ، بقى فيها بضعة أشهر ، ثم تركها ليعود إلى الجامعة من جديد حتى سنة ١٩٤١ ، فقد عين فى هذه السنة عضوا بمجلس الشيوخ ، ثم رئيساً لمجمع اللغة العربية ، حتى توفاه الله سنة ١٩٦٣ ، بعد أن أكمل التسمين من عمره .

* * *

وصف أربعة من كبار حملة الأقلام لطفى السيد ، هم صديقه الصدوق : عبد العزيز فهمى ، وعباس العقاد ، ومحمد حسين هيكل وعبد العزيز البشرى فقال عبد العزيز فهمى عنه :

« وأذكر هنا أن صديقى أحمد لطفى السيد الذى كان رئيساً للنيابة استعفى فى أوائل سنة ١٩٠٦ فوضعت مكتبى تحت تصرفه ، فزاملنى فيه بعض الزمن . وكان معنا صديقنا المرحوم أحمد مصطفى بك الذى كان وكيلا لمديرية المنيا وخرج منها واشتغل أيضا بالمحاماة .

« وينبغى أن أذكر أمراً خاصا بصديقى لطفى السيد ، وبمبلغ ماخبرته فيه من الذكاء ومتانة الخلق ، وما استفدته من وجود ا معاً فى عمل واحد منذ كنا فى عهد الشباب . ففى عامى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ ونحن بنيابة بنى سويف ، كنا بعد إتمام عملنا الرسمى نقضى وقت الفراغ فى المطارحة بالشعر فكان لطفى السيد ينشد عن ظهر قلب كثيرا من الأشعار القديمة ، وعلى الأخص من شعار مهيار الديلمى ، ومما هو باق فى ذاكرتى من إنشاده قول مهيار .

بعد أحبابى كسانى الأرقا ... مات صبرى فلم طول البقا
كنت بالشعب وكانوا جيرتى ... فافترقنا والهوى ما افترقا

واجتمعنا يوم عيد فى منى فتشاكينا الجوى والحرقا
لى حبيب كلما عانقتــــه نــثر الورد علينا الورقا
اشعلت فى القلب منه جمـــرة وهى لا تطفأ إلا باللقـــا
أتمنى قربه يبعــــــدنى هكذا الدنيا نعيم وشقا

مثل هذه الأبيات وغيرها كان يرويها صديقى لطفى أثناء المطارحة ونحن شباب والحياة خضراء غضة .

ولاشك عندى أن صداقتى لهذا الأخ الذكى الأديب الواسع الإطلاع مما شجعنى على الدراسات القديمة من علمية وأدبية .. فله على هذه اليد الطيبة ،أبقاه الله ونفع به .

على أن هذه اليد ليست وحدها له عندى . بل أنه افادنى بغيرها ، فقد أذكر أنه — وهو رجل عربى قح — كان فى شبابه يألف الرياضة البدنية ، وأخصها ركوب الخيل ، وكانت وسائل ذلك ميسورة ، لأن أباه كان عصامياً ميسور الحال لا يضن عليه بشىء من النفقات ، وفى بنى سويف شاهد ضعفاً فى صحتى ، وعنده أن الرياضة من خير العلاج لهذا الضعف ، فذهب بنفسه يوماإلى القاهرة واشترى بندقيتين إحداهما لى والأخرى له ، وأخذ فى أوقات الفراغ يجرنى معه إلى المزارع لصيد الطيور .. وقد كان من عادته عند خروجه لتحقيق الوقائع الجنائية ، ألا يركب حصانا من خيل البوليس كما جرت عادة وكلاء النيابة ، بل أن أباه بعث له بحصان خاص وخادم غزاوى خاص ، فكان يركب حصانه فى الرياضة وعند قيامه لتحقيق الوقائع .

« وكان والده يحبه حباً جماً ويؤثره على سائر أبنائه ، ولـكن متانة خلقه كانت تأبى هذا الإيثار وأذكر فى ذلك أنه لما اجتمعنا معاً فى مكتب واحد

للمحاماة سنة ١٩٠٦ جاء والده ذات يوم وأخبرنى أنه شارع فى شراء عزبة مقدارها أربعمائة وخمسون فدانا، وأنه يريد كتابة عقد المشترى باسم لطفى .. فعند ذلك غضب لطفى وقال لأبيه :

— كلا .. لا أقبل مطلقا أن تميزنى على أخوى سالم وسعيد، فإن أردت أن يكون العقد لى ولهما فذاك، وإلا فلا .

فأكبر والده واكبرت هذا الخلق، وتلك العاطفة النبيلة .. ولم يسع والده إلا إجابة طلبه » .

وكتب الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه مذكرات سياسية عن لطفى السيد :

« لم تقف صلتى بلطفى (السيد) عند الكتابة فى (صحيفة) الجريدة، بل كنت أتردد فى سراى البارودى فأجد منه خير أستاذ يشرح، فى حديث عذب ومنطق دقيق، مبادىء الحرية على ما فهمها أهل القرن التاسع عشر فى أوروبا. وكنت أشعر من جانبه عطفا على، لعل مرجعه إلى ما كان بينه وبين والدى من صداقة، جعلت والدى يقف فى صفه منذ اللحظة التى أظهر فيها الجريدة . ولذلك كان يقدمنى لأصدقائه قائلا : « محمد، ابن أخى » . وأشهد لقد أفدت من أحاديثه الكثيرة معى، ومن متابعة منطقه الدقيق؛ فائدة لم أنسها قط، ولن أنساها ابدا وكان من أثر هذه الأحاديث أننى عدلت عما كنت ماضيا فيه من الاكتفاء بقراءة الأدب العربى، إلى قراءة كتب إنجليزية فى الموضوعات التى كان يحدثنى فيها كنت منصرفا إلى قراءة آمالى القالى، وأغانى الأصفهانى، وأمثال الميدانى، والبيان والتبين للجاحظ، وقراءة المؤلفات العصرية الحديثة جميعاً، فانتقلت من ذلك إلى قراءة الحرية لجون ستيورات ميـــل، والعدل لهربرت سبنسر، والأبطال لكارليل، والثورة الفرنسية لكارليل

كذلك . هذا إلى كتب فى الأدب الإنجليزى أفسحت أمامى آفاقا لم يكن لى من قبل بها عهد .

« على أن إكبارى لأستاذى لطفى بك لم تحل بينى وبين الوقوف من أحد تصرفاته موقف العجب ، لأننى لم أكن أتوقع يومئذ منه مثله ، وهو الذى لا يفتأ يدعونى إلى المثل الأعلى وإلى الصراحة فى الحق . كان ذلك حين توفى مصطفى كامل .

« لقد حزنت مصر كلها لفقده أعمق الحزن ، خصوصا بعد الذى كان من نجاحه فى استصدار العفو عن المحكوم عليهم فى قضية دنشواى . وزاد فى حزنها أنه كان شابا لم يتخط الرابعة والثلاثين من عمره فكان رجاؤها فى خدمة إياها ممتدا عظيما ، وكان لها فيه أمل طويل عريض . لكن ما كان بينه وبين لطفى من خصومة سياسية جعلنى أعتقد أن لطفى لن يزيد على أداء الواجب الإنسانى فى رثائه وفى مجاملة أسرته ، ومجاملة مصر فى فقده . ومع اعتقادى هذا حرصت على أن أقف منه على حقيقة رأيه فى هذه الفاجعة القومية ، فذهبت غداة مشهد الزعيم الشاب إلى سراى البارودى ، وصعدت السلم أريد أن أستأذن على لطفى بك كعادتى . وكان عجبى شديدا حين رأيت باب حجرته مفتوحا على مصراعيه ، ورأيت حاجبه سليمان لا يصد أحداً عن الدخول ، ودخلت الحجرة فرأيت بها عددا كبيرا غير مألوف من الزوار الذين أحاطوا بالمنضدة الطويلة الممتدة أمام مقعد لطفى . وكان عجبى اشد من ذلك حين رأيت أستاذى وقد ارتدى السواد ، واشتمل عنقه برباط اسود كبير ، ووقف وكأنه مفجوع فى أعز الناس عليه وأقربهم إليه . ولقد وقفت مبهوتا أمام منظر لم ا كن أتوقعه ثم انسحبت ولم أرد أن أطيل السماع لحديث لم أ كن آلف من قبل مثله ، لأنه لم يكن حديث المنطق الذى تعودته من لطفى ، بل كان حديث مأتم تجرى فيه

العواطف أدمعا أو ما يشبه الأدمع . فلما ظهرت الجريدة بعد ظهر ذلك اليوم ، رأيت لطفى أول داع لإقامة تمثال لمصطفى كامل ، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض الوطنى ولم يسعفنى منطق الشاب بما يرضاه عقلى تفسيراً لما رأيت وما سمعت . ولم استطع أن أقنع نفسى بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق هذا المبلغ ، فكتمت بما فى نفسى حتى أفضيت به إلى لطفى بعد أيام فابتسم قائلا « اننى لا أزال شابا لا أقدر مثل هذه المواقف » . ولم يقنعنى قوله ، لأننى لا أستطيع أن أغير شبابى ، أو أقنع نفسى بمنطق غير منطقها . وبدا ذلك على فلم يعترضه أستاذى . ولقد ظللت كذلك معه من بعد . لا أؤمن إلا بما اقتنع به ، ولا بتكييف مسلكى فى الحياة إلا بما أؤمن به . لم يغير ما كان من عدم اقتناعى بمسلك لطفى بك فى هذا الموقف ما يكنه قلبى له من تقدير وإكبار ، بل قلت فى نفسى : لعل له عذرا وأنت تلوم ! هذا إلى ما كنت أشعر به كلما استمعت إليه يتحدث فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الفلسفة ، من لذة عقلية كان يزيدنى تعلقا به . ثم انه لم يكتف بأن ينصب نفسه أستاذا ومعلما لناشئة الجيل من أمثالى الذين كانوا يترددون عليه ، بل أتاح لنا فرصة الاستماع إلى كبار الأساتذة إذ كان يدعوهم ليحاضرونا فى دار الجريدة فى موضوعات مختلفة . كان أحمد بك عبداللطيف ، وحسن بك صبرى ، ومحمود بك ابو النصر ، وغيرهم من كبار المحامين ، يحضرون إلى الجريدة يلقون محاضرات ما كان أجلها فائدة فى توسيع آفاقنا الفكرية نحن معشر الشباب ، وكان لطفى يقدمنى لهؤلاء جميعا ويذكر لهم شيئا مما اكتبه فى الجريدة مقرونا بتقدير كنت أغتبط به أشد الاغتباط . وكان هؤلاء الأساتذة الكبار لا يأبون علينا أن يرشدونا إلى كتب نقرؤها ما كان أعظمها أثرا فى ثقافتنا » .

هذا ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل عن جانب من صلته الشخصية بلطفى السيد ، أما ما كتبه الأستاذ عباس العقاد ، فإليك منه ما يلى ، يمكن أن

أن تضمه إلى ما سبق أن نقلناه عنه فى موضع آخر من هذا الكتاب : « كان فى فكرته أفلاطونيا ، بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها الأفلاطونية التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الأثرة والأنانية ، كالحب العذرى كما نفهم بالعربية .. ومن معانيها ، وهو أقرب إلى ما نعنيه فى هذا المقال ، أن الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة ، تطوعا وحسبه ، بغير جزاء ، وألا يشتغل بخاصة أموره الشخصية لأن الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص بغير القيام بحقوقها ..

« ولقد كان لطفى السيد يعيش على وفاق هذا الدستور ، وكان — من زمن بعيد — يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها إلى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفياً بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها ، وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين أخوته ، فأبى ذلك وأصر على الأباء ، ولم يقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة .

ثم قال :

« وكان أمتع ألوان الحديث بين الرجلين لطفى السيد وعبد العزيز فهمى الكبيرين تلك الأحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع إلى مصر الجديدة حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيرا أن يدعوانى إلى صرف سيارتى ، ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولاسيما الجلسات التى يطرأ فيها بعض الخلاف بينى وبين عبد العزيز باشا فى مسائل

اللغة أو الأدب .. وجدت كثيرا أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه ..

فقال لى مرة ، وقد أنس من الأستاذ لطفى شيئا من الميل إلى ترجيح رأيى:

ـ أوع تطلع فيها يا عقاد على طريقة أستاذنا لطفى .. إن لطفى ينظر إلى هذه الأمور نظرة الأرباب .. قل له ما رأيك إذا كتبت العربية غدا بالحروف الصينية يقل على الأثر ، ويجرى إيه ؟ .

فقال لطفى : ويجرى إيه ؟

وعاد عبد العزيز يكرر الحديث عن نظرة الأرباب وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التكرار حتى قال متأثرا :

ألا ترى أنك تسخر منى بهذا الحديث عن الأرباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع عبد العزيز يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب المدين المماطل .

ـ ما هذا التجنى يا أخى .

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلا :

ـ ليكن حديث أرباب .. دع الأرباب هى التى تحتج عليك هذه المرة .

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى لطفى السيد ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم عبد العزيز فهمى ، إلا من أمثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من

الشدة أن يقفل عبد العزيز فهمى التليفون فى وجه صـــديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضا ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية ..

« وروت إحدى الصحف عن الأمير محمد على توفيق أنه يستنكر الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فثارت عليه ثائرة عبد العزيز فهمى وبسط لسانه فيه ، بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى محمد على .

ثم خرج من النادى تواً إلى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه الكتابة فى موعد من مواعيد التهنئة أو المعايدة : أنه يسأل الله أن يرزق الملك بولى عهد رشيد تقر به عيناه !

وسمع لطفى السيد بهذه الجملة ، فخاطبه تليفونيا ليرجوه أن يترك الأمير وشأنه على الأقل فى أحاديث النادى . . فوضع عبد العزيز سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من هذا المسلك مع صديقه إلا بعد أيام ، وإن كان على هذا فى سائر أحواله ، عظيم الإكبار له ، عظيم الثناء عليه » .

وقال عبد العزيز البشرى فى كتاب (المرآة) :

« لا أدرى أعلمه أوفر من عقله ، أم عقله أوفر من علمه ؟ إلا أنه أوفى بهما كليهما على الغاية . وهو عالم واسع العلم ، وعاقل واثق العقل . وذكى متسعر الذكاء . له عينان حديدتان كأنما تمدهما أشعة إكس ، فلا يكاد يقوم بينهما وبين ما تريدان حجاب وأنه ليحاول أن يستر عنك إدراك هذا منه بمنظاره الأسود ، كما حاولت الطبيعة أن تكتمه على الناس بما ضيقت فى محجريهما تضييقاً .

ثم تحدث البشرى عن أيام (لطفى) فى الجريدة وقال بعد ذلك :

« لم يكن (لطفى) فى سنيه تلك صحفياً فحسب ، بل كان أستاذاً يشرع فى

العلم والفلسفة وفنون الاجتماع ، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء فما راقك اليوم من علم فلان وما أعجبك من عقل فلان ، وما راعك من أدب فلان ، فأولئك فى الحق ، أكثرهم من صـــنعة لطفى السيد فى تلك الأيام » .

« وهو رجل له ، أو كانت له شخصية قوية ، له نظره ، وله تدليله ، وله أسلوبه الـكتابى ، بل وله إيماءته وحديثه ، وأن كثيرا ممن كانوا يطوفون به ليقلدونه فى كل ذلك ، فمن أعيا عليه تفهم علمه وأدبه راح يقلده فى شكله ودله ، ويحاكيه فى لهجته ومخرج حروفه .

« ومن ظريف ما يروى فى هذا الباب ، أن فتى من أبناء الحـكام أصحاب لطفى ، كان يعجب به هو الآخر ، طوعا لإعجاب الناس ، فـكان جهد حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن يصل إلى حلاقه فيسأله أن يسوى له رأسه كما يفعل بشعر الأستاذ سواء بسواء ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبض صوته ويرسله ، ويلويه ويعدله ، ويفـكـكه ويلحمه ، يرققه ويفخمه ، ويثنى عطفيه من زهو واستـكبار ، ويهز كتفيه من استنكاف واستنـكار ، ثم يعود إلى نفسه فيراها قد استوت (لطفى السيد) فى غير جهد ولا عناء .

ثم قال :

« وقد فاتنى أن أقول لك أن هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب فى سبيل (الثورة) قد عاد فضحى (بالثورة) فى سبيل المنصب ، فأصبح كما يقول أصحاب الميسر ، (كيت) لا له ، ولا عليه ، وإلى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم .

وعساك تتحدانى بأنه أصبح الأستاذ الأعظم الرسمى فى كل البلاد من يوم

أن أصبح « مدير الجامعة » فأجيبك بأنى « ماعنديش خبر » بشىء من هـذا كله . وكيف يريدنى على أن أصدق أن الأستاذ لطفى السيد كله أصبح مدير الجامعة فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درساً ، أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة .

ثم قـــال :

« والحق أن لطفى أستاذى ،وأنه ليسوءنى أن يختم حياته فى هذه « الجامعة »، من حيث يجب أن تبتدىء الحياة القوية لعظماء الرجال .

والواقع أن الداء (الأجنبى) قد تفشى فى تلك الجامعة فى حين لم نر لذلك الحكيم ، قولا ولا علما ، ولو كان هذا المقام مقام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديت أستاذى العظيم بكثير .

« ولطفى بك يجمع إلى عذوبة الروح ، عذوبة الحديث ، وهو أديب تام يحفظ صدرا عظيما من متخير شعر العرب ، ومأثور أقوالهم ، إلى فقه فى متن اللغة، ورعاية لوقائعها ، وبخاصة إذا كتب أو حاضر أو خطب . وله فى أبواب البيان والترسل أسلوب خاص به ، حاول كثير من الكتاب أن يتكلفوه فانقطعوا دونه . وهو شديد الحرص على أن يريك أنه لا يعبأ بتجويد العبارة ،ولا يتحرى اللفظ الرشيق ، إذ هو فى الواقع يجهد فى هذا ، رغم عنايته بالمعانى ، والتكثر من إيراد مصطلح العلماء ويتصل له إلى ما دون التعسف . وهذه الصفة فى لطفى السيد إنما تتصل بأخلاقه جملة ، فهو رجل قد أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف ، يتكلف فى مرح الشباب ثقل الشيوخ ، ويتكلف فى مجلس اللهو هيئة الجد ، ويتكلف عـــدم الاكتراث لأعظم ما يكرثه من الأمر ، بل أنه ليتكلف الكلام « بالجاف » إذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يربطها بأهل الريف سبب .

نعم ، لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله ، حتى أصبح له طبعاً وسجية ، وأكبر ظنى أنه لو شاء يوما أن يرسل نفسه على سجيتها لتكلف فى هذا كثيراً » .

* * *

لعلنا الآن استطعنا أن نتمثل صورة أحمد لطفى السيد ، وأن نتأمل ملياً سماتها ،وملامحها ، ونحن نروى وقائع حياته ، نقلا عنه ، ونقلا عن الذين عاصروه وأحبوه ، ولعلنا أيضاً استطعنا ، أن ندور حول الواجهة الخارجية لهذه الشخصية التى قدر لها أن تحتل مكانا ضخماً فى حياة المصريين فى النصف الأول من القرن العشرين ، فماذا تكون حقيقة هذه الشخصية ، وحقيقة قيمتها ؟

وأحسب أننا لن نجد عناء أى عناء فى تقرير أن أحمد لطفى السيد ، عاش أهدأ حياة عاشها مصرى فى فترة كانت تمور وتفور بأسباب القلق ، والتطور والتحول . وأنه حافظ على هدوئه ،وطمأنينة نفسه ، حتى حينما دفعت به الأحداث إلى قلب البركان ، أو على فوهته . نعم بقى ومسبحته فى يده ، ورأسه مائل إلى أحد الجانبين قليلا ، ووجهه لا يعكس شيئاً من انفعالات النفس، وهو مسترسل فى حديث متصل ، شبيه بحديث الفلاسفة ، وليس فيه من الفلسفة شىء . قريب من أحاديث العلماء ، وليس له من العلم العميق ، ولا المعرفة الواسعة حظ ، يوهم سامعه ، أنه حديث مجدد يريد أن يطور ويغير ، والحقيقة أنه راض بما هو واقع، وسعيد بما قسم له ولبلاده .

ترك له أبوه ثروة ليست بالقليلة ، وكاد هذا الوالد يخصه دون سائر اخوته بخمسمائة فدان دفعة واحدة ، فأبى إلا أن تكتب له هذه الضيعة ولأخويه سعيد وسالم ، فهو فى هذه الصفقة وحدها صاحب أكثر من مائة وستين فدانا لعلها لم

تكن كل ما انتقل إليه عن أبيه ، كما أنها لم تكن كل ما اقتناه . فهو إذن ميسور الحال ، أو أكثر قليلا من ميسور الحال ، إذا اعتبرنا هذا الاصطلاح ، مساويا لدرجة متوسط بين الأغنياء والفقراء . وله بهذه الثروة التى لم يشق فى سبيل تحصيلها ، ثم لم يشق بعد ذلك فى إدارتها واستثمارها ، نجاة من القلق من أجل الرزق ، وانشغال البال بجمع المال .

فلما شب عن الطوق لم يكابد فى حياته ما تمتحن به الدنيا الأحياء ، إلا عندما دخل للمدرسة الابتدائية فى المنصورة وكان التعليم فيها أقرب إلى العسكرية منه إلى التربية المدنية ، فلم يطق كثيرا هذا الطراز من الحياة ففكر فى أن يفر منها ، فادعى لوالده أنه يخشى أن ينسى فى المدرسة القرآن الذى كان قد حفظه ، ويخشى وعيد الله سبحانه وتعالى لمن يحفظون الكتاب ثم ينسونه فى الآية الكريمة : وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » فلما انتقل إلى المدرسة الثانوية ، انتهت المحنة ، فلم يكن العيش فيها شظفا ، ولا القيد صلبا ، فالطعام كان شهيا، والنظام كان سخيا ، وقد بلغ من سخائه أنه حينما ضاق وزملاؤه بالامتحانات الشهرية استطاع أن يتصل بوزير المعارف فى مكتبه ، وأن يشكو إليه ونجح فى تحرير نفسه وزملائه من بلاء تلك الامتحانات . ولما انتهى من التعليم الثانوى ، لم يشعر بأنه مطالب بأن يختار لنفسه معهدا عاليا فقد تساوت أمامه المعاهد العليا ، فنقل عبء الاختيار من عاتقه إلى عاتق « القرعة » .فاختارت له القرعة مدرسة الحقوق ولما انتهى من التعليم العالى ، لم يكن ثمة حاجة إلى الاختيار ، فقد كان الطريق مرسوما لجميع من يتمون التعليم فيها . فقد عين كاتبا فى النيابة ، ثم ما لبث أن هيأت له مكانة أبيه وعائلته مكانا مريحا ، فاستعمل حصانا عربيا ، وخادما غزيا — وأنا لا أعرف ما إذا يكون الخادم الغزى — ووجد بعد العمل الخفيف ، فسحة يقضيها بين واحدة من متعتين : إما الخروج

للصيد ، وإما مطارحة صديقه عبد العزيز فهى الشعر ، والشعر الغزلى على وجه خاص .

ورقى إلى وظيفة رئيس نيابة تركها ليعين بعد ذلك مديراً لدار الكتب، ومنذ شغل هذا المنصب الهادىء توزعت حياته ثلاثة مناصب هى ، هذا المنصب: مدير دار الكتب ، ثم مدير الجامعة ، ثم الوزارة .

وبعد الوزارة تقاسمت حياته ثلاثة أماكن أخرى أكثر هدوءاً هى بيته فى مصر الجديدة ، فى أكثر نواحى هذه الضاحية الهادئة هدوءاً ، وركن فى نادى محمد على ، ومكتب فى المجمع اللغوى يلم به قليلا فإذا كان الصيف انتقل إلى فندق (سيسل) ليقيم ، وقضى كل صباح فى حديقة (البوريفاج) .

فإذا كان لطفى السيد ، قد تحمل فى الحياة شيئا من العناء المضنى اللذيذ ،فهو عناء رياسته لتحرير صحيفة الجريدة وترجمة بعض آثار أرسطو ، على أن له من عدة ما ترجمه من صفحات عن ارسطو لم تزد عن ألف صفحة ، إذا وزعناها على عمره المديد الذى أربى على التسعين لم يخص السنة فى المتوسط ، أكثر من عشر صفحات ، ولم يخص الشهر إلا بعض صفحة . فكيف اتفق للطفى السيد أمران؟ كيف اتفق له أن يشارك فى السياسة والصحافة ، وأن يكون عضوا فى الوفد المصرى ، وعضوا فى حزب الأحرار الدستوريين ، ووزيرا ، دون أن يسفك هو قطرة دم واحدة ، دون أن يسفك له قطرة دم واحده .

وكيف اتفق له أن يسمى بأستاذ الجيل ،وأن تضفى عليه نعوت كبيرة كثيرة ، وأن يشار إلى عمله بالتقدير وأن يعد بين الذين طوروا هذه الأمة ، وأسدوا إليها الأيادى .

أما أنه كان دائما فى حلبات القتال ، أو على حافتها ، قريبا من المصارعين والمتقاتلين ، دون أن يمتشق هو سلاحا ، ودون أن يصيبه رذاذ من دماء المقاتلين،

إلا ما يصيب غيره من الناس ، ولو لم يتصلوا بالقتال ، أو يقفوا عنـــد حلبته للمشاهدة والتفرج . فذلك لأنه لم يكن يؤمن بجدوى القتال من أجل أى شىء ، لا حباً فى السلام ، وكرها للحرب ، بل لأن الإيمان الـكبير بشىء كبير كان يعوزه دائماً .

لقد كانت سلامته الشخصية ، وخلو باله ، وبعده عما يعكر مزاجه ، هو هدف حياته ولقد حقق هذا الهدف أعظم تحقيق ، فى مختلف الظروف والحقب، فى عهد الخديو ، وعهد كرومر وكتشنر ونجت ، وعهد الثورة التى وقعت فى سنة ١٩١٩ ، وفى عهد البرلمان ، وفى عهد ثورة ١٩٥٢ .

فأنت حينما تقرأ قصة حياة لطفى السيد بقلمه ، لا تفهم ما إذا كان رأيه سيئاً فى الخديو عباس ، وأنه كان يرى مقاطعته ، أم أنه كان حريصـاً على كرامته الشخصية ، حرصاً أبى عليه أن يزور الخديو إلا إذا دعاه . فقد سمع أن الخديو يريد أن يراه ، فأبى أن يزوره إلا أن يدعى ، فلما دعى ، لبى ثم دعاه الخديو أن يأتى لقصره كل يوم سبت فأصر على أن يتلقى دعوة كل أسبوع . وقد يكون جميلا من لطفى السيد أن يحرص على كرامته مع خديو البلاد أو ملـكها . ولـكنا لا نرى لهذا الحرص أثرا فى سياسة لطفى السيد ، ولا نفعاً للبلاد . فالخديو إما أن يكون سىء السياسـة ، فيجب أن يقـاطع ، ولا يهم أن يتلقى لطفى السيد دعوة منه أو لا يتلقى . وإما أن يكون فى الاتصال به والتردد عليه نفع وفائدة ، فمصلحة الوطن تقتضى لا مجرد تلبية الدعوة إليه ، بل والسعى للحصول عليها إما أن يقف الرجل العام أو الزعيم عند حد الحرص على المظاهر الفارغة للـكرامة ، دون حقيقة الـكرامة ، فما يعاب عليه ويلام من أجله . ويحدثنا عن أنه كان زاهدا فى دخول وزارة محمد محمود ، ولـكنه دخل هذه الوزارة لمجرد أن صديقه

قال له : « اتتركنى وحدى ياصديقى ! » كأن دخول الوزارة دعوة إلى تناول العشاء ، أو حضور حفلة زفاف .

ويحدثنا الدكتور حسين هيكل كيف أسرف لطفى السيد فى إظهار الحزن على وفاة مصطفى كامل ، والاتشاح بالسواد ، وتلقى العزاء كأنه واحد من أسرة مصطفى كامل أو واحد من أنصاره ، وقد ترك لنا الدكتور هيكل أن نفهم أنه رأى فى كل ذلك صورة من النفاق أزعجته ، وهو نفاق رفض لطفى السيد أن ينفى عن نفسه التورط فيه ، بل أنه أكد الحاجة إليه ، إذ اقتصر رده على الدكتور هيكل حينما عاتبه بأنه لايزال صغيرا ، يعنى أنه لم يفهم لحداثته ما تقتضيه الحياة من اصطناع الحزن ، حيث لا حزن ، والإسراف فى المجاملة ، مع انعدام الشعور الصادق بدواعى هذه المجاملة .

وسنرى مدى انعكاس هـذا المزاج على آثار لطفى السيد السياسية والأدبية .

* * *

إن رأسمال أحمد لطفى السيد السياسى والأدبى يتكون من ثلاثة عناصر :

أولها — أنه من السابقين إلى الدعوة إلى مذهب مصر للمصريين أو الرابطة المصرية فى مواجهة الرابطة العربية ، والإسلامية ، ورابطة الولاء لدولة تركيا .

ثانيا — أنه من رواد الفكر الحديث ، الذين مهدوا للديمقراطية المصرية ، ولتحرير المرأة ، ولتحرير اللغة العربية .

ثالثا — آثاره الأدبية وأسلوبه فى الكتابة .

* * *

وسنقف أمام هذه العناصر جميعاً الواحد فى إثر الآخر ، وقفة :

إذا كان لطفى السيد قد دعى إلى مـــذهب مصر للمصريين ، أو الجامعة المصرية ، فى مواجهة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية أو العربية أو الولاء لتركيا ، ليناجز الإنجليز الممثلين لبلادنا فعلا ، والمتصرفين فى أقـــدارنا حالا ، وأصحاب الـكلمة فى الصغيرة والـكبيرة من أمورنا بلامعقب ، لاستحق منا أن نحييه ونحى ذكراه ونشكر له هذا الفضل بكل أسلوب ، أما إذا كان تعصبه للقومية العربية سبيلا إلى مهادنة الانجليز ، والتلطف فى نقدهم إذا نقدهم ، وعقد الأمل عليهم ، والإستعانة بهم لمحاربة هذا الوهم الذى كان يبالغ فيه هو ومن لف لفه ، ونعنى به التبعية التركية ، لـكان مذهب المصرية الضيقة حقـــا يراد به باطل ، ولـكان لطفى السيد جديرا من المصريين ومن التاريخ للمصرى بالعتب إن لم يكن باللوم .

إنك لتقرأ كل ما كتب لطفى السيد فى الجريدة فى موضوع علاقة مصر ببريطانيا ، وفى موضوع علاقة مصر بتركيا ، فإذا به فى الموضوع الأول لطيفا ، كأنه مر النسيم ، يخاف أن يخدش خد الاستعمار ، أما فى الموضوع الثانى فهو متحمس غضوب فما سر هذا ، وما تفسيره ؟

لنبدأ من البداية .

أراد لطفى السيد أن يدافع عن صحيفـــة (الجريدة) التى كانت تتهمه بالتحيز للانجليز ، وتخفيف روح العداء لهم فقال فى عدد ٦ من ابريل سنة ١٩٠٧ [١] .

« وان الجريدة لم تنشأ لأن تحابى السلطة الشرعية (الخديو) أو السلطة

(١) أدب المقالة الصحفية للدكتور عبد اللطيف حمزة ص ٨٦ .

الفعلية (الاحتلال) ولا أن تعادى واحدة منهما ، ولا أن تنتصر لإحداهما على الأخرى » .

وفى هذه العبارة وحدها جماع فلسفة لطفى السيد السياسية فجريدته لم تخلق لتعادى الاحتلال البريطانى ، وليس ثمة وراء هذا الاعتراف شيء آخر نحتاج للبحث عنه ، أو لإثباته ضد لطفى السيد ، لنثبت أنه وجريدته كانا أبعد ما يكون عن الوطنية . وأن جريدته مهما قالت أو فعلت لم تكن تخدم مصر بقدر ما كانت تخدم الانجليز . إذ حسب أن تقول صحيفة فى أمة محتلة بجيش أجنبى ، انها لم تخلق لمعاداة هذا الجيش حتى يصيب اخلاق الأمة وعزيمتها من الضعف والفتور ، بالقدر الذى تتمتع به هذه الجريدة من النفوذ بين أبناء الوطن .

قد يكون جائزا لأية جريدة وطنية ألا تحرض على استعمال العنف ضد المحتلين ، لأنها تؤمن بسياسة المقاومة السلمية ، وقد يكون جائزا أن تقول أنها تكره أن تقتصر المقاومة الوطنية على الخطب والمقالات ، وأن العمل الوطنى فى ميادين التعليم والصناعة والتجارة والزراعة أوجب ، وأفعل فى إجلاء الأعداء عن أرض الوطن . أما القول بأنها لا تعادى الطغاة الغزاة فهو الجريمة التى لا ينفع فى الدفاع عنها أى كلام أو بيان .

واسمع أيضا ماذا قال لطفى السيد عندما سقط كرومر تحت حملات مصطفى كامل النارية فى أثر حادث دنشواى الفاجع . لقد دعا بعض المصريين منهم صديقه سعد زغلول إلى إقامة حفل توديع كرومر ، واستنكر هذه الفكرة الفظيعة ، أكثر المصريين ، فتقدم فيلسوف القومية المصرية فقال :

« سياستنا مع الإنجليز لا تخلو من أحد وصفين ؟ إما سياسة عناد وعداء ،

وإما سياسة مسالة لا استسلام . ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة ؟ إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حسابا على أعماله؟ بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحاً له ؟ فلم تبق إذن إلا سياسة المسالة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة . وأول مظاهرها المجاملة فى المعاملة . ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء بالاحتفال بوداع اللورد كرومر » .

وهكذا يواصل لطفى السيد فى جرأة ، بث هـذه الأفـكار المثبطة للهمم ، المهدمة لأسس المقاومة الوطنية ، الملطفة للتوتر بين المصريين وأعدائهم الطبيعيين . فهو يدعو علنا ويغير مواربة إلى المسالة وهى سياسة لو دعى إليها مواطن فى أمة تحارب أعداءها المحتلين لأرضها ، المقوضين لسلطتها الشرعية ، المستأثرين بخيرها سواء بالحديد والنار ، أو بالمقاطعة ، و بطرق المقاومة السلبية ، لاستحق عقوبة الخيانة العظمى ، ولما وجد إنسانا يدافع عنه ، أو يسمع منه .

وخطر هذه السطور التى تـكتب هكذا بلا مبالاة ، أنها تريد من المصريين التسليم بالأمر الواقع وأن يحاسبوا الإنجليز بوصفهم أصحاب السلطة الشرعية فى إدارة البلاد ، محاسبة ليس فيها لدد ، ليحملوا هؤلاء الإنجليز على تقديم الحساب للشعب المصرى ، ثم يقبلوا منه النصح والإرشاد ، وبهذا تقوم علاقة طيبة بينهم وبين المصريين فيكسب المصريون عطف الإنجليز وتتقدم أحوالهم ، وتتحسن أمورهم .

ولست أدرى لماذا كانت الجريدة تنـكر أنها تنتمى إلى الإنجليز أو تتصل بهم ، وهذه العبارات وحدها كفيلة بإثبات أن الجريدة دعت المصريين إلى ما يخجل الإنجليز أنفسهم من أن يطلبوه من المصريين ، وما ترددت بعض أبواقهم عن المناداة به ، أو الدعوة إليه .

وهو لا يكتفى بالدعوة إلى محاسنة الإنجليز ومسالمتهم ، ولا إلى إسداء الجاملة لهم ، وهو يدافع عن فكرة الاحتفال بتوديع اللورد كرومر ، بل أنه يتورط فى موبقة أخرى،هى دعوة مواطنيه إلى الإقرار بفضل كرومر على البلاد، وكرومر ، هو ممثل الاحتلال ، والذى قال للمصريين فى هذه الحفلة ذاتها أن الاحتلال باق إلى أبد الآبدين .

انظر ماذا قال لطفى السيد فى هذا المعنى :

« ما بال بعض الجرائد أخذت تشهر ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال وتغمزهم كل يوم بضروب من ألفاظ السخرية غير اللائقة ؟

وقال بعض علماء الاجتماع : إن الاعتراف بالجميل هو الإحساس بانتظار جميل آخر فى المستقبل فإذا كانت الجرائد تريد من الناس ألا يحتفلوا بوداع اللورد كرومر إظهاراً لعدم رضاهم عن الإدارة الإنجليزية فى عهده ، وكان الناس فى بلدنا على مذهب ذلك العالم من علماء الاجتماع ، وأنهم لايعملون العرف لذاته بل للاتجار به . أفليس من المصلحة أن يحتفلوا باللورد لينتظروا بذلك خيراً من خلفه ؟

« استقال اللورد كرومر فكنا أول من نشر على الملأ الانتقاد المر على أعماله التى لا توافق مصلحتنا ،مقرونة بالاعتراف له بأعماله التى فيها صلاح لمصر. ولكن شخص اللورد كرومر والرابطة التى بين الأمة المصرية ، وبين أمته ، ووجوب صفاء العلاقات بين الأمتين لمصلحة الطرفين ، كل ذلك يؤدى بنا عن أن نكون المعوقين فى الاحتفال بوداعه ، وإكرام ضيافته ، وتشييعه بما شاءت المحاسنة القومية ، والكرامة العربية » .

وليس نجد وصفاً أليق بالدعوة التى تتضمنها هذه السطور ، مع الأسف

المحض ، إلا أنها دعوة إلى القيام بدور البغى ، مع تحسين هـــذا الدور ، والاستعانة باسم علم الاجتماع ، وما جرى جرى هـذه الرطانة الفارغة ، لإسباغ مظهر وقور على هـذه الدعوة الخبيثة ، لتبدو أنها العلم أو الأخلاق ، وهو شيء يأباه العلم ، وتثور له الأخلاق بغير جدال .

فلطفى السيد يريد من أبناء شعب اقتحم الإنجليز عليه بابه ، وفرضوا عنوة إرادتهم على كل مقدراته ، أن يتلطفوا لممثليهم ، وحاملى سياطهم ، فيودعوا الراحل أحسن توديع ، ليثيروا فى نفس القادم العطف عليهم ، فيسخو فى معاملتهم . ويصعب على (لطفى السيد) فكرة أن يفهم أن التسليم بالاحتلال هو تنازل عن (مبدأ) لايحق لأمة تتحلى بأدنى درجات الكرامة ، أن تطيق الحياة بعيدا عنه ، وإن اختلفت طرائق أبنائها فى تنفيذ هذا المبدأ ، وفى تطبيقه . ففى كل أمة طوائف من الوطنيين منهم من يتخذ الثورة الصريحة سبيله للمقاومة ، ومنهم من يتخذ التدرج والتطور ، والخطابة والكتابة ، سبيله للكفاح ، ومنهم من يلجأ إلى العمل العنيف السرى ، ومنهم من يهيء للمقاومة المسلحة مستعينا بأعداء عدوه فى الحلبة الدولية . أما الطائفة التى تقبل يد جلادها ، وتذكر له بالفضل والعرفان بالجميل ، إذ هو أطال فى حبل أسرها ، أو ابتسم لها ، مع أنه يعلن فى كل لحظة أن السيف والنطع جاهزان ، وأنه مصمم على الإجهاز والقتل ، فطائفة لا تمت إلى الوطنيين ولا تنتمى إلى الوطنية .

على اننا مادمنا قد عرفنا الأساس الذى يقيم عليه لطفى السيد فلسفته السياسية ، دعوته إلى ما يسميه الجامعة المصرية فليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب أو الدهشة ، إذا رأينا صوراً جديدة من تطبيق هذه السياسة ، خذ مثلا ما قاله فى عدد (الجريدة) الصادر فى ١٨ من مايو سنة ١٩٠٨ :

« إن منح الأمة سلطة التشريع الأهلى والإدارة المصرية أصبح ضروريا

تدعو إليه مصلحة (انجلتره) لـكسب صداقة المصريين ، ومصلحة (الخديو) ليساعدهم على نموهم السياسى ، ومصلحة (الأمة) لتخرج من حال الوصاية » .

فحينما يتحدث لطفى السيد عن الدستور يتجه نظره أول ما يتجـه إلى الإنجليز ، وهو يؤمل فى دستور تتم فى ظله المصالحة بين النقيضين اللذين لا يتفقان إلا عند لطفى السيد وحده ، وهما مصلحة انجلترة ومصلحة مصر . وهو ينصح للانجليز بأن يمنحوا مصر الدستور ، ليكسبوا صداقة المصريين ، فهو يعمل جاهداً ليقيم بين الاحتلال البريطانى وبين مصر المحتلة المحكومة قهراً ، علاقات قال فى مقال سابق أنه يتمنى أن تـكون صافية .

ومن يبدأ السير فى هذا المنحدر فإنك لا تعرف آلام ينتهى ، وقد قاده هذا المنحدر ، فعلا إلى تفضيل الإنجليز حكام لمصر ، إذا كان لا مفر من أن يحكمها أجنبى ونحن ندع للدكتور محمد حسين هيكل الـكلام فى هذا الموضع ، قال فى صفحة ٦٦ من مذكراته :

« عدت إلى القاهرة ، مصمماً أن أعلن رأيى وأن أدافع عنه ، وزادنى تصميما أنى رأيت صحيفة المقطم تروج لفكرة رأيتها غاية فى الخطورة ، تلك أنه إذا خيرت مصر بين من يحكمها من الدول فإنها تختار انجلترا ورأيت (الجريدة) تـكتب ، وإن كانت كتابة مخففة فى هذا المعنى ، فقد كانت تذكر أن مصر تريد الاستقلال ، فإذا لم يكن ميسورا ، وكان لابد لها من أن تحكمها أمة أخرى فانجلترا خير أمة ترضاها مصر . صحيح أن هذا الـكلام لم يكن يكتبه لطفى ولـكنه كان ينشر فى (الجريدة) ، وهو مسئول عنه . ولم ألبث حين نزلت القاهرة أن ذهبت إليه وسألته ، وقد انقضى الأسبوعان : الآن انتهت المحادثات التى ذكرها لى ؟ فلما علمت أنها لم تنته إلى شىء ورأيت أنه يستمهلنى ، ذكرت له هذا الذى يروج له المقطم ، ولا تدفعه (الجريدة) بل لعلها تجاريه فيه .

ذكرت ذلك وقد ملكتنى ثورة الشباب ، حتى لقد قلت « ومتى كان لعبد أن يختار سيده ؟ إن الأمة المستعبدة يحكمها القوى فإن هى تابعته وأظهرت الرضا به ، كان شأنها شأن العبد، أو شأن البغى ، وأنا أربأ بمصر أن تكون عبداً أو بغياً »، ويروى هيكل أن لطفى نصحه بأن يتريث ، وأنه يرى أن السياسى يجب إلا يبرم بالوقت ، وأنه يجب على الشبان أن يروضوا أنفسهم على شىء من الصبر فى المسائل الخطيرة ، فكثيراً ما حل الوقت مشكلات كان الإنسان يحسب أنها لا تحل.

ويقول هيكل :

« أصغيت إلى هذه الكلمات إصغاء من يقدرها قدرها ، ثم لا يقتنع الإقتناع الصحيح بها ، والواقع أننى كنت محنقاً على هذه الدعاية التى تنشر لحمل المصريين على القول بأنه إذا لم يكن استقلال وطنهم مستطاعا فإنهم يفضلون أن تحكمهم إنجلترا لذلك خرجت من عند لطفى بك وكتبت رأيى فى عبارة وجيزة أسفه هذه الدعاية . لكن ألفاظ عبارتى كانت قاسية لأنها كانت صورة لما خاطبت به لطفى بك ولم يرض عنه ، وكان طبيعياً أن يرفض نشره ، وكان طبيعياً أن أخرج من عنده مغضباً . »

فها نتذا ترى أن سياسة المحاسنة والملاطفة ، والإعتراف بالجميل للاحتلال البريطانى ولممثليه ومعاتبة هذا الإحتلال عند الاقتضاء كما يتعاتب الإخوان وأبناء الأسرة الواحدة ، كانت سياسة طموحة لاتبغى الوقوف عند الدعوة إلى الأعتدال ، ومحاولة كسب أكثر مما يمكن كسبه من الأعداء، الدهاء والمداورة، توطئة للانقضاض عليهم وإجلائهم ، أو للضغط على احتلالهم ، وزحزحته ، بل أنها كانت تمنى نفسها أن يحدث بين الاحتلال البريطانى والوطنية المصرية مزاوجة تلد هذه السياسة النكسيحة الشوهاء سيلمة أنه إن ضاقت السبل فى وجه كفاحنا ، فليكن الإنجليز هم حكامنا لو قدر لهذه الفكرة المسمومة أن تروج، لكانت الخطوة التالية مباشرة لها، هى المناداة بأن السبل سدت فعلا،

فلنقلع عن التغزل فى المستحيل، والتأميل فيما لا تأتى به الأيام، ولنضع أيدينافى أيدى الممثلين البريطانيين ولنتكل على الله أو على الشيطان على وجه أصح.

ولقد رأينا ونحن نسرد تاريخ لطفى السيد، وننقل فى هذا الصدد فقرات مما كتبه بخط يده فى رواية حياته، أنه سعى إلى إقناع الإنجليز بأن يقطعوا صلة مصر بتركيا، وأن ينادوا بالخديو عباس ملكا على البلاد، وأن يختاروا لها علماً يختلف عن علم تركيا، وأن الإنجليز هم الذين أشفقوا من هذه الخطوة، إبقاء على صلتهم بتركيا التى كانوا يودون أن يحموها من الانهيار لتبقى سداً وهمياً أى سياسياً فى وجه مطامع روسيا القيصرية فى استانبول ومضايق البحرين الأبيض والأسود، وأملا منهم فى ألا تنحاز لألمانيا، ولا تدخل فى صفها فى الحرب ضد بريطانيا. فلطفى السيد لم يقتنع بالدعوة الكلامية للاحتلال ولمحاسنته، ولإجراء المصالحة معه، ولإقامة المواءمة بين مصالح المصريين ومطامع الإنجليز، بل تدرج هو، وتدرجت معه جريدته إلى قبول الإنجليز حكاماً لأنهم خير الحاكمين، ثم انتقل من هذا كله إلى النشاط السياسى الفعلى، فأخذ يقابل هذا وذاك من المصريين والإنجليز ليقبلوا فكرة المناداة باستقلال مصر، عن تركيا، فى ظل الاحتلال والحماية البريطانية.

فلطفى السيد وجريدته، كانا فى واقع الأمر، خالصين للاحتلال، يؤمن وتؤمن معه بالإنجليز، وقد أغنانا اللورد جورج لويد عن الاستنتاج وإن كان الأمر مع هذه النصوص الصارخة الواضحة، فى غنى عن الاستنتاج فقد جاء فى كتابه « مصر عن عهد كرومر » ماترجمته:

وبفضل مجهود اللورد كرومر، تأسس فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ حزب جديد، هو حزب الأمة، وصحيفة (الجريدة)، وقد كان أكثر أعضاء هذا الحزب، بعثاً للأمل، رجل اصبح اسمه فيما بعد أهم الأسماء فى تاريخ مصر الحديثة، ذلك هو

سعد زغلول .. وكان قد أظهر صفات عظيمة منها الإعتدال فى الرأى والشجاعة ، وقد كان مصرياً صميا ومؤمناً بالصداقة البريطانية . وكان خصما شديداً قوياً لسياسة الخديو ونشاطه السياسى » .

لحزب الأمة باعتراف الإنجليز أنفسهم هو من صنع أيديهم ، وزعماء هذا الحزب من أمثال سعد زغلول يتمتعون بالصفات التى كان يروج لها لطفى السيد الاعتدال ، والشجاعة فى تحدى اتجاهات الأمة الوطنية ، وفى الدعوة إلى الأفكار غير الوطنية ، ثم الإيمان بالصداقة البريطانية ، ومخاصمة الخديو ، لإسباغ صفة الإصلاح ومقاومة الفساد والإستبداد على أنفسهم .

وما يقوله لورد لويد قاله أيضاً تشارلس آدمس فى كتابه عن الإسلام والتجديد قال :

كان سعد فى الجانب الأكبر من حياته العامة صديقاً للاحتلال ، صادق النية ، مخلص الرأى وعاون البريطانيين فى خططهم التى أرادوا بها إصلاح الإدارة واختياره لوزارة المعارف فى الوقت الذى كانت فيه المدارس منبع التهييج الوطنى » .

فدور هذه المدرسة — التى كان لطفى السيد لسانها ، وسعد زغلول زعيمها ، والشيخ محمد عبده راعيها الروحى ، هو إلقاء الماء البارد على الجذوة الوطنية ، والدعوة إلى الإنجليز ، وإلى التودد إليهم ، والتحدث بمزاياهم وصفاتهم ، وماتجره مصر من الخير ، بالإخلاد إليهم والثقة بهم فالدعوة إلى المصرية ، لم تكن غاية فى ذاتها ، وإنما كانت إلتواء ، فى الدعوة ، إلى ما هو شر خالص وهو مسالمة الإحتلال ، والرضاء بحكمه

ومن ثم فإن نسبة الدعوة إلى (المصرية) إلى لطفى السيد ، ليست إلا إفتراء على التاريخ ، وتزييفاً له ، فإن كل ماقاله لطفى السيد فى الإشادة بمصر ،

ووجوب استقلالها عن غيرها من الأمم ، يعتبر نقيقا ضعيفاً إذا ماقورن بهذه الأناشيد العالية المجلجلة التى أطلقها مصطفى كامل غناء وشعراً ، يفيض حباً فى مصر ، وهياماً بها ، أن شيئا مما قاله لطفى السيد عن (مصريته) العرجاء لم يكتب له بعض ما كتب من الخلود لـكلمة مصطفى كامل لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا — ولا لخطبته التى قال فيها : بلادى !! لك حبى وفؤادى.

والتى قال فيها أيضا :

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها ، وطوفوا واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأخلدا آثار ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء وأدعى للحب والعطف كله ؟ يجيبكم بصوت واحد بأن مصر جنة الدنيا .

والتى قال فيها أيضا :

«وليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم .. يجتمعون ويتناصرون».

ونستطيع — آخر الأمر — أن نتبين رصيد الدعوة التى اضطلع بها أحمد لطفى السيد ، ونعنى بذلك الدعوة إلى المصالحة بين الحركة الوطنية والإحتلال البريطانى ، بما انتهى إليه سعى (لطفى السيد) فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبعد أن اندلعت نيران ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد روى — الدكتور محمد حسين هيكل فى ص ٨٢ من الجزء الأول من مذكراته مانصه :

« واستغرق التفكير فى هذا الأمر شعورى الشاب ، وعزمت أن أسأل أستاذى لطفى بك السيد عنه ، فانتهزت الفرصة وذهبت يوماً إلى منزل سعد باشا وطلبت مقابلة لطفى بك ، وصارحته بما يدور بخلدى ، وسألته عن مبلغ

اقتناع الوفد بما لسعيه من حظ النجاح ، وكان الرجل صريحاً فى إجابتى . قال لى : إن خطتنا أن نسافر إلى باريس ، وأن نطرح قضيتنا على مؤتمر السلام ، وأن نطلب تطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان فإن أجبنا إلى مطلبنا كان ذلك ماننبغى ، وإلا ذهب رشدى وعدلى إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فى تنظيم العلاقة بين مصر وإنجلترا فى حدود الحماية تنظيما أساسه قيام الحكم الدستورى الصحيح فى البلاد . فقيام هذا الحكم يرفع عنا مانئنوء به من سلطة مطلقة ، شرعية كانت تلك السلطة أو فعلية ، ويدنينا من هدفنا فى الاستقلال، إذ يتيح لنا فرصة النهوض بالشعب فى مدارج الرقى ، فإذا بلغ أشده لم يكن لغيره عليه سلطان » .

ويقول الدكتور هيكل :

« لم أطالع أحداً بما سمعت من ذلك ، فلو أنه عرف لهوجم الوفد وأعضائه على أساسه ، ولأدى ذلك إلى فرقة فى البلاد وشقاق »

فقد طالب لطفى السيد فى ابتداء سنة ١٩٠٧ بمثل هذا الذى انتوى أن يطالب به إذا لم تنجح مساعى الوفد فى عرض قضية البلاد على مؤتمر الصلح فى فرساى : تنظيم علاقة مصر ببريطانيا فى ظل الحماية ، وإقامة حكم دستورى فى البلاد . وقد بذل من أجل الوصول إلى هذا المطلب المتواضع ، ولا نقول الحقير ، كل ما يملك من القـــدرة على الملاينة والملاطفة ، وكل ما أفاءه عليه الله من الكياسة والمداراة فماذا حقق ؟ وجد نفسه فى موضع لم يتحرك منه ، ولما أعلن الدستور بعد تصريح ٢٨ فبراير وكان دستوراً فضفاضا كما قال زميل حياته عبد العزيز فهمى ، ماذا أجدى البلاد هذا الدستور الذى كان كالكرة يتقاذفه الملك فؤاد والمندوب السامى وتتداوله أقدامهم ؟ ألم يشذ هو نفسه هذا الدستور ؟ وألم يتبين أن تنظيم العلاقة ببريطانيـا فى ظل الحماية أو الاحتلال ، هو نفسـه

الحماية والاحتلال ؟ وإن قبضة الإنجليز لم تتراخ عن الأمور الحيوية فى البلاد ، وإن هـذا التواضع فى المطالبة بحقوق البلاد ، لا تسـفر عن خير لأبناء هـذه البلاد ، وإن الاعتدال والعقل ، ليس خير السـبل فى مناجزة الأعداء الفاتحين المعتزين بالقوة ، والمدلين بالسلطان .

* * *

بقى من عناصر رأس مال لطفى السيد أنه بشر بالديمقراطية ، ودعى لها ، وقد يـكون هـذا صحيحاً ولـكنه كان واحداً من أصوات كثيرة دعت إلى الدسـتور ، وكانت دعوته إذا قورنت بدعوة اللواء إلى الدسـتور والحياة — النيابية ، ضعيفة وخافتة ، وقد كان الدستور الذى يطالب به لطفى السيد ، أشبه شىء بالاستقلال الذى كان يدعو إليه فقد قال ، بعد أن عرض صورة للدستور البريطانى :

« فهل نحن نطالب بتوسيع اختصاص هيئاتنا النيابية على هذا النحو ؟ كلا . إنما نطالب الجزء الذى يمس حاجتنا من السلطة التشريعية ، وهو أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً فى القوانين التى تطبق على المصريين وحـدهم دون غيرهم » .

فهو يطالب بدسـتور جزئى ، يتناول المصريين دون الأجانب ، وقد كان الأجانب وقتذاك أصحاب النصيب الأكبر فى النشاط الاقتصادى ، وقد كان إخراجهم من نطاق أحكام الدستور ، إلغاء لهذا الدستور .

ومع ذلك فقد عبر لطفى السيد عن مدى إقتناعه بالدعوة إلى الديمقراطية ، (اللبرالية) فقد كانت أول وزارة شارك فيهـا ، هى الوزارة التى عطلت أحكام الدستور ، وحلت البرلمان ، وأعلنت أنهـا تحكم البـــلاد باليد الحديدية .

وقد كان من مفاخر لطفى السيد أنه دعى إلى تحرير المرأة ، وإلى السفور ، والحق أنه دعى إلى هذا ، ولكن بعد أن دوى صوت قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) ، و (المرأة الجديدة) ، وخاض معركة مروعة من أجل هذا الهدف ، أما لطفى السيد ، فبعد أكثر من خمسة وعشرين يوماً من بدء حملة قاسم أمين ، لم يستطع أن يجهر برأيه فى وجوب السماح للطالبات بالدخول إلى الجامعة وآثر أن يتم ذلك الدخول تسللا إتقاء لحملات خصوم تحرير المرأة ، وهو يقول فى هذا الصدد :

« حدث أن طلب إلىّ بعض عمداء كليات فى أول سنة لإفتتاح جامعة فؤاد أن نقبل فيها البنات الحائزات للبكالوريا ، فأسررت لهم فى ذلك الحين أن المسألة شائكة ، وأنى أشك فى رضى الحكومة عنها ، وعلى ذلك قررنا فيما بيننا أن نقبل البنات الحائزات على البكالوريا ، من غير أن تثار هذه المسألة فى الصحف ، أوفى الخطب ، حتى نضع الرأى العام والحكومة معاً أمام الأمر الواقع ، وقد نجحنا فى ذلك وبعد أن سرنا فى هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه ، فقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط ، فلم نأبه لها ، لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا ، وأن التطور لا غالب له » .

وما حسبه لطفى السيد سياسة وكياسة كان وهما فقد كان عمداء الكليات الذين اقترحوا عليه قبول الطالبات فى الجامعة أكثر إدراكا لحقيقة التطور الذى حدث فى البلاد ، والذى أصبح معه تعليم البنت فى الجامعة شيئاً مقبولا من الأكثرية ، وكانوا فى الوقت نفسه أشد وفاء لفكرة التطور ، إذ دعوا إلى التصدى لأمر تعليم البنات فى الجامعة مواجهة ، تقريراً للمبدأ ، وإعلاناً له ، ولكنه آثر أن يتم فيما ظنه غفلة المعارضين وهو ظن لا أساس له إذ لم يكن دخول البنات إلى الجامعة ، بالحدث الذى يمكن إخفاؤه عن الناس ولا منع

الصحافة من أن تخوض فيه إن أرادت ، فقد سكت عنه الناس لأن ماسبقه مهد له ، وهيأ الأذهان لقبوله .

ولكن لطفى السيد كان وفياً لأسلوبه ومنهجه ، من إيثار العافية ، والبعد عن العراك حتى من أجل العقيدة أو الفكرة .

لقد أخرج قاسم أمين كتابه تحرير المرأة سنة ١٨٩٩ ، ثم أردفه بكتابه الثانى « المرأة الجديدة » بعد ذلك بسنتين ، فاستعرت نار حرب — حامية ، اصطلى قاسم أمين نارها ، هادئاً وثابتاً وصابراً على الرغم من أن الأقلام المعادية أحاطت به من كل جانب ، فأخرجت فى الرد عليه ، وتسفيه رأيه ، نحو أربعين كتاباً ، وقد كان من خصومه كتاب يحسنون عرض حجتهم ، ودعم رأيهم ، حسبك أنه كان من بينهم طلعت حرب مؤسس بنك مصر ، وقد كان فوق أنه من دعاة الاقتصاد المصرى الحديث ومن بُناته ، من أحسن من استعان بالقلم فى نشر فكره ، والدفاع عما يعتقد . هذا كله إلى جانب عالم واسع عريض من المؤمنين بأن الدين لا يقر دعوة قاسم أمين وأنها كفر لا شبهة فيه ، وإفساد لمعتقدات الأمة ، وإتلاف لمعنوياتها .

وقد صدرت الجريدة فى مارس سنة ١٩٠٧ ، بعد أن خفت حدة الصدمة الناشئة عن كتابى (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) وبعد أن بدأت عناصر التطور والتقدم تفعل فعلها فى المجتمع ، إذ زاد عدد الطالبات فى المدارس الثانوية ، فلم يعد الجريدة ولا رئيس تحريرها قادرين على القيام بدور الريادة والطليعة فى هذا الجانب من حياة الأمة ، ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن لطفى السيد كان لا يخفى أنه من أنصار دعوة قاسم أمين ، بل أنه قام إلى تأييد هذه الدعوة ، على طريقته الهادئة اللينة .

فقال مثلا فى عددى الجريدة الصادرين فى ٢٥ و ٢٦ من ابريل سنة ١٩٠٨ :

« أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل ، عبء السعى بالمرأة المصرية إلى نظام العائلة ، وبنظام العائلة إلى الرقى الاجتماعى المنشود ، وبهذا الأخير إلى استقلال البلاد ، فما علمت امرءاً يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لإحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم .

« وكما يجب على محب الإنسانية أن يتحفظ من أن يلد لها أولاداً مرضى كذلك يجب على الإنسان الذكى ألا يلد لهـا المعانى المريضة أو ناقصة الخلقة . وهكذا كان قاسم من بناة الحرية الشخصية ومن بناة الجامعة المصرية ، وكان له فضل كبير فى الرد على الأوروبيين الذين طعنوا فى الدين الإسـلامى ، ومنهم الدوق دار كور .

* * *

ومما ينسب إلى لطفى السيد عنايته باللغة العربية ، وأنه دعى إلى عقد صلح بين العامية والفصحى ، وإلى اصطناعها كلغة للتعليم ، ممـا يجدد من شبابها ، ويوسع من مفرداتها ، ويدخل إليها المصطلحات العلمية ، وشكا من أن رقى اللغة العربية انقطع من آثار النهضة العباسية .

وقال فى مقال له فى عدد (الجريدة) الصادرة ٢٠ من أبريل سنة ١٩١٣ .

« الأتوموبيل والبسكليت والجاكتة والبنطلون والجزمة والمودة ، كل هذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر فى الكتابة إلى غيرها من الألفاظ التى تحاول انتحالها مع التكلف لتعبر بها عن هـذه المسميات . إننا لو أبينا ذلك لعملنا على توسيع الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام ، وذلك مؤخر للغة ، مؤخر للبيان

والفصاحة ، مؤخر للتقدم من جميع الوجوه . وإذا كان قصدنا أن تكون ألفاظ الكتابة قاصرة على جماعة الأدباء والكتاب فالخطب هين . أما إذا كنا نكتب ليفهم الناس ما نكتب لحسبنا أننا نقدم للجمهور كل يوم أفكاراً جديدة ، ومعانى صعبة التناول ، ومقاصد بعيدة المرمى فمن الظلم أن نكلفه بأن يعرف كل مسمى » .

ثم قال فى ٢٧ من أبريل سنة ١٩٦٣ .

« نحن نريد أن نرفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابى ، وننزل بالضرورى من لغة الكتابة إلى ميدان التخاطب والتعامل . فلا تكون النتيجة إلا أن نكتب الكتاب ونتحدث الأحاديث عربية صحيحة » .

وقال فى مقال آخر بعدد الجريدة الصادر فى ٢٣ من أبريل سنة ١٩١٣ .

« نحن نقبل كل عثمانى وأرمنى ، ويونانى فى جنسيتنا العربية بحكم القانون مع الارتياح والسرور . ونحن نلبس أزياء (المودة) الغربية طائعين لا كارهين ، ونقبل مايقرره العلم الأوربى إن صح الوصف ، ونستغل ما تقدمه لنا الصناعة الأوروبية من الآلات والماكينات . نحن نعمل هذا كله ونعتبره بشير الرقى ، وطليعة الاستقلال . فما بالنا لا نعتبر لغتنا كالعلم ، نزيد عليها كل جديد بمقدار الحاجة إليه؟ نحن نعمل ذلك بالقول لا بالفعل ، ولكننا ننكره بالقول . لو سألت العامة عن (التلتوار) لعرفوه وأنكروا أفريز الطريق وعذاره معاً .

« والأمة سائرة على هذا النمط من التطور ، فهى تعرف (الكمبيالة) ولا تعرف (السفتجة) غير خمسة ستة من الكتاب ، أو عشرين ثلاثين من المترجين أو المثقفين ممن لايريدون الاعتراف بهذه الحقيقة . اللغة ملك الأمة ، وللكتاب الحرية فى الزيادة عليها بأساليب جديدة وألفاظ جديدة » .

هذه دعوة لطفى السيد فى تحرير اللغة ، ولكن ماذا فعل ليحقق هذه الدعوة؟ إنى قرأت له أكثر مما كتبه بعد ذلك فلم يقع نظرى على شىء من هذه الألفاظ التى دعى هو إلى إدخالها فى قاموس اللغة العربية الحديثة ، والتى نعى على الكتاب التعالى عليها ، والتنكر لها . وإذا قرأت للطفى السيد شيئاً ، وقرأت لغيره من الكتاب المصريين المعاصرين له من أمثال على يوسف ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسين هيكل وسواهم لم تحس أن للطفى السيد أسلوبا فى انتقاء ألفاظه ، وفى توسيع دائرة مايستخدمه من أسماء الآلات والمخترعة حديثاً ، يختلف عن أسلوب هؤلاء . فاهتمامه باللغة العربية . وإثارته لمشكلة قيام لغتين فى مصر وفى جميع البلاد العربية شىء يشكر له ، ولكنا نذكر إلى جانبه أنه أثار المشكلة ، ولم يحلها أو أنه اقترح حلا ولم يتبنه هو نفسه إذ لم يسر فى تطبيقه بالحماسة التى كانت مرجوة من صاحب دعوة . لقد كف لطفى السيد عن الكتابة منذ الحرب العالمية الأولى ، وسارت اللغة العربية تتطور ، وتزداد مرونة ، وتتسع للجديد من الموضوعات ، وتدخل فيها مئات من الألفاظ الأجنبية ، ومئات من الألفاظ المستحدثة لترجمة الألفاظ الأجنبية فمنها مايثبت للتجربة وللاستعمال ، ومنها ما يرسب ، دون أن يكون للطفى السيد يد فى هذه الحركة من قريب أو بعيد ، يدفعها أو يوجهها أو يزودها برأى ، مع أنه كان واحدا من المتصلين بجريدتى السياسة والسياسة الأسبوعية ، ثم أصبح بعد ذلك مديرا للجامعة ، وفيها كلية الآداب التى تضم قسم اللغة العربية ، فلم يسمع أحد أن لطفى السيد ، أفاد من هذه الفرصة لعرض فكرته القديمة ، أو لطرحها على الأساتذة للمناقشة ، أو أغرى الطلاب على التفكير فيها ، أو التأثر بها . ثم أبى القدر إلا أن يختم لطفى السيد حياته رئيساً للمجمع اللغوى ، صاحب الاختصاص الأول فى تناول فكرة رئيسه التى دعى إليها يوم أن كان رجلا تنقصه

الصفة الرسمية . فلم يتصل بأسماعنا أنه سعى أى سعى ، لإثارتها من جديد ، بتقديم بحث ، أو إلقاء كلمة فيما ذهب صديق صباه ، وزميل حياته عبد العزيز فهمى فى سبيل ما رآه ضروريا لتطويع اللغة العربية لمقتضيات التطور فى الحياة ، مذهبا متطرفاً غير خائف ولا متردد ، ولا مجامل ، إذ دعى فى حماسة وشجاعة منقطعة النظير إلى اصطناع الحروف اللاتينية فى كتابة العربية .

***

وبعد هل نحن ننكر على لطفى السيد كل فضل ؟ ونجرد حياته من كل أثر ؟

الواقع أننا لا نمنى ذلك ، ولم نقله . وإنما نحن نريد أن ننصفه ، ونعطيه كامل حقه ، فنسجل عليه أخطاءه ، ونسجل له أياديه .

أما سعيه السياسى فكان شراً كله ، فقد كان دائماً فى صف المهادنة والمسالمة والتفريط . كان الإيمان بالإنجليز وفضلهم يملأ قلبه ، ويملك كل شعاب نفسه ، وكان يرى إبقاء الصلة بينهم وبين بلاده ، ولو كانت إحتلالا أو حماية ، ويعمل لذلك جاهدا وكان عظيم الشعور بجميل الاحتلال البريطانى لأنه نظم الميزانية ، وأقام خزان أسوان وغيره . ولم يكن مذاق الوطنية الخالصة حلوا فى فمه قط . أما الوطنية الممزوجة بما يسمونه التعقل ، فقد كانت مفضلة عنده ؛ لأنها كانت تتيح له أن يتصل بالإنجليز الذين يحبهم ، وأن يثنى عليهم حينما يشاء ، وينقدهم كما تنقدهم الصحف البريطانية نفسها والحكومة البريطانية بل الإدارة البريطانية فى المستعمرات ، ولأنها كانت ترضى فى نفسه نزعة التوثب على الأتراك غير الموجودين فعلا فى حياة المصريين لمجرد أن طبقة الأعيان الذى أتاح لها الإحتلال البريطانى أن تولد وتنمو ، كانت تذكر فظائع الحكم العثمانى ،

فيطيش صوابها ، كما تعكر أحلام الرجال الذين أتموا التعليم كوابيس الامتحانات مع أن عهدهم بهذه الامتحانات قد انقطع منذ زمن بعيد .

وننكر على لطفى السيد أنه فعل شيئاً فى الجامعة ، فكان الطلاب لا يكادون يحسون به ، أو حتى يسمعون عنه ، وقد كانت الجامعة حينما ولى أمرها وليداً صغيرا ، وكان يستطيع الكثير لو أنه خرج عن جموده الذى وصفه (البشرى) فى السطور التى نقلناها ، ولكنه أخلد إلى مكتبه لا يقول شيئاً ، ولا يفعل شيئا : لا يكتب ولا يخطب ولا يحاضر ولا ينشر بحثاً ولا يدعو إلى اجتماع ولا يدنى إليه التلاميذ ، ولا صغار الأساتذة ، ولا حتى كبارهم .

أما دار الكتب ، فلا يذكر له أحد من محبيه أو مؤرخيه أنه أضاف إليها شيئاً ، أو حقق لها خيراً ، أو وصلها بحياة الناس .

فماذا بقى له إذن .

بقى أنه حينما كان فى (الجريدة) جعل منها ناديا ثقافياً وممهداً فكريا ، فالتف حوله عدد غير قليل من الشبان الذين كانوا أصلا متطلعين للحياة الجديدة ، وراغبين فى تحقيق التطور ، فوجدوا فى صفحات الجريدة مجالا لأقلامهم ، وميداناً لأفكارهم ، ووجدوا فى لطفى السيد ، وحبه للتحدث ، ما حرك فى قلوبهم مزيداً من الحب فى القراءة والإطلاع ، خصوصاً فى أدب الغرب مما فتح لهم الآفاق ، ووصلهم بما جد من أفكار فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فقد كتب فى الجريدة هيكل وطه حسين ، وعبدالرحمن شكرى والمازنى والعقاد وعبد الحميد حمدى ومحمد السباعى وغيرهم وعقد لهم المحاضرات وقربهم من كبار الأساتذة وقد شاء الله أن يصل هؤلاء الشبان إلى مركز الصدارة فى الحركة الفكرية ، كما شاءت الظروف أن يكون فريق منهم فى الحزب الذى يتفق

مع ميول لطفى السيد ، فازدادت صلتهم به توثقاً ، مما جعلهم يرون سعادة وسروراً خالصين فى الإعتراف بفضله والإشادة بأثره فكان مايقولونه عنه من رأى حسن ، وشهادة طيبة هى الأساس الذى قامت عليه أستاذيته للجيل الجديد . وهو أستاذ هذا الجيل فعلا ، عن طريق هؤلاء الأحباء والأصدقاء والتلاميذ وإن كانوا لم يكرروا له رأيا ولم ينشروا عنه فكرة فقد أصبح مالديه من أفكار قديماً وغير ذى موضوع ، ولم يجدد هو نفسه ، ولم يقرأ شيئاً فى الأدب الغربى الحديث والفلسفة الغربية الحديثة .

وقد أعان على دعم أستاذيته ، ولصوق هذا اللقب به ، أنه نأى بنفسه عن كل صراع ، فلم يجد أحد من أهل الفكر والرأى مايدعوه إلى مهاجمته خصوصاً بعد أن ترك الوزارة لآخر مرة سنة ١٩٣٩ ، وترك الجامعة منذ ١٩٤٥ .

وقد كانت قدرته الفائقة فى إدارة الحديث وحبه للتحدث إلى الناس ، ماجمع صفوف من الناس حوله ، يسمعون له وينقلون عنه ، ويمدحون قوة ذاكرته ، وقوة حافظته اللتين أعانتاه على أن يروى الشعر القديم ، ويستشهد بآيات القرآن الكريم حتى بعد أن دنا من آخر أيام حياته .

وقد رأيت بنفسى إحدى حلقاته التى كانت تنعقد حوله كل صباح تحت شجرة كبيرة فى حديقة فندق فى الإسكندرية ، تصادف أنى كنت من نزلائه ، فى صيف إحدى السنوات ، وكان لطفى السيد يصل فى موعد منتظم يتوكأ على عصاه ، ويتجه إلى مكانه المعهود فى الحديقة ، ويستمر فى حديث متصل حتى توافى الساعة الواحدة ، فيعود إلى فندقه الذى كان يقيم فيه خلال هذه الفترة فى محطة الرمل الأسكندرية . وكانت له حلقة مماثلة فى نادى محمد على بالقاهرة تعقد كل يوم وقد سمعت من أحد أعضاء هذه الحلقة عن مناقشة دارت بينه وبين لطفى السيد

حول التطور فى الحياة الإنسانية وأنه دائم ، وأنه تطور إلى الأفضل دائماً . فلما عارضه بعضهم فى هذه الوجهة من النظر استشهد بموضع معين من كتاب معين لأحد المفكرين الفرنسيين ، ولما جىء بالكتاب من مكتبة النادى ، وراجعوا إلى هذا الموضع ، وجدوا فيه العبارة التى استشهد بها لطفى السيد ، فأدهشهم هذا كله ، واعتبروه صورة باهرة ، من قوة الذاكرة عند شيخ بلغ التسعين . وهو مثل يدل فعلا على أن ملكات لطفى السيد الذهنية كانت خارقة للمألوف، وأن حيويته كانت فريدة بذبها جميع أنداده . وقد أتيح لى أن أشهد حفلة غداء لعلها آخر ماشهده أو من آخر ماشهده ، وكان سفير الأفغان السيد صلاح السلجوقى قد أقامها تكريما لأعضاء المجمع اللغوى الوافدين من البلاد العربية مع زملائهم من أهل مصر . ولم يكن لطفى السيد قادرا على السير ، فحمل حملا إلى المائدة ، على كتفى سيدتين إحداهما السيدة بنت الشاطىء وكانتا من المدعوات . ولكنه حينما جلس إلى المائدة تناول طعامه بشهية ، وشارك فى الحديث مشاركة حية ونشيطة ، وكان يفطن إلى المداعبات التى تدور بين زملائه على المائدة ويضحك لبعضها ، ويستعيده . وقد ذكر أمامه أن إحدى المطربات سئلت عمن تختاره ليكون رفيقها فى القمر إذا قدر لها أن تصل إليه وتقيم فيه ، فوقع اختيارها على لطفى السيد فقال : إنها كانت مجاملة مؤثرة من تلك المطربة . وقال ذلك بالفرنسية .

وهكذا كان لطفى السيد فريداً فى هــــذه الحيوية ، نشيطا فى أداء الواجبات العامة وفى الرغبة فى المجاملة ، مع تقدم سنه ، وفى حب الحديث ، والاجتماع مع الناس فى حلقات صغيرة بعيدةعن الضجيج والحركة . وقد كانت هذه الصفات ، عناصر رئيســية فى استبقاء اسمه يتردد على الألسن ، وفى تجديد الإحساس بأثره .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أنه نسيج وحده بين السياسيين ، فى عفة لسانه ، وفى زهده فى المال ، وبعده عن التكالب فى جمعه ، الأمر الذى كان شائعاً بين زملائه وأنداده، لأدركنا أنه جدير بأن يحبه زملاء جيله، وأن يذكروا له أنه كان آخر البقية الباقية من سلف تعاونوا فى خلق صورة المجتمع المصرى فى الفترة اللاحقة للإحتلال والسابقة على الثورة . .

الفصل العاشر

الدكتور محمد حسين هيكل

كلما ذكر اسم الدكتور محمد حسين هيكل ، تداعت له فى ذهنى ذكرى حديث سمعته يدور بين أحد زملائى فى مدرسة أسيوط الثانوية وبين عدد من زملائه فى المدرسة ذاتها . كنا عائدين إلى بيوتنا بعد انتهاء اليوم المدرسى، وكل منا على دراجة ، فقال زميلنا : لما مات ابن الدكتور هيكل ، كان يصرخ من شدة الألم ، ثم ارتمى على الأرض ، وأنشب أظافره فيها ، وأخذ يتمرغ . . وسكت زميلنا قليلا وقد فغرنا نحن أفواهنا مشدوهين ثم قال صاحبنا : أما أنا فقد كنت أقول فى نفسى« لعلك تعلم أن الله حق» وصدقنا يومها حديث زميلنا لأنه أكد لنا أنه من أقرباء زوجة الدكتور هيكل .

ولما تقدم بى العمر ، وأدركت حقائق السياسة فى بلادنا ، كنت أعتبر هذا الحديث مثلا حياً على ماتستطيع أن تفعله الدعاية فى صوغ أفكار الناس ، وتكييف مشاعرهم . فقد كانت الدعاية الوفدية من النجاح إلى الحد الذى استطاعت معه أن تبرز خصومها لعامة الناس ، وللشبان وتلاميذ المدارس ، فى صورة أبالسة ، لايشبهون الآدميين .

وقد وقع لى بعد ذلك الحديث أن رأيت أحد زعماء الأحرار الدستوريين يدخل أو يخرج من مكان عام بمدينة أسيوط ، وكان اسمه على الألسن فى تلك الأيام بسبب انتخابات جرت وكان الوفديون فيها فى جانب والأحرار

الدستوريون فى جانب آخر . فلما وقع نظرى على ذلك الزعيم الدستورى ، تسمرت فى مكانى ، وأخذت أراقبه شارد اللب ، وكأنى أرى الشيطان لأول مرة — لم أصدق عيناى حينما رأيت الرجل يحيى أحد الناس ويتحدث إليه كما نتحدث ، وانصرفت من المكان بعد جهد ، وفى نفسى شعور لا أعتقد أن هناك تعبيراً عنه خيراً مما قاله هتلر حينما رأى لأول مرة يهودياً فى مدينة (فينا) يخب فى قفطانه ، وقد أطال سوالفه على جانبى خده ، وترك شعره طويلا مسترسلا فوق عنقه ، فقد تساءل يومذاك هتلر : أيمكن أن يكون هذا نمساويا ؟!

ومع ذلك لم يكن ينتهى حديث هذا الزميل ، حتى نسيته إذ لم يكن يظهر بعد ذلك كتاب للدكتور هيكل حتى اشتريته .

فقد كان الدكتور محمد حسين هيكل عندى ، أديباً كبيراً ، وكانت السياسة التى يرأس تحريرها جريدة أدب وفكر .

قرأت كل كتب هيكل وقد اشتريتها من مصروفى وأنا تلميذ فى المدرسة الثانوية ، ثم وأنا طالب بكلية الحقوق فـ (أوقات الفراغ) و (عشرة أيام فى السودان) و (ولدى) و (تراجم شرقية وغربية) و (ثورة الأدب) و (جان جاك روسو) كانت على أرفف مكتبتى ولا تزال هذه الكتب عندى مجلدة ، لم يضع منها إلا كتاب جان جاك روسو .

ثم عدت إلى القاهرة بعد أن أتممت تعليمى الثانوى فى الصعيد وأخذت صلاتى بالجرائد والصحافة والصحفيين تنمو شيئاً فشيئاً ، وترددت على دور الصحافة ، وعرفت أصحابها ، وكبار الكتاب فيها عن قرب . وكانت (السياسة) إحدى هذه الصحف ، ولكنها كانت ، أقرب الدور إلى نفسى .

فقد ضمت السياسة من أصحاب الأقلام المعروفة أكثر من واحد . بينما لم يكن فى الأهرام كاتب معروف سوى داود بركات ، ولم يكن أديباً ، وإنما كان كاتب سياسة ، وكانت الأهرام عند قرائها ، جريدة خبر ، ولم تكن جريدة أدب أو فن . ولم يكن فى البلاغ أحد سوى صاحبه عبد القادر حمزه ولم تكن جريدة كوكب الشرق ، فى رأيى صحيفة تستأهل النظر فيها ، وكان القليل الذى أعرفه وقتذاك عن صاحبها أحمد حافظ عوض ، يلقى عليه ظلا لايقربه إلى نفسى ، فقد كان من حاشية الخديو عباس فى أخريات أيامه ، بعد أن تنكر الخديو للحركة الوطنية ، وأدار ظهره لزعيمها مصطفى كامل .

فإذا قورنت السياسة بهذه الصحف تفوقت عليها كلها لأنها كانت تضم بين محرريها هيكل والمازنى وعنان فضلا عن أسماء أخرى كانت تظهر فيها بين الحين والحين كمصطفى عبد الرازق وطه حسين ، هذا إلى جانب آخرين اتصلوا بها وكانوا ولا يزالون يحسبون من كتاب السياسة أو أصدقائها كمحمود عزمى مثلا .

وكنت قد أرسلت إلى جريدة السياسة الأسبوعية مقالا ، من بنى سويف ، ترجمته عن إحدى المجلات عن إسكندر ديماس ، فنشرته كاملا وكان طويلا ملأ صفحتين كبيرتين من السياسة الأسبوعية . ونشر مقال لشاب صغير ، من الأحداث الكبرى فى حياته ، والجريدة التى تسدى إليه هذه اليد ، تصبح أثيرة عنده ، وعزيزة عليه .

وبدأت أنشر مقالات فى السياسة اليومية والأسبوعية ، أما اليومية منها فقد نشرت لى ترجمة كتاب رومان رولان عن غاندى فصولا متتابعة تجاوزت

العشرين فصلا . أما السياسة الأسبوعية فقد نشرت لى قصصاً صغيرة ، ودراسات قصيرة فى أدب تلستوى ، ومقالات مترجمة ، ومذكرات عن زياراتى لمعابد الأقصر ، عن رحلاتى فى تركيا والبلاد العربية ، ولهذا كله كان من الطبيعى أن يكثر ترددى على دار السياسة . ولكن لم تتح لى فرصة الاتصال بالدكتور هيكل أو التحدث إليه .

ولكن لم يمنع هذا أن أرى الدكتور هيكل داخلا إلى دار السياسة أو خارجاً منها ، أو أراه مصادفة فى مكتب أحد زميليه عنان وللازنى . ولست أستطيع أن أصف بالضبط شعورى نحوه ، ولكنه على كل حال لم يكن شعور الحب . فإنى لم أره إلا مقطباً يتعثر فى خطاه أو يكاد ، وكان مكتبه فى سلاملك يصعد إليه الإنسان بضع درجات ، فكان يبدو لذلك متعالياً على الذين يجلسون فى المكاتب التى تشغل مبنى متواضعاً فى ساحة الدار .

وفى ذات ليلة ، كنت فى دار السياسة ، أسلم مقالا للأستاذ للازنى ، فرأيت عنده الدكتور هيكل ، وكانت السياسة الأسبوعية نشرت لى فى الأسبوع السابق ، مقالا بعنوان (الموت فى أدب تولستوى) فهنأنى عليه .

وبدأت أدعو إلى فكرة مؤتمر للطلبة الشرقيين ، وأصدرت دار الهلال عدداً خاصاً للدعوة وعرضت على الدكتور هيكل أن تصدر عدداً من السياسة الأسبوعية عن المؤتمر فقبل ، ورحت أجمع مقالات من كبار الكتاب وأساتذة الجامعة الذين كانوا أصلا أعضاء فى لجنة المؤتمر التحضيرية ، وكانت هذه المناسبة فرصة إزداد بفضلها اقتراباً من الدكتور هيكل ، وفهماً له ، هنا أدركت أن التقطيب الذى كان يلازمه لم يكن غطرسة ، ولا عزوفاً عن الناس ، ولا كبرياء تبعده عنهم ، بل كان أثراً من آثار ضعف بصره ، يدعوه إلى عقدما بين حاجبيه وقد استطعت فى القرب أن أتأمله جيداً فأراه أقرب إلى القصر منه إلى الطول ،

وأقرب إلى البياض منه إلى السمرة ، بل إنه أبيض البشرة ، ولعله كان فى عروقه دم أجنبى من هـــذه الدماء التى لا تخلو منها عروق مصرى كالدم التركى أو الشركسى أو الألبانى أو السورى أو للغربى ، وله حاجبان كثيفان . أما سائر قسمات وجهه فليس فيها مايستوقف النظر ، فهى سوية عادية ، وهو لا يميز ملابســه إهتماماً خاصاً ، وهى فى الأغلب ، من الألوان القاتمة : كحلية وبنية ورمادية ، غامقة .

والشىء الوحيد الذى قد يستوقف نظرك أن الدكتور هيكل مسرف فى التدخين ، فالسيجارة لا تفارق أصابعه ، والدخان يتصاعد من سيجارته إلى عينيه ، لأنه يدخن وهو يكتب ، وإذا كتب أدنى الورق من عينيه أو أدناها منه . وإذا تكلم يسعل ، قليلا ، بسبب إسرافه فى التدخين ، ولا يضحك إلا إذا سمعت فى ضحكته حشرجة هى من أثر هذا التدخين فى صدره . وهو ما لم تكن الذاكرة قد خانتنى — يعانى من لثغة خفيفة فى حرف الراء . وهو آخر الأمر — رجل بسيط لا يتكلف فى الكلام ، ولا فى معاملة الناس ، وهو إذا خلا إلى أصحابه يضحك ويسرف فى الضحك .

وجاء ذكر الكبرياء والمتكبرين يوماً ، فقص علينا الدكتور أن عبد العزيز فهمى باشا قال لأحـــد أصدقائه . ياخويا انت نافش لى كده . ؟ فغضب الصديق من هـــذه العبارة ، فطيب عبد العزيز خاطره بقوله : انا وأنت نافشين ، بس أنت نافش بجسمك وأنا نافش بنفسى ، وقالها بالفرنسية :
de coeur , de corps.

وقد شهدت مولد كتاب (محمد) ، فقد بدأ بنشره فصولا متتابعة فى مجلة السياسة الأسبوعية ، وكانت هـــذه الفصول بادىء الأمر ترجمة لكتاب اميل دورمنجيم ، وقال انى اتخذ من كتاب درمنجيم (دردعة) لتأليف كتاب

عن محمد عليه السلام . وقد أكثر من تكرار كلمة (أدردعة) ولم أفهمها ، وخجلت أن أسأله عن معناها ، ولكنى استنتجت أنه لا بد أن يكون معناها (ذريعة) أى أنه اتخذ من ترجمة هذا الكتاب مدخلا لتأليف كتاب كامل عن محمد صلى الله عليه وسلم .

وولى الدكتور هيكل وزارة المعارف ، ثم حدث ما دعانى إلى مهاجمة هذه الوزارة ، وهو على رأسها ، بمقال معنون بـ « لقد جمد قلب وزارة المعارف حتى صار صخراً » وكان المقال يدور حول معاملة الطلبة السودانيين الوافدين إلى مصر للتعلم فى مدارسها .

وقابلت الدكتور هيكل فى أثر نشر المقال ، ولست أدرى هل هو الذى كلف أحداً من موظفى مكتبه ليتصل بى بعد قراءته المقال ، أم أننى طلبت موعداً فأجبت إليه . ولكن الذى أذكره يقيناً أننى قابلته وحدثته فى موضوع المقال فأحسن الاستماع إلى ثم استدعى وكيل الوزارة الأستاذ محمد العشماوى الذى أقرنى على رأيى ، ورأى أن الأمر يستأهل معالجة خاصة لاتتقيد بالقواعد العادية ، للأحوال العادية . وقد تأثرت بحسن استماع هيكل لى ، وبالطريقة التى تناول بها المشكلة ، وإن لم يفتنى أنه كان فاتراً ، وقد بقى هذا الفتور صفة ملازمة لعلاقتى به . وهى صفة لم تشب علاقتى بأحد من زملائه المازنى وعنان وعزمى ، أو بأحد من أنداده : طه والعقاد وسلامه موسى .

وقد جاء ذكر هيكل فى حديث دار بينى وبين المرحوم إسماعيل القبانى الذى كان وكيلا لوزارة المعارف أو موظفاً كبيراً من موظفيها إبان عهد هيكل فيها ، فأثنى عليه ، وقال إنه كان مثالا للوزير الذى يدرك وظيفة الوزير حقاً فإنه كان يجمع كبار معاونيه ، ويعرض عليهم مشكلات الوزارة ، ويدعهم

يبدون الرأى فى حرية ويلخص فى نهاية المناقشة الآراء التى أبديت خلالها دون تمييز لإحداها ، ثم يبدى رأيه ولا يمنع أحداً من التعليق على رأيه بالمعارضة أو التأييد . فهو لم يكن يحب أن يقحم نفسه فى التفاصيل ، ولم يكن يستأثر بالرأى ، ولا يستقل عن مستشاريه فى العمل . ولكن القبانى كان يشكو من أن (هيكل) لم يكن يحبه ، وإنه لم يدر سبباً لذلك ، مع أنه هو كان يحب (هيكل) وقد أحسست بصدق شعور المرحوم الأستاذ القبانى ، وهو يبدى هذه الشكوى .

وأذكر أننا تقابلنا مع هيكل ومحمد محمود باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين فى دار جريدة السياسة بعد أن نقلت إلى دار أكثر تواضعاً فى شارع بركات بجاردن سيتى ، وكان يشوب الجو السياسى أزمة لا أذكر سببها الآن وكان عدد من طلبة الجامعة حاضراً ، فأبدى أحد إخواننا رأياً سياسياً ، فتناوله الدكتور هيكل بالكلام مؤيدا ، إلا أنه رأى تعديله بعض الشىء ، ولكن العبارة التى استعملها ضايقتنى منه فقد قال : لو شقلبنا رأى فلان ، يمكن يكون أحسن » .

ولا يعلق فى ذاكرتى بعد ذلك عن هيكل إلا ثلاثة أو أربعة أمور . الأولى خطبة ألقاها فى دائرة راتب باشا فى اجتماع انتخابى لمرشح الأحرار الدستوريين فى دائرة عابدين وكان مكتبى يطل على (حوش) هذه الدائرة ، وقد كانت الخطبة أول ما سمعته من هيكل الخطيب ، فقد كنا نعرفه هيكل الكاتب ، لا هيكل الخطيب ، وشعرت بأن هيكل لو طال عهده بالخطابة ومرن على ارتقاء المنابر ، لتمكن من أن يكون خطيباً جيداً لا يثير الناس ، ولكنه يمكن أن يظفر باحترامهم وأن يقنعهم بالبيان الواضح ، وبالفكرة المدروسة . وأشهد إنى سمعته يخطب فى سنة ١٩٥١ ، فى اجتماع بفندق سميراميس بعد أن استفاضت

الشكوى من فضائح موظفى القصر وتدخلهم فى شئون الحكم كاسوأ ما يكون التدخل وقد خطب معه فى نفس الاجتماع آخرون صناعتهم الخطابة ، فكان أكثر الجميع نجاحاً لأنه كان أكثرهم شجاعة فقد وصل إلى هدفه مباشرة بلا إلتواء ، وقال فكرته فى جلاء ، فقد قال يومها «لقد سئل فرعون، من فرعنك ؟ قال قلة من يردنى» وكان هذا المثل العامى المعروف فصل الخطاب فى هذا الاجتماع.

ولما أطلق سراحى من المعتقل فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٥٢ سافرت ، إلى الإسكندرية بالطائرة ، وتصادف أن كان الدكتور هيكل من المسافرين فى نفس الوقت على نفس الطائرة فتبادلنا التحيات ، وهنأنى بالإفراج ، وكان بذلك أول سياسى آراه بعد الإفراج من الإعتقال .

ومرت أيام ، وتلقيت دعوة من سفير الهند السردار بانكار لتناول العشا ولم أفطن إلى ماجاء فى بطاقة الدعوة من أن حضور العشاء بالسموكنج فأحسست بحرج شديد إذ تبينت أنى وحدى بالملابس العادية ، ولكن خفف من شعورى بالحرج أن المدعوين كانوا خمسة فقط أحدهم الدكتور هيكل وكان من بين المدعوين الخمسة مهراجا هندى وزوجته الأوربية الجميلة ، وكانت الحفل كئيبة ، إذ لم يكن بين المدعوين من يعرف الآخرين معرفة صميمة تطلق الحديث من قيود التكلف وتشيع الحرارة فى الجلسة . وكان المفروض أن يتصل الحديث بينى وبين الدكتور هيكل ، ولكنه بقى على تحفظه، يرد على الكلام، ويوج أحيانا عبارة أوعبارتين لذلك تنفست الصعداء حينما انتهى العشاء وعدت إلى منزلى

ثم جمعتنى بعد بضعة شهور مائدة أخرى ، وكانت فى هذه المرة مائد شاى فى حفلة عقد قران بمصر الجديدة ، وحاولت أن أحطم هذا الحاجز الثلج الذى يفصل الدكتور هيكل عنى ،فأخذت أسأله عما يفكر فى تأليفه، من الكت ولما لاحظت إصراره على أسلوب التحفظ قلت له : أنا لا أطلب منك حد

الصحف . فابتسم ساخراً : هو انته الأيام دى بتاخد أحاديث جرائد » وفشلت المحاولة . ولكن بعد بعض الوقت انحنى نحوى وروى لى أن إحدى السيدات الفرنسيات سئلت عما إذا كانت تريد لبنا مع الشاى فقلت أريد Soupcon du lait فسأل ذلك وضحك وترجم العبارة الفرنسية : تريد شبهة من لبن . ا فضحكت أو تضاحكت بقصد دفع الحرارة إلى حديثنا ولكن مالبث الدكتور هيكل أن عاد إلى وجومه .

ولم يكن لهذا كله تفسير عندى إلا أن هذه المقابلات وقعت جميعا بعد الثورة ، وكان يثقل على الدكتور هيكل شعوره بالاضطرار إلى العزلة ، بعد طول مشاركته فى الحياة العامة، وبعد المكانة التى شغلها، وكنت أحب أن أسرى عنه وأضعف هذا الشعور بالإقبال على حديثه .

وكان آخر ما اجتمعنا له سويا ، حفلا أقامته سفارة الباكستان للاحتفال بذكرى محمد على جناح ، وكان المتكلمون الثلاثة هيكل ومحمد علوبه وأنا .

ولم أكن ليلة هذا الاحتفال فى أحسن حالاتى النفسية ، فقد تورطت فى قبول الدعوة للتكلم لاعتبارات رسمية — ولست أدرى ماذا قال هيكل لى قبل أن نخطب ولكنى أذكر أنه وصف العهد السابق على الثورة ، (بالبائد) فقلت ممازحاً له ، ومستعملا كلمة السيد المسيح : أنت قلت » وأعنى أنى لم أصف ذلك العهد بالبائد ، وإنما هو الذى وصفه بذلك ، فأخذ المزاح جداً وقال « أنا أقول ماتقولون » .

ثم دعينا للخطابة فألقى الدكتور هيكل كلمة مكتوبة جيدة وجميلة ومحكمة، ذهب فيها إلى هدفه مباشرة، وروى لنا حديثا دار بينه وبين محمد على جناح مؤسس الدولة الباكستانية فى مطار القاهرة ، تساءل هيكل كيف تقوم فى العصر الحديث دولة

على أساس من الدين فرد جناح بأن الهند لم تكن دولة قط ، وإنمــا هى قارة ، وسكانها لم يعرفوا من قبل الشعور القوى الذى يربط أبناء الوطن الواحد .

***

وحياة الدكتور محمد حسين هيكل حياة بسيطة. وحينما أقول بسيطة لا أعنى أنها ضحلة أو قليلة الغيور ، أو ضئيلة القيمة ، بل أعنى أنها تخلو من التطورات العنيفة ، ومن الأحداث المثيرة . فهو لم يرتفع مثلا من الفقر إلى الغنى ، ولم يتعرض طوال حياته للأذى الجسيم ، ولم يقفز إلى الشهرة أو المجد قفزات مسرحية فكل شىء فى هذه الحياة طبيعى ويقع تقريبا فى الموعد الذى يحتمه تطور الأحداث . ويفضى إليه تدرج الدكتور هيكل فى سلك الشهرة والنفوذ .

فهو مثلا لم يعرف ماعرفه عبد الله النديم من الفقر ثم الشهرة ثم محنــة الفرار من وجه الحكومة ثم السجن ثم النفى ثم الموت بعيداً عن الأهل والوطن ولم يكابد ما كابده عبد الرحمن شكرى من آلام الفقر فى عزلة فرضهــا على نفسه ، ثم آلام المرض بعد أن اشتدت عليه هذه العزلة مع الفقر .

كانت حياة الدكتور هيكل خطا مستقيما هادئا .وقد اعتدت أن أقول ان الدكتور هيكل بين زملائه من كبار الكتاب الذين شغلو الناس فى عصره، أكثرهم حظا من (الطبيعية) . وكنت متأثرا وأنا أقــــول ذلك بما قاله (واردبرايس) فى كتاب ألفه عن الدكتاريين الثلاثة الذين شغلوا المسرح العالمى قبل الحرب العالمية الثانية : هتلر وموسولينى وستالين بعنوان : أنا أعرف هؤلاء الدكتاريين .

فقال عن ستالين أنه أكثر الثلاثة اقترابا من المألوف بين الناس العاديين .

كذلك هيكل كان بين زملائه الكتاب أقرب ما يكون فى حياته من المألوف الجارى بين الناس ، فقد تزوج ورزق الأولاد والبنات ، ولم يعرف عنه ما عرف عن غيره من غريب الطباع ، فلم يهجر المدينة ليعيش فى القبور بين مدافن الموتى كما فعل المازنى ، ولم يختر حياة العزوبة التى اختارها العقاد ، مع هذه الحساسية المفرطة لكل ما يمس كرامته حقيقة أو وهماً من بعيد أو من قريب ، ولم يمتحن بما امتحن به الله الدكتور طه حسين .

وقد بدأ هيكل حيـاته السياسية مع حزب الأحرار الدستوريين ، وأتم حياته السياسية على رأس هذا الحزب . وقد بدأ هيكل كفاحه الصحفى الجاد مع أول يوم فى جريدة السياسة ، وبقى رئيسا لتحريرها ، وكاتبها الأول إلى أن أوقفت نشاطها ، وأغلقت أبوابها . فهيكل لم يعرف التذبذب الحزبى ، كما عرفه غيره من الكتاب اضطراراً أو اختيارا . وهو لم يسلك فى السياسة سبيل العنف ، ولا سبيل الضعف . كان وسطا فى كل شىء . وعلى الرغم من أنه كان من حزب الأغنياء إلا أنه لم يعرف الغنى الفاحش ، بل لعله لم يعرف الغنى كلية ، فقد كان أيضا فى هذا وسطا بين الفقراء والأغنياء .

* * *

ولد الدكتور هيكل فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٨ فى بلد أهله (كفر غنام) من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية . وكان والده حسين أفندى سالم هيكل كبير عائلته . ولا ندرى كم كان أبوه يملك من الأفدنة ولكننا نعلم أنه استطاع أن يوفد ابنه ليحصل العلم فى فرنسا بعد أن حصل على شهادة الليسانس من مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٩ . وقد تعيننا هذه الواقعة على تقرير أن حسين أفندى سالم هيكل كان ميسور الحال وكانت صلاته بالسيد باشا أبو على والد لطفى السيد ، دليلاً آخر على أن حظه من الثروة كان يؤهله لهذه الصداقة الحميمة

التى تعززها مصاهرة بعيدة ، فقد جرت العادة فى الريف على أن تقوم الصلات بين العائلات المتقاربة فى الثراء والوجاهة .

وقد سافر هيكل إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٩ وبقى فيها حتى سنة ١٩١٢ حين حصل على شهادة الدكتوراه فى القانون بعد أن وضع رسالته فى الدين المصرى العام .

ولما عاد إلى بلاده ، اشتغل بالمحاماة فى مكتب بالمنصورة ، حتى كانت ثورة سنة ١٩١٩ ثم كانت الفتنة التى فرقت المصريين إلى أحزاب فكان الوفد، وكان الأحرار الدستوريين ، الذين أصدروا جريدة السياسة فى ٢٠ من أكتوبر سنة ١٩٢٢ فأسندوا رياسة تحريرها إلى الدكتور محمد حسين هيكل ، وهو بعد دون الخامسة والثلاثين .

* * *

وقد روى لنا الدكتور هيكل قصة حياته بعامة وحياته السياسية بخاصة فى كتابه القيم ذى الجزئين الموسوم « بمذكرات فى السياسة المصرية » .

فذكر لنا أنه أتم دراسته العليا بعد حصوله على ليسانس الحقوق من مصر، فى جامعة باريس ، وأنه حصل على درجة الدكتوراه منها ، عن رسالة فى الدين المصرى العام ، ثم أقلته باخرة ، تعرف عليه فيها إثنان من الإنجليز ، وأن أحدهما قال له أن مصير مصر ، أن تصبح جزء من الإمبراطورية البريطانية كالهند فلما سمع ذلك هيكل غلبه الهم ، وشغله مستقبل بلاده ، وأحزنه أن تكون أمته عاجزة عن رد هذا العدوان الذى يبيته الإنجليز لها ، وأن تكون دولة تركيا التى كانت صاحبة الولاية الرسمية عليها فى مثل هذا العجز .

ولقد كنا نحب أن نعرف ماذا قال هيكل لهذا الإنجليزى ، ولكن لا بد

أنه لم يقل شيئاً ذا قيمة ، وإلا لأثبته فى هذا الموضع من كتابه . وهذا يرينا الفارق بين مصطفى كامل وبين زملائه فى نفس العصر ، فإن مصطفى كامل قابل على باخرة كالباخرة التى عاد بها هيكل من أوروبا شقيق كرومر ، فدار بينهما حديث دافع فيه مصطفى عن بلاده وعرض قضيتها متحمساً ، مؤمنا بأن واجب المصريين كان يقتضيهم ألا يدعو فرصة دون أن يسمعوا فيها أهل بريطانيا وأهل الغرب جميعا ، عبارات ضيقهم بالاحتلال ، وتمردهم عليه ، دون أن يستهين أحد بكلمة تصدر عنه إصغارا من شأنه أو من شأن هذه الكلمة .

وعرض لنا هيكل بعد ذلك للتيارات السياسية التى كانت تسود المسرح السياسى فى مصر بعد عودته من باريس . فقسم المصريين إلى ثلاثة طوائف :

طائفة شهدت عهد إسماعيل وبطشه وإسرافه ، وعانت ألوانا من ظلم الخديويين وأعوانهم الأتراك والشراكسة الذين كانوا يجلدون المصريين بالسياط لسبب وغير سبب . ثم الذين شهدوا عهد توفيق وضعفه ، ثم رأوا الاحتلال البريطانى ، الذى أعفاهم من السخرة والكرباج ، وساوى بينهم وبين غيرهم من الأتراك والشراكسة ، فطابت نفوسهم ، بقدر ما كان يتولاهم الفزع كلما خيل إليهم أن عهد الخديويين قد يعود . ولذلك فهؤلاء كان هواهم مع الإنجليز ، يكرهون الخديو عباس ، ويسرهم أن تضيق سلطته ، وأقصى أمانيهم أن يمنحهم الإنجليز دستورا يشركهم فى إدارة شئون بلادهم .

وطائفة لم تشهد عهد الخديوى إسماعيل ،ولا تذكر من مظالم الأتراك شيئا ، فقد كانت فى سنى طفولتها حينما ولى إسماعيل الحكم ، وكانت فى سن لا تميز فيه من شئون السياسة شيئا حينما وقع الاحتلال ، فلذلك هى ضيقة بالاحتلال ، لا تكره شيئا كما تكرهه ، ولا تتمنى شيئا كما تتمنى إجلاءه عن بلادها

لتكون بلادها حرة ومستقلة ، كغيرها من دول العالم الحرة المستقلة ، وكدول أوروبا بصفة خاصة .

أما الطائفة الثالثة فهى التى ترى أن سبيل إنقاذ مصر ، هى أن تقوم الجامعة الإسلامية ، فتضم دول العالم الإسلامى الواحدة إلى الأخرى ، وتشد بعضها أزر بعض ، ذلك لأن العالم الإسلامى رزىء بالاستعمار البريطانى ، الذى التهم دول المسلمين الواحدة بعد الأخرى ، وألا منقذ للمسلمين إلا أن تتجه أنظارهم لسلطان تركيا بوصفه خليفة المسلمين ، إلا أن يتحدوا تحت لوائه ، ليتخلصوا من هذا الهوان الذى يركبهم به الاستعمار .

أما الأوائل فيمثلهم لطفى السيد ، بينما يمثل الطائفة الثانية المناهضة للاستعمار البريطانى مصطفى كامل ، ويتزعم الطائفة الثالثة الشيخ على يوسف وتعبر عنها جريدته (المؤيد) . وإن كان مصطفى كامل يميل إلى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ميل على يوسف ، إلا أنه كان يأخذ على الشيخ على يوسف ضعفه أمام الإنجليز .

ويسترسل هيكل فى سرد أحداث تلك الحقبة ، فيحدثنا عن كتابى قاسم أمين « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » اللذين أساء الجمهور استقبالهما ، والذى اشترك فى الهجوم عليهما لواء مصطفى كامل ، كما أفسح للحملة عليهما المؤيد صفحاته مع أنه كان قد نشر كتاب تحرير المرأة فى جريدته فصولا متتابعة قبل أن يضم هذه الفصول كتاب ، وقد أغضبه أن يكون مصطفى كامل ضد قاسم أمين ، وأن يشارك فى الحملة على كتابه . كما أحزنه أن الخديو عباس حرم على « قاسم امين » أن يدخل السراى الملكية إظهاراً لغضبه عليه ثم يحدثنا هيكل ، عن الشيخ محمد عبده وحركته التجديدية التى تنكر أن باب الاجتهاد فى الإسلام قد قفل ، والتى تفسر ما أصاب العالم الإسلامى من هوان جعله لقمة

سائغة للاستعمار الأجنبى بالجمود العقلى الذى منى به المسلمين . ويذكر لنا أن حركة محمد عبده التجديدية ، لقيت من الخديو عباس ، ما لقيته دعوة قاسم التحررية .

فات هيكل أن سر حملة جريدة اللواء على قاسم أمين ومحمد عبده لم يكن للدعوة للتحررة التى دعى كل منهما إليها ، بل لصلة كل منهما بكرومر وصالون نازلى فاضل ذى الصلات الوثيقة ، برجال الوكالة البريطانية .

وقد ضربت لنا الجزائر مثلا رائعاً فى ثورتها التى بدأت فى أول نوفمبر ، سنة ١٩٥٤ ، فقد كان الحجاب—حجاب المرأة — شعاراً من شعارات الثورة، ومظهراً من مظاهرها ذلك لأن الفرنسيين بذلوا غاية الجهد (لفرنسة) الجزائر وللقضاء على خصائص المجتمع الجزائرى الإسلامى الأصيل ، فأبى الثوار الجزائريون ، إلا أن يتمسكوا بالحجاب ، لا حرصاً على التقاليد القديمة ولا إيماناً بالحجاب فى ذاته ، بل إظهاراً لمدى صلابة المجتمع الجزائرى أمام عوامل التفتيت والإغراء التى سلطها الفرنسيون عليه ، ولمدى مقاومته لكل أسلحة الغزو الفرنسى المادية والروحية .

ولو أردنا أن ننصف التاريخ المصرى ، لنعطى فى الوقت نفسه قاسم أمين ومحمد عبده كل حقهما بلا غمط ولا تحيف ، لقلنا أن الدعوة التى ألقى كل منهما بذورها ، لم تحقق شيئاً إلا بفعل الثورة السياسية المصرية ، وبفضلها ، وإن التقدم الاجتماعى هو الذى سار فى ركاب التقدم الوطنى ، وليس العكس . فإن كتاب قاسم أمين لم يغير فى المجتمع قليلا أو كثيراً ، ودعوة محمد عبده ، لم تغير فى عقول الأزهريين ولم تبدل ، إنما فعلت هـذا كله المعارك المتصلة مع الاستعمار ،ومنابر السياسةوخطب خطبائها التى حركت الجامد ، وأشعلت الخامد وأطلقت المقيد .

* * *

ثم يحدثنا « هيكل » عن مدى تسلط الموظفين الإنجليز على الأداة الحكومية المصرية، وكيف أن أصغر صغير من هؤلاء الموظفين كان فى مقدوره أن يفرض إرادته على كبار الموظفين المصريين ، وأن المفتش الإنجليزى إذا حل بمديرية ارتجت الدنيا وقامت وقعدت ، ودب الخوف إلى كل الموظفين بمافيهم المدير نفسه ، من أن يبدى المفتش ملاحظة ، يفقدمها منصبه ، أو يسوء لها مستقبله . وإن المستشار الإنجليزى كان الآمر الناهى فى الوزارة المصرية وإن الوزراء المصريين كانوا مجرد أختام يوقع بها الإنجليز على الأوراق ، لتبدو مصرية فى الظاهر . وقد ورد هنا حادثتين إحداها وقعت له شخصياً ، والثانية سمع بها ، ولا يدرى مدى صحتها .

أما الأولى فعن مدرس يدعى مستر سويفت ، كان يدرس له فى المدرسة الخديوية اللغة الإنجليزية ولما انتهت السنة الدراسية ذهب هيكل إلى بلدته فى الريف ، وجلس يوماً فى مضيفة جده ، فإذا به يرى نفسه فى ذلك اليوم أمام موظف بريطانى يركب جواداً يسأل عن العمدة ، وتتولى الدهشة (هيكل) حينما يتبين أن هذا الموظف البريطانى هو نفسه مدرسه مستر سويفت ، وأنه أصبح فى الأجازة الصيفية مفتش زراعة لأنه لم يسافر إلى بلده إنجلترا فى فترة الصيف .

وهيكل يروى هذا ليبين كيف أن الإنجليزى الذى كان يستورده الحكم الإستعمارى إلى مصر كان يصلح فى رأى هذا الاستعمار لكل عمل مهما كانت ثقافته . فهو يكون مدرسا فى مدرسة ، ثم مفتشا للرى ، أو للبوليس أو للزراعة أو خبيراً فى الميكانيكا أو فى المالية .

أما القصة الثانية فعن الوزير ابراهيم باشا فؤاد الذى كان وزيراً للعدل (الحقانية) ، والذى عرض عليه سكرتيره يوما أوراقا ليوقعها فسأل سكرتيره

عما إذا كان المستشار البريطانى للوزارة قد وقعها فلما أجابه سكرتيره (بنعم) أشار إلى ختمه الذى كان ملقى على مكتبه وقال :

عندك الوزير اختم به .

يحدثنا (هيكل) عن وزارة مصطفى فهمى التى فرضها اللورد كرومر على مصر ، ثلاثة عشر عاما « حسوما » ، ثم عن صهره سعد زغلول ، الذى كان رئيساً لمجلس الجامعة الأهلية ، التى كان قاسم أمين قد دعى إليها ضمن من دعوا إلى ذلك . والذى وقع عليه اختيار كرومر ليكون وزيرا للمعارف ، فاتهمه الوطنيون أن كرومر قصد من تعيينه على رأس وزارة المعارف أن يصرفه عن الاهتمام بالجامعة الأهلية ، وأن يؤيد دعوة (كرومر) إلى إنشاء كتاتيب فى المدن ، نشراً للتعليم الأولى ، وتفضيلا لهـذا اللون من التعليم عن التعليم الجامعى ، وأشار كذلك إلى أن سعد زغلول دافع عن التعليم بالإنجليزية ، فى المدارس المصرية ، بحجة أن العلم ومستكشفاته كلها كانت من عمل الأجانب ، وأن مصطلحاته أجنبية ، وأنه لكى ينقل التعليم إلى العربية يجب أولا إيفاد البعوث إلى أوروبا من الشبان المصريين حتى إذا أتموا تعليمهم عادوا إلى بلادهم ونقلوا كتب العلم الأجنبية إلى لغتهم .

ويأخذ هيكل فى التنقل بين ذكرياته عما جرى له أو فى بلاده قبل سفره إلى باريس سنة ١٩٠٩ ، وبعد سفره إليها وخلال إقامته فيها .

فحدثنا فيما حدثنا عنه عما رآه فى أوروبا من مظاهرات النساء المطالبات بحق الإنتخاب وقال : وكانت هذه الحركة تلقى مقاومة أعنف مقاومة من جانب كثيرين من رجال ونساء . وكان هؤلاء المعارضون يقولون أن مملكة المرأة هى المنزل ، وظيفتها الأولى تربية الجيل الناشىء » .

وكان مما ذكره هيكل ، من أحداث السياسة فى تلك الأيام ، الحادث

المعروف بحادث طابة ، الذى سلف إليه القول عند الكلام على لطفى السيد ، ولعلنا نذكر أن طابة كانت قرية تقع على مقربة من ميناء العقبة الواقع على البحر الأحمر ، وأن خلافاً قام بين البريطانيين والأتراك حول هذا الموقع . فالأتراك ادعوا أنه واقع داخل الحدود المصرية الخاضع لهم ، وقال الإنجليز أنه فى شبه جزيرة سيناء التابعة لمصر ، وأن صحف الحزب الوطنى خلافاً لما يقضى به المنطق الوطنى ، وقفوا فى صف الأتراك ، وضد الإنجليز مع أن الإنجليز كانوا يطالبون بموقع لمصر ، ويدفعون عن مصلحتها . وما يقوله هيكل صحيح بلا جدال ، ولكن الصحيح أيضاً أن الوقائع السياسية لا تنفصل عن ملابساتها ، ولا تفهم بعيدة عن الجو الذى وقعت فيه .

فالمصريون كانوا يرون أن يتخذوا من كل شيء تسوقه الأيام مناسبة للمظاهرة ضد الإنجليز ، مظاهرة تأييد تركيا التى كانت صلاتها التاريخية تقتضيها أن تتحرش بالاحتلال البريطانى ، وتعمل على إقصائه ، وقد كان الموقع الذى قامت من أجله المنازعة تافهاً ، بحيث لم يشعر المصريون أنهم سيفقدون شيئاً ذا خطر بسبب هذه المظاهرة أو فى سبيلها وبريطانيا قد التهمت بلادهم كلها ، وقضت على استقلالهم بحيث يبدو سخفاً غاية السخف ، أن تحرص على استخلاص موقع صغير لهم .

ولقد كان الإنجليز على إدراك تام ببواعث هذه المظاهرة ومراميها ولذلك كانوا شديدى الغيظ منها ، لأنها كشفت لهم ، وللمحافل الدولية مدى كره المصريين للإحتلال .

وحدثنا هيكل بعد ذلك عن المؤتمر الذى دعى إليه الحزب الوطنى فى باريس لإطلاع الرأى العام الأوروبى على حقائق الحركة الوطنية المصرية ، وقد رفض الفرنسيون التصريح بعقده الأمر الذى أدهش هيكل ، لأنه كان مأخوذاً بمظاهر

الحرية فى فرنسا ، بل أنه رأى فى الليلة الأولى لوصوله إلى باريس آيات الاحتفال بعيد ١٤ يوليه ، إذ وصلها عشية هذا العيد ، وفى اليوم التالى رأى هـذا العيد الباهر . ولـكن حكومة المسيو بريان ، إذعاناً لضغط من بريطانيا سحبت تصريحهـا بإقامة المؤتمر المصرى ، فاضطر محمد فريد أن يغير مكان المؤتمر من باريس إلى بروكسل . وكانت صحيفة (الجريدة) قد كلفت هيكل أن يوافيها بأنباء مؤتمر الحزب الوطنى ، فقام بالمهمة على وجه حسن ، أثار عرفان شباب الحزب بجميل هيكل . ولـكن (هيكل) لم ير فى الأمانة التى التزمها فى وصف مجريات المؤتمر ومناقشاته إلا واجبا وطنيا لايستحق عليه الشكر .

وينتقل هيكل إلى حادث مقتل بطرس غالى رئيس الوزراء المصرى فى سنة ١٩١٠ ، برصاصات الشاب ابراهيم ناصف الوردانى ، المنتسب إلى الحزب الوطنى . وكان نبأ هذا الاغتيال قد جاءه على لسان فرنسى يشتغل فى إحدى المدارس الثانوية . وكان يساكن (هيكل) فى بنسيون واحد . وقد أبى هذا المدرس إلا أن يعد هذا الاغتيال ثمرة التعصب الدينى فى مصر ، ولم يدخر هيكل كما لا يدخر جميع الطلبة المصريين فى الخارج وسعاً فى تبديد هـذا الاتهام الظالم الذى ينسب إلى المصريين تهمة التعصب ، وينسب إلى هذا التعصب حادث اغتيال أول رئيس وزراء قبطى .

والحق أنى لا أذكر هـذا الحادث إلا وأذكر معه موقفاً جليلا ورائعاً للمحامى المصرى نصيف المنقبادى ، فقد كان عند وقوع هذا الاغتيال يطلب العلم فى سويسرا ، فلم يتردد فى أن يوجه خطاباً إلى الصحف الأجنبية بوصفه مواطناً مصرياً من الأقباط يدافع فيه عن الوردانى ، ويدحض فى حماسة وإخلاص ، هـذه الفرية التى أرادت الدوائر الاستعمارية أن تشوه بها وجه الحركة الوطنية فى مصر .

ثم يحدثنا هيكل بعد ذلك كيف اجتمعت الجمعية المصرية فى فرنسا، بمناسبة عرض شركة قناة السويس على الحكومة المصرية مد إمتياز شركة قناة السويس مقابل أربعة ملايين من الجنيهات، وهو المشروع الذى كشف نبأه المستور محمد فريد رئيس الحزب الوطنى. وكان الدكتور عبد الحميد سعيد، الذى أوحى لهيكل بدعوة هذه الجمعية المصرية للاجتماع وتلقى الدعوة للاجتماع الطلبة المصريون للبعوثون إلى فرنسا من الحكومة المصرية، وكان منهم محمود عزمى، ومنصور فهمى، وسيد كامل، وتوفيق الساوى. وعبد الحميد سعيد، كان منذ شبابه نصيراً متحمساً للحزب الوطنى، حتى أصبح من كبار زعمائه ، ونائباً من أعلى نوابه صوتاً فى مجلس النواب. وقد كان رأى المبعوثين الحكوميين من الطلبة أنه لايجوز لهم الإشتغال بالسياسة وأن إبداء الرأى فى مد إمتياز قناة السويس اشتغال بالسياسة، ولم يكن هيكل موافقاً على هذا الوجه من النظر باعتبار أن السياسة المحرمة على الطلبة، هى السياسة الحزبية، أما إبداء الرأى فيما يخص الوطن كله، ومستقبل هذا الوطن، فأمر لا تستطيع القوانين أن تحرمه، ولكن عزمى وأخوانه لم يغيروا موقفهم خوف العقاب من وزارة المعارف المصرية، واجتمعت الجمعية المصرية، دون حضورهم، أو بعد انسحابهم وأصدرت قراراً إجماعياً برفض المشروع.

ثم حان الوقت الذى يعد فيه هيكل رسالة الدكتوراه، وكان قد مال أول الأمر إلى اختيار موضوع تشريع العمل والعمال فى مصر، ولما عاد إلى مصر، وأخذ يستقى المعلومات بشأن هذا الموضوع من المحامين وأساتذة القانون، لم يجد المادة التى تكفى الرسالة، إذ اقتصر تشريع العمل والعمال فى ذلك الوقت على بعض لوائح تنظم العمل فى محالج القطن، فعدل عن هذا الموضوع، إلى الدين المصرى العام وقد عرضه على أستاذه (لارفور)، وقد حشد قواه لهذه الرسالة، فقرأ كل ما كتب عن مصر من عهد محمد على، بالفرنسية والإنجليزية،

بل رجع إلى ما كتبه ابن اياس والجبرتى ، وراجع الوثائق الرسمية المصرية والتركية فى قاموس الإدارة (لجلاد) . وقد كانت هذه الدراسة شيئاً ممتعاً أقبل عليه فى شغف فكان يعمل فى الرسالة منذ السابعة صباحا،فيقضى فى مكتبه بحجرته بالبنسيون ساعتين ، ثم ينطلق إلى المكتبة الأهلية العامة ، حتى موعد الغداء فى الظهيرة ، ثم يستأنف عمله فى المساء بحجرته بعد أن يتناول فى مقهى فنجاناً من القهوة ، ويستمع خلال ذلك إلى شىء من الموسيقى . وأنى لأتصور فى يسر كيف تكون حماسة شاب مصرى ، بعيد عن الوطن،وهو يرى صفحات من تاريخ وطنه ، تتجلى له ، صفحة بعد صفحة ، ولذلك فإنى أشعر بنبرة الصدق حينما قال هيكل عن هذه الدراسات :

« وقد أعانى على ذلك حب عميق لهذا الوطن ، وحرص على الحقيقة العلمية المجردة من الأهواء والشهوات يضاف إلى ذلك زهو شاب يريد أن يجيد كل الإجادة وأن يتقن غاية الإتقان » .

وتجد فى مذكرات هيكل ، ماوجدناه فى قصة حياة سلامه موسى من آيات الإعجاب الشديد بريف فرنسا ، وبالريف فى أوروبا عموماً ، وبنظافته وأناقته وجمال الحياة فيه ، ومن الحزن لما تثيره المقارنة بين هذا الريف الجميل ، وبين ريفنا القائم الكالح ، الذى تسوده الكآبة والفقر .

ثم يعود هيكل إلى السياسة فيقف بنا أمام حرب طرابلس التى شنتها إيطاليا على هذا الوطن العربى المجاور لنا ، والملاصق لحدودنا ، فى سنة ١٩١١ . فنعرف من كلام هيكل أن كتشنر ممثل بريطانيا أعلن أن إيطاليا معتدية على تركيا ، بمحاولة غزوها لطرابلس ، فكان ذلك منه تشجيعاً لحملة جمع تبرعات لمعاونة تركيا وجيوش تركيا فى الدفاع عن طرابلس ، فاستجاب المصريون لهذه الحملة حتى أن الأمير عمر طوسون ذهب إلى المنصورة لجمع فى أقل من نصف

ساعة مائة ألف جنيه عدا ستة آلاف جنيه من الذهب ، ولكن لم تزد معاونة المصريين للأتراك والليبيين عن ذلك ، فيما عدا تطوع بعض الشبان المصريين فى هذا الحرب وكان من هؤلاء صالح حرب ، كما تطوع بعض الأطباء وكان منهم حافظ عفيفى وسيد شكرى ، وكان للضابط المصرى ، عزيز على ، دور عظيم فى هــــذه الحرب فقد قاد الليبيين فى معارك باهرة أنزل فيها بالطليان خسائر فادحة . وفى هذه الآونة بدا للطفى السيد أن ينبه المصريين إلى ماسماه سياسة المنافع ويدعوهم إلى نبذ سياسة العواطف ، وقد ذهب إلى القول بأنه لامصلحة للمصريين فى هذه الحرب . ذلك لأن تركيا كانت طرفا فى هذه الحرب، وكانت تركيا ، بمثابة (العفريت) الذى لايظهر للطفى السيد فى مكان أو فى مسألة حتى يذهل عن كل الحقائق .

وقد ذهل فعلا عن أن مصلحة مصر ، تقضى وهى تحارب — الإحتلال البريطانى — ألا تقوم على أرض متصلة بها إتصالا وثيقــــاً ، قوى استعمارية أوروبية جديدة — وأن المعركة فى شمال أفريقيا ، والشرق الأوسط والأدنى ، ضد الاستعمار الأوروبى ، هى معركة واحدة . هذا كله إذا نحينا جانبا الصلات التى تربط بين الليبيين والمصريين كعرب وكمسلمين . ولذلك كانت محــاولة لطفى السيد فى أن يبشر بفلسفة سياسية جديدة فى هذه المناسبة ، محاولة مقضياً عليها بالاخفاق ، لم تنفع فيها كل سفسطة .

وأتم هيكل رسالته وحصل على الدكتوراه ، وافتتح مكتباً للمحاماة فى المنصورة ، وليس لدينا مايعيننا على الحكم على مدى نجاحه أو فشله فى المحاماة خلال عشر سنوات تمتد مابين سنة ١٩١٢ حتى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ حينما ولى شأن السياسة . ولكن يبدو من خلو مذكراته عن أى شىء عن هذه الحقبة، وكأنها كانت فراغاً ، أن (هيكل) لم يتعلق بالمحاماه ، ولم تظفر من قلبه بحب كبير .

وكل ذكرياته عن هذه الحقبة تكاد تكون سياسية ، فهو يتحدث عن ابراهيم الهلباوى المحامى ، الذى كان يرسل إلى هيكل ، كلما كانت له قضية فى المنصورة ، ليستقبله المحامى الشاب ، ثم يستمع إلى حديثه العذب ، وهو يروى ذكريات حياته الحافلة بالنشاط السياسى منذ ساهم فى الثورة العرابية ويذكر فى هذا الموضع أن الهلباوى أراد أن يرشح نفسه للجمعية التشريعيــــة التى دارت الانتخابات لها فى سنة ١٩١٣ وكان الهلباوى يعقد على خوض هذه الانتخابات الأمل فى تبرئة نفسه أمام الرأى العام مما أدانه به هذا الرأى العام لقيامه بدور المدعى العام فى قضية دنشواى وكان عبد الرحمن الرافعى وحسن حسنى المحاميان يؤيدان الهلباوى فى عزمه على ترشيح نفسه ، ولكن (هيكل) نصحه بالرأى المضاد ، قائلا: إن قضية دنشواى لم تكن قضية عادية يدافع هلباوى بك عن موقفه فيها بأنه أدى واجب المحامى ، بل كانت قضية بين مصر و إنجلترا . وقد وقف فيها الهلباوى فى صف إنجلترا فمن الخير أن نترك الزمن يسدل على هذا الموقف ستار النسيــان ، وصمت الهلباوى فلم يعلق على هذا الرأى بشىء ، وانتقل إلى حــديث آخر وتبسط فيه ، ولما قام من المجلس صافح (هيكل) كأن لم يسمع منه شيئاً يضايقه ، ولكنه عدل عن ترشيح نفسه للجمعية التشريعية .

ويروى لنا (هيكل) كيف أحرج السيد باشا أبو على والد لطفى السيد حينما أبدى الخديو رغبته فى زيارته بعزبته فى الدقهلية ، وأنه رأى من واجبه أن يساعد السيد باشا فى تدبير ما تحتاج إليه هذه الزيارة من الاستعدادات بحكم المصاهرة التى بين العائلتين ، فوضع رجال مكتبه للمحاماة للمنصورة فى خدمة هـــذه الاستعدادات . وأعانه فى إقامة السرادقات وطبع الدعوات . وفى يوم الزيارة وصل الخديو ، واصطف الأعيان على باب ديوان المديرية ، ومر هيكل على هذا الباب ، فى طريقه إلى عمل من أعماله ، فوجد بين الواقفــين لطفى السيد الذى استوقفه وعرض عليه أن يقدمه للخديو — وقال له أن الخديو سيسره أن يرى

هيكل ، ولكن هيكل رفض هذا العرض قائلا للطفى السيد أنه علم تلاميذه مالا يجعلهم يقبلون هذا العرض ، أو يحرصون على التقدم للخديو ، فلم يصر لطفى على دعوته وا كتفى بالقول : نحن لم نتغير وإنما الذى تغير هو الخديو » انصرف هيكل إلى حال سبيله . وجاء موعد سفر الخديو إلى استانبول، كعادته فى صيف كل عام ، فسافر وهو سعيد بما لقيه فى رحلاته وزياراته فى الريف من حسن استقبال الأعيان والبلاد له ، والتفاف المواطنين حوله ، ولكن بدد هذه السعادة أن أطلق عليه وهو فى استانبول أحد الشبان المصريين رصاصات من مسدسه ، كادت تودى بحياته ، ولكنه نجا منها بأعجوبة ، بيد أن نيران الحرب العالمية ، لم تلبث أن شبت فاقتلعته من عرشه ، وحالت بينه وبين العودة إلى مصر .

* * *

وأعلنت الحرب العالمية ، وقرأ (هيكل) فى جريدة المقطم مقالات بعنوان « أهل مصر والتغيير المنتظر » تروج فيه لفكرة غاية فى الجرأة والخبث معاً مؤداها أنه إن لم يكن استقلال مصر ممكناً ، وكان لابد من أجنبى يحكمها الإنجليز خير الحاكمين . وكانت دعوة من هذا القبيل طبيعية من جريدة المقطم لم يخف أصحابها أنهم يعملون لحساب الإنجليز، ولكن الذى لم يطق عليه (هيكل) صبراً أن (الجريدة) كانت تروج لنفس الفكرة ولكن على استحياء ، فذهب (هيكل) مغضباً إلى لطفى السيد ولامه على ذلك المنهج ، وطلب منه أن يسمح له بالرد على هذه المقالات ، فإن لم يأذن بذلك كان حراً فى كتابة رأيه فى صحف أخرى ، واصطنع لطفى السيد الحلم مع هيكل ، وطلب منه أن يصبر بحجة أن رشدى رئيس الوزراء يحادث الإنجليز فى أن يعلن هؤلاء بأنهم يتعهدون بمنح مصر استقلالها عند انتهاء الحرب ، على أن تقف مصر مقابل ذلك مع بريطانيا فى الحرب ، وتعينها فيها ولم يرض (هيكل) عن هذا المنطق لأنه يعلق استقلال

مصر على انتصار بريطانيا فى الحرب ، وهو أمر لايمكن ضمانه ، فضلا عن أن بريطانيا لن تغير من وضع مصر السياسى إلا إذا دخلت تركيا الحرب فى صف ألمانيا ، وهو أمر وإن كان محتملا إلا أنه ليس محققاً ، ولكن نجح لطفى السيد فى إقناع هيكل بالصبر أسبوعين فقط ، ومضى الأسبوعان ، ولم تسفر الحادثات بين رشدى والإنجليز عن شىء ذى قيمة ، وهى الحادثات التى كان يعلق عليها لطفى السيد آماله ، ولم يجد (هيكل) سبيلا للتنفيس عن ضيقه مما تنشره جريدة (المقطم) سوى كتابة مقالات يحلل فيها دوافع بريطانيا إلى الحرب ويردها إلى التنافس الإقتصادى بينها وبين ألمانيا ، وقد صبرت الرقابة العسكرية على هذه المقالات التى بلغت ستا على مضض ، فلما دخلت تركيا الحرب فى صف ألمانيا ، اشتدت الرقابة البريطانية على الصحف ، فهجر لطفى السيد مكانه فى الجريدة وحل الأستاذ عبد الحميد حمدى مكانه فى رياسة التحرير ، وانطلقت يد (هيكل) فى الكتابة ، بعد أن لم يعد ثمة من يمنعه عن التعبير عن رأيه بحجة أو بأخرى ، وكتب مقاله الذى تمنى أن ينشر منذ دخلت بريطانيا الحرب ، والذى أراد أن يرد فيه على فكرة المقطم الخبيثة التى تحسن للمصريين الإحتلال البريطانى ، وتزين لهم الخضوع للانجليز ، وتفضيلهم على غيرهم من الدول الاستعمارية ، ولكن الرقابة منعت نشر المقال كله ، فخرجت الجريدة ، وليس فيها من المقال سوى عنوانه والإمضاء ، إلا أن الأستاذ عبد الحميد حمدى تلقى من الرقابة لوما لأنه فعل ذلك ، ونبه عليه ألا يعود إلى مثله ، فإن حذفت الرقابة شيئاً وجب أن يملأ فراغه بمقال سواه ترضى عنه الرقابة وتقره .

ويحدثنا هيكل بعد ذلك عن حملة السويس التى طال حديث الأتراك عنها وطال ارتقاب المصريين لها وكان الأتراك قد أذاعوا أنهم يدبرونها لغزو مصر من ناحية قناة السويس ، وأنهم أسندوا قيادتها إلى كبير من قادتهم هو جمال باشا الذى عرفه العرب باسم السفاح لكثرة ماقتل أحرار العرب الداعين إلى

الإستقلال وإلى القومية العربية . وقد علق المصريون على هذه الحملة الأمل فى طرد الإنجليز من مصر ، وإعادتها إليهم ، وتأييد ثورتهم التى سيقومون بها عندما تتخطى الحملة القناة وعلق الأتراك من جانبهم الأمل على للصريين أن يثوروا على الإحتلال البريطانى حينما تصل طلائع الحملة إلى الشاطىء الشرقى من القناة ، فيسهلون بذلك للحملة غزو مصر .

ولكن المصريين لم يثوروا ، والأتراك لم يتخطوا القناة إلى مصر .

والواقع أن أبسط دراسة لتاريخ الثورات الوطنية ضد الغاصبين والمحتلين، تؤكد أنه لابد من تنظيم طويل ، وإعداد مدروس ، وأحياناً معونة خارجية . فحركات « تحت الأرض » التى وقعت ضد الإحتلال الألمانى فى كل أوروبا ، كانت مدروسة ومعداً لها وكانت تلقى من الإنجليز والأمريكان ، عوناً ضخماً .

وقد ضربت الحركة الوطنية ضربة كبيرة بخروج فريد رئيس الحزب الوطنى من مصر ، قبل الحرب العالمية بسنتين وكان زعماء الحزب الوطنى من الشبان الصغار، فلما دهمتهم الحرب ، وضعوا جميعا فى المعتقلات كما نفى عدد غير قليل منهم إلى مالطة وكان الزعماء الباقون فى مصر من طراز لطفى السيد وسعد زغلول ورشدى المؤمنين بعدل بريطانيا ، فلما انتهت الحرب ، وعاد العمال من المعسكرات التى سيقوا إليها فى فلسطين ، وأفرج عن بعض المعتقلين ، وشعرت الحكومة بأن مسئوليتها التاريخية تقتضيها الدفاع عن نفسها ورد تهمة التفريط بحقوق مصر ، وصونها ، وممالأتها لبريطانيا ممالأة طالت أوعزت للعمد والمديرين بتأييد الوفد، وبالإهتمام بجمع التوكيلات له فنشطت الحركة الوطنية وكان هذا الإنفجار الرائع .

* * *

وبعد أن أعلنت تركيا الحرب فى صف ألمانيا ، اشتدت قبضة بريطانيا

فنفت من مصر الكثيرين ، وكان من بين من نفتهم أحمد شوقى أمير الشعراء

ولما لم يكن متاحاً لهيكل أن يكتب فى السياسة ، فقد اتفق مع زملائه منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وطه حسين من جهة وعبد الحميد حمدى صاحب مجلة السفور من جهة أخرى أن يكتبوا فى مجلته بغير مقابل ، على أن يتناوبوا الكتابة أسبوعياً ، فمن تخلف عن الكتابة دفع تعويضاً مالياً لصاحب المجلة وقد كتب هيكل فيها كثيراً ، كما كتب زملاؤه فيها وكان من بين ما نشر فيها فى تلك الآونة مقالا لطه حسين وقعه بإمضاء (تاسيت) ذهب فيه إلى أن الحروب هى التى تفتح السبيل للحضارة، وتنقل بذورها من بلد إلى بلد، وقال له إنه كتب هذا المقال ، ليكون موضوع مناظرة بينه وبين هيكل ، يدافع فيها هيكل عن الرأى المعارض ، فينكر على الحرب أى فضل وعلى الرغم من أن المناظرة كانت باتفاق طرفيها ، وأن الغرض من عقدها كان إثارة اهتمام القراء ، إلا أن وطيس المناقشة مالبث أن حمى ، وعنف ، ويبدو أنه ترك فى نفوس كليهما شيئاً من المرارة ، إلا أن صداقتهما ثبتت لهذا الإمتحان ، فلم تضعف ، ولعل سفر طه حسين فى تلك الأيام ، كان خير حل للخروج من ورطة هذه المناظرة .

وفى سنة ١٩١٧ كتب هيكل عدة فصول فلسفية عن (القدرية والجبرية) فى المقتطف ، ثم ترجم بحثاً عن البوذية ، ثم بدأ يكتب الجزء الأول من كتابه عن جان جاك روسو ويقول هيكل عن هذه الفترة من حياته :

« وأنى إذ أرجع اليوم إلى ذلك العهد ، عهد الحرب الأولى ، وعهد الشباب الباكر حين لم أكن بلغت الثامنة والعشرين — ترتسم على ثغرى

ابتسامة الرضا عن ذلك الزمن ، والأسف إن لم يكن لى مثل ما كان لى فيه من نشاط متصل وإنتاج وفير » .

* * *

ووضعت الحرب أوزارها ، وتألف وفد برياسة سعد زغلول ، وألف هيكل وزملاؤه منصور فهمى ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وعزيز ميرهم الحزب الديموقراطى ، وكان هيكل فى هذا الحزب من المؤمنين بالحرية الفردية والداعين إليها ، بينما كان عزيز ميرهم مؤمناً بالاشتراكية التى ترى أن الحرية الفردية وهم، ما لم تعززها الإشتراكية التى تعتمد على ملكية الدولة لمصادر الثورة القومية ، وكاد يختلف هيكل وميرهم ويتفرق الحزب لخلافهما لولا أن مصطفى عبد الرازق بذل جهده ليجمع بينهما فسأل (هيكل) أتضن على الفقراء أن يتعلموا وأن ينالوا حظهم من العلاج ، وأن يعيشوا عيشاً إنسانيا فأجاب هيكل (لا) ثم اتجه إلى ميرهم فقال له : أتنوى العمل على إلغاء الملكية الفردية فوراً فقال ميرهم لا ، فقال مصطفى : إذن بينكما مجال فسيح ، للعمل المشترك سنين طويلة ، حتى إذا حققنا هذا العمل المشترك ، متحدين ، دعونا الحزب ، وقررنا ماذا نعمل بعده . وبهذا التوفيق بقى الحزب ، وإن لم يفعل شيئاً . فقد فكر بعض أعضائه فى أن يطلبوا من الوفد المصرى أن يضم إليه مندوباً عن الحزب الديموقراطى ، فلم يكترث أحد لطلبهم ووقع الخلاف بين سعد وعدلى ، وعلى أيهما يتولى رياسة الوفد الذى يفاوض الإنجليز وكان عدلى يرى نفسه أحق بهذه الرياسة لكونه رئيس الحكومة وصاحب الصفة الرسمية ، وكان سعد يرى نفسه أولى بها لأنه ممثل الشعب ، ووكيله . فأرسل ميرهم تلغرافاً إلى سعد يؤيده ، دون أن يستأذن زملاءه أعضاء الحزب ، ولما عاد سعد من أوربا فى سنة ١٩٢١ ، وذهب هيكل وزملاؤه أعضاء ،

الحزب الديموقراطى إلى سعد يتحدثون فى شئون الوطن ، سأل سعد (هيكل) أترون أن تكون الرياسة لى ، فأجاب هيكل بل أرى أن تكون الرياسة لعدلى رئيس الحكومة فأظهر سعد عجبه من هذا ، لأنه تلقى برقية من ميرهم سكرتير الحزب برقية على عكس هذا الرأى ، وبحثوا عن عزيز ميرهم ، فإذا هو قد اختفى ، وإذا زملاؤه يقولون (أنه فص ملح وداب) وبقوا زمناً يداعبونه بهذا المثل العامى .

ولا نكاد نسمع عن هيكل بعد ذلك عن هذا الحزب شيئاً يذكر ، فقد انضم عزيز ميرهم بعد ذلك إلى الوفد ، واختير عضواً فى مجلس الشيوخ ممثلا للوفد ، وأخيراً هيكل رئيسا لتحرير جريدة السياسة لسان حال الأحرار الدستوريين واشتغل فيه عزمى كاتبا ، ونأى مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى عن العمل السياسى .

وقد جاء فى مقدمة قانون الحزب عن مبادىء الحزب :

مبادىء هذا الحزب تقوم على أساس المساواة بين الأمم والإخاء بين الأفراد والنهوض إلى أسمى ما يتصور من الرقى ، وتأييد « سيادة الشعب » . وإقامة العدل تقام القوة ، تلك هى أصول الديموقراطية التى أخذت تعم العالم جميعا بما نصرته الحرب الحاضرة من مبادىء الحرية والعدالة . وما كان لمصر أن تكون بمعزل عن هذا التيار المبارك ، وقد مهدتها الطبيعة للمساواة بين سكانها مساواة مناسبة مع انبساط أرضها وتجانس أهلها » .

ويروى لنا هيكل فى سطور حارة جميلة كيف دبت الحياة فى الحركة الوطنية ، لما اعتقل الإنجليز سعد ومحمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقى، وكيف خرج الشعب عن بكرة أبيه متحدياً السلطة ، لا فى العاصمة وحدها

بل فى مصر من أدناها إلى أقصاها ، وكيف أسرف الإنجليز فى البطش ، فلم يضعف المصريون لهذا البطش ، بل زادوا إصراراً واستماتة . وكيف خرجت النساء من خدورهن ليتظاهرن ويهتفن .

ولعل أهم ما جاء فى هذا الموضع من مذكراته ما سجله عن الحديث الذى دار بينه وبين لطفى السيد — والذى أشرنا إليه فى مكان آخر من هذا الكتاب — عن الخطة التى ينتوى الوفد أن ينتهجها فيما لو لم يكتب له التوفيق فى مسعاه بعرض قضية البلاد فى مؤتمر فرساى ، فقد أعلن له لطفى السيد ، إن الخطوة التالية عند تحقق هذا الاخفاق أن يسافر عدلى ورشدى إلى لندن ليفاوضوا الإنجليز فى تنظيم علاقة مصر ببريطانيا فى نطاق الحماية على أن تمنح بريطانيا المصريين حكما دستوريا .

ويقول (هيكل) إن السلطة البريطانية المحلية فى مصر ، اصطنعت القوة مع الوفد ، حينما أعلن زعماؤه أنهم راغبون فى السفر إلى باريس لعرض قضية البلاد على مؤتمر فرساى ، مع أن اللجوء إلى القوة لم يكن له مبرر .

وقد دفع عنف الإنجليز وبطشهم ، الأحداث دفعاً لم يكن للزعماء يد فيه ، بل لعله لم يخطر لهم على بال وقد بدأت تلك الأحداث تتطور لما استقال رشدى من الوزارة ، حينما رفضت السلطات البريطانية أن تأذن للوفد للمصرى بالسفر إلى فرنسا ، فقد ثقل عليه — كما قلنا — شعوره بالتفريط حينما أحسن الظن بالإنجليز إحساناً تضامن بسببه مع الإنجليز فى مجهودهم الحربى طول مدة الحرب ، تضامناً إستباحوا فى ظله أرزاق المصريين وحرياتهم ، وأرهقوهم من أمرهم عسراً .

ويصور لنا هيكل كيف استبدلت بريطانيا بالسير ونجت ، اللورد اللنبى فاتح القدس ، الذى جاء معلناً أنه يريد أن يفتح صفحة جديدة فى علاقات بلاده

بمصر . وجعل عربون هذه السياسة الجديدة ، إطلاق سراح الزعماء الأربعة من معتقلهم فى مالطة ، بعد مدة كادت تبلغ شهراً ، ففرح المصريون واعتبروا هذا الإفراج انتصاراً لهم ، غير أن فرحة المصريون لم تطل ،فإن ولسن صاحب المبادىء الأربعة عشر ، أعلن اعترافه بالحماية البريطانية على مصر ، بغير مقتض ولا ضرورة ، فكانت تلك الخيانة الذميمة ، دليلا على أنه أصغر بكثير من الرسالة التى رفع لواءها ، والتى جعلته فى قلوب الناس أقرب مايكون من أنبياء السماء ، ودليلا على أنه سياسى ضئيل ، لوح للناس بأمل زائف ، ولما عاد إلى بلاده لم يجد إلا الخيبة السياسية ، جزاء خيبته الروحية ، وخيانته لمبادئه . وأسقط فى يد الوفد المصرى لاعلان اعتراف ولسن بالحماية ، وتوالت بعد ذلك المعاهدات التى يبرمها الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) المنتصرون مع الدول المهزومة (ألمانيا والنمسا وتركيا) والتى ينص فى كل منها على حدة على أن مصر مشمولة بالحماية البريطانية ، وبقى الزعماء فى باريس لا يفعلون شيئا ، والشعب يعقد الآمال عليهم، ولم يخرجهم من هذه الورطة إلا أن بريطانيا فكرت فى أن توفد لجنة برياسة أحد ساستها (اللورملنر) إلى مصر ، ليبحث فى أسباب الثورة .فقد كان إيفاد هذه اللجنة تحريكا للموقف الجامد ، ثم زاد الموقف حركة حينما دعى مصرى مجهول فى مقال نشرته جريدة (النظام) المصريين إلى مقاطعة لجنة ملنر ، فوجد الشبان فى هذه المقاطعة مجالا لنشاطهم ، ووجد الشعب فى نجاح هذه المقاطعة إعلاناً عن وحدة الشعب ، وحسن تنظيمه . ونجحت المقاطعة ، وعادت لجنة ملنر دون أن توفق فى الاتصال بأحد ذى قيمة فى مصر .

وقد كشف لنا هيكل عن ناحية من تفكير المصريين السياسى فى تلك الحقبة ، حينما حدثنا عن (الرابطة الشرقية) التى ألفها نقيب الأشراف عبد الحميد البكرى وكان من أعضائها منصور فهمى زميل هيكل فى الدراسة وفى الحزب الديموقراطى ، وقد دعى منصور صديقه هيكل إلى الانضمام إليها ،

فاعتذر عن ذلك بقوله لأننى أرى من التفاوت بين مصر وبين هذه البلاد الشرقية ، فى ثقافتها وفى لغاتها وفى مقوماتها القومية ، ما قد يصرفنا نحن المصريين عن تركيز جهودنا فى قضية وطننا ، وما يدعونا لحمل عبء لا طاقة لنا به ، وبذلك يضيع جهد ما أحوج مصر إليه » .

أما الرابطة الشرقية نفسها فقد كانت رابطة بين جماعة من الأعيان والتجار ، لا قبل لهم بعمل سياسى ، فاعتذار (هيكل) عن الانضمام إليها كان خيراً ، ولكن السبب الذى ساقه لهذا الاعتذار ، فهو دليل على عدم نضج التفكير السياسى فى مصر فى تلك الآونة . فإن إقامة علاقات بين الحركات الوطنية فى مصر والدول الشرقية كالهند ، والدول العربية كسوريا والعراق ، أمر كان من أوجب الأمور ، لأن إيجاد شىء من التعاون والتنسيق بين هذه الحركات ، يضفى عليها جميعها قوة ، تحمل المستعمرين على أن يحسب لكل حركة وطنية حساباً باعتبارها جزء من كل ، وهو فى الوقت نفسه نافع إذ يجعل تجربة كل حركة فى خدمة الحركات الأخرى .

* * *

واسترسل (هيكل) فى سرد الوقائع التى تلت عودة لجنة ملنر من مصر إلى لندن . ويقول إن بعض أعضاء الوفد استدعى عدلى يكن ، ليتوسط بين الوفد وبين الحكومة البريطانية ، تمهيداً لإجراء مفاوضات بين الطرفين ، وأنه نجح فى ذلك ، وأن أعضاء الوفد الذين كانوا قد أقاموا طويلا فى باريس جاءوا أفواجاً إلى لندن حيث دارت المفاوضات بينهم وبين لجنة بريطانية يرأسها ملنر ، وأن عدلى لم يشارك فى هذه المفاوضات ، إنما بقى إلى جانب الوفد مقدماً المعونة كلما مرت المفاوضات فى أزمة ، وانتهت تلك المفاوضات إلى مشروع لم يجرؤ سعد وزملاؤه على تحمل تبعة قبوله ، ورؤى أن يعود الوفد

إلى الأمة وأن يعرض عليها للشروع وأوفد الوفد لهذا الغرض أربعة من أعضائه. وناقشت الصحف، وكل صاحب رأى قانونى هذا المشروع، وكان الاتجاه الغالب عند الأمة هو رفض المشروع. غير أن (عدلى يكن) استطاع أن يكسب ثقة عدد غير قليل من أعضاء الوفد، بعد أن كانوا لا يحسنون الظن به، فباتوا يرون أنه رجل يحترم الآخرين ويستمع إلى رأى غيره، ويقتنع به إن بدت له وجاهته، وأن (سعد زغلول) خشى أن يستميل عدلى أعضاء الوفد وأن يفقد سيطرته عليهم، وبالتالى زعامته على الشعب، فأوعز إلى من أرسل (برقية) إلى جريدة الأخبار وكانت أكبر الجرائد الموالية للوفد تقول إن وجود عدلى إلى جانب الوفد كارثة. فبدا أن وحدة الوفد مهددة بالتصدع، وإن عولج أمر تلك البرقية إلى حين وفى هذه الأثناء أعلنت الحكومة البريطانية أن الحماية على مصر لم تعد علاقة مرضية بين مصر وبريطانيا وأنها مستعدة للتفاوض مع وزارة يؤلفها السلطان خصيصاً لهذا الغرض، فأسند السلطان تشكيل هذه الوزاره إلى عدلى، وبدا أن عدلى يريد أن يتولى هو المفاوضة على رأس وفد يؤلفه، وأن تجرى هذه المفاوضة تحت إشراف الوفد ورقابته، وكان الظن أن أعضاء الوفد الذين كانوا قد عادوا إلى مصر، سيرجعون إلى باريس، ليتكامل الوفد هناك، ثم يبقى فى أوروبا ليراقب سير المفاوضات إلا أن (سعد زغلول) عاد إلى مصر فى ٩ من أبريل سنة ١٩٢١ بعد سنتين من نفيه إلى مالطة فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩، فاستقبل استقبال الفاتحين، وكانت الوزارة وعلى رأسها عدلى يكن فى استقباله بمحطة مصر، ولكن موضوع تشكيل الوفد المفاوض لم يلبث أن فتح وفتح معه باب للشر إذ صمم كل من عدلى وسعد على رأيه. عدلى يرى أن يرأس الوفد المفاوض، وسعد يرى أن الرياسة من حقه بلا منازع، وفى ٢٨ من أبريل سنة ١٩٢١ ألقى سعد فى شبرا خطاباً وصف فيه عدلى وزملاءه ببرادع الإنجليز وانقسم المصريون إلى سعديين، وعدليين.

فكان أن تفتت وحدة الشعب ، وبدل أن تتوجه الضربات إلى الإنجليز ، وجه المصريون الضربات بعضهم لبعض ، وتفتقت حيلة الإنجليز عن أن يعلنوا فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تصريحاً — يعترفون فيه باستقلال زائف لمصر ، يحتفظون معه باحتلالهم للبلاد ، — وبمواصلاتهم البريطانية عبر قناة السويس ، وبالسودان وبحماية الأقليات والأجانب ، أى بكل ما كان لهم فى ظل الحماية باستثناء تحول لقب حاكم مصر من سلطان إلى ملك ، وبإجازة اصدار دستور للبلاد ، وأن تجرى بها إنتخابات ، وقد جرت الإنتخابات فعلا ، فأصبحت هذه اللعبة الجديدة ، لعبة الإنتخابات ، مع لعبة المفاوضات ، هى الوسيلة للعبث بالحركة الوطنية ، وإطفاء شعلتها ، وقد فرحت الأحزاب بها ، فبقيت تدور فى محيطها حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ويحس القارىء كم كان هيكل سعيداً بعمله فى لجنة الدستور التى ألفتها وزارة ثروت باشا التى وليت الحكم بعد استقالة وزارة عدلى باشا ، وبالمناقشات التى دارت فيها ، وبالمبادىء التى أرستها هذه اللجنة .

كما كان سعيداً برياسة حسين رشدى باشا لهذه اللجنة ، وبما أظهره من كفاية فى المناقشات وكياسة فى إدارة الجلسات ، ظهرت فى التأجيل حينما يحتدم الجدل وتكفهر سماء اللجنة ، وفى إقناع الأعضاء خارج الجلسات مما دفع بالعمل كثيراً. أما الجهد الذى بذله عبدالعزيز فهمى فى المناقشات وصياغة النصوص ، وبالروح التى كانت تسود أقواله فى اللجنة ، وهى روح الذود عن الحرية الفردية ، فلم يكن ثمة مجال فوقه عند هيكل لمزيد من الإعجاب .

فقد كانت أعمال لجنة الدستور والبحوث التى شارك فيها هيكل فرصة أسعدته وأسعده ماشمله به رئيسها من العطف ، مع أنه لم يكن قد عرفه من قبل ، حتى سأل عنه حينما وقع عليه نظره لأول مرة . فلما قيل له إنه الدكتور هيكل قال له : (هو أنت الدكتور هيكل ؟)

ويقول هيكل أن لجنة الدستور أحست بأن الملك بدأ يضيق بها ، وأنه يريد أن يتخلص منها ومن وزارة ثروت التى ألفتها ، فاستحثت خطاها فى العمل ، وأكثرت من جلساتها ، حتى فرغت من الدستور ومن قانون الإنتخاب وقدمته لثروت الذى وعد بأن يصدر الدستور كما وضعته اللجنة . إلا أن الإنجليز اعترضوا على نصين فى الدستور خاصين بالسودان أولهما ماجاء فيه من أن لقب الملك ، هو ملك مصر والسودان ، والثانى ماورد فيه من أنه وإن كان السودان جزء من مصر إلا أن أحكامه لاتسرى إلا على مصر وحدها وأن نظام الحكم فى السودان يتقرر بقانون . وكان الإنجليز يطلبون أن يكون لقب الملك هو ملك مصر ، وأن ينص فى الدستور على أن نظام الحكم فى السودان يتقرر بعد الإتفاق بين مصر وبريطانيا .

وفى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ انعقدت الجمعية العمومية الأولى لحزب الأحرار الدستوريين وألقى عدلى باشا رئيس الحزب خطاباً تتضمن سياسة الحزب دبجه لطفى السيد بيراعته ، وأعجب به هيكل ووصفه بأنه قطعة بارعة من الأدب السياسى ، وصدرت السياسة بعد أن فرغ عدلى من إلقاء خطابه ، وكانت قد نشرت فى الصفحة الأولى هذا الخطاب ، وسر هيكل حينما رأى العدد الأول من جريدة (السياسة) جريدة الحزب ، فى أيدى الناس . ولكن لم ينقض على صدور الجريدة سوى تسعة عشر يوماً حتى انعقد مجلس إدارة الحزب فى دارها فى التاسع عشر من نوفمبر ، ولما انفض الاجتماع ، كان أول الخارجين إلى باب الدار حسن عبد الرازق باشا وزميله اسماعيل زهدى بك المحامى عضوا مجلس الإدارة ، فلما بلغا الباب دوت فرقعة ، خيل معها إلى هيكل وإلى باقى المحررين الجالسين فى مكاتبهم ، أن إطار سيارة قد انفجر ، ولكن مالبث حتى اقتحم حجرته عليه ناس ، يحملون بين أيديهم جسد اسماعيل زهدى ، فأسرع إليه حافظ عفيفى عضو الحزب ، وكشف عن صدره ، فإذا الدم ينبثق منه ، أثر رصاصات صوبت

إليه وحسن عبد الرازق من قتلة لاذوا بالفرار وقد حمل الجريحان إلى مستشفى الدكتور على ابراهيم بشارع الصنافيرى ، وأجريت لكليهما عملية ، لم تنقذهما من الموت فقد توفاهما الله الواحد فى أثر الآخر ، إذ فاضت روح حسن عبد الرازق فى اليوم التالى للاعتداء عليه ، وتوفى اسماعيل زهدى غداة ذلك اليوم .

وقد أحسن هيكل وصف ماجرى فى حجرته حينما نقل إليها اسماعيل زهدى جريحاً ، وسجل ما قاله الطبيب عفيفى وهو يكشف عن صدره ، ليتبين موضع الإصابة ، فقد راح السياسى الجريح يقول : علم الله ما آذيت أحدا ، ولا أردت إلا خير الوطن ، ويتولى الله أطفالى » ويقول هيكل ، أن هذا الإعتداء ، وإن هز بعض الصغار فى دار الجريدة فى لحظة وقوعه ومن هؤلاء ساعى مكتبه الذى لم يكد يسمع الرصاص حتى ترك مكانه على باب الدكتور هيكل ولم يعد بحيث لم يقع نظر الدكتور هيكل عليه من بعد الحادث قط ، إلا أن محررى الجريدة وعمالها ، تولاهم شعور المقاتلين الذين يواجهون الخطر من أجل فكرة ، وليس ثمة شعور أفعل منه فى نفس الجماعة ، ولا أبعث لها على تضامنها واستبسالها من ذلك الشعور .

وصدر الدستور فى ١٩ من أبريل سنة ١٩٢٣ ، بعد أن أدخلت عليه الحكومة تعديلات فى شأن المعاهد الدينية ، ووظائف السفراء ، والجيش كانت الغاية منها أن تبقى هذه المناطق الحساسة الثلاثة : الدين ، والسياسة الخارجية ، والجيش ، مناطق خاصة بالملك ، بعيدة عن تدخل الوزارة ورقابة البرلمان ، ليتلقى الملك بشأنها توجيهات الإنجليز . ودارت مناقشات فى الصحف بشأن تلك التعديلات التى حددت نص الدستور الذى وضعته اللجنة وحول الإضافة التى أدخلت إلى نص المادة (١٥) من الدستور التى أجازت تعطيل الصحف إداريا لحماية البلاد من الشيوعية .

واعتبر الوفديون أن الدستور دستور رجعى ، وسموا اللجنة التى وضعته

بلجنة الأشقياء ، ثم مالبثوا حتى انهمكوا فى الانتخابات التى دارت ، بعد أن أفرج عن سعد من جبل طارق ، فكسب الوفديون فيها أكثر المقاعد إذ ظفروا بـ ١٩٥ مقعداً بينما اقتصر نصيب المعارضة على ١٩ مقعدا .

وحديث الدكتور هيكل عن هذه الانتخابات حديث ممتع ، فهو يصارحنا بما كان يملأ قلب الأحرار الدستوريين من الثقة بأن الأغلبية ستكون من حظهم ، ومن الإطمئنان بأن كفاية رجالهم للشهوذ بها لهم ستجعل النصر حليفهم ، إلا أن هذه الثقة بدأت تتزعزع حينما عاد سعدزغلول من المنفى فاستقبله المصريون بمثل ما استقبلوه به حينما عاد من أوروبا فى سنة ١٩٢١ ، فقد خرجت جموعهم متدافعة ، وعبرت عن سرورها بعودته فى حماسة دافقة وكأنما هو استقلالها المنشود . وزاد من قلق الدستوريين أن سعد تجاوز بشهرته وحب الناس له ، مرتبة الزعيم ، إلى ما يدانى مرتبة الأنبياء والمرسلين . فقد تناقلت الألسن أن الأجنة فى البطون تهتف له ، وأن اسمه وجد مكتوباً على ورق الأشجار . ووقف عالم أزهرى هواد لشيخ القاياتى يقول الشرك بالله ولا الشرك بسعد ، ويعجب هيكل أن يتحول سعد فى قلوب الناس هذا التحول ، ولا شىء فيما يرويه هيكل مايدعو إلى الغرابة ، فقد كان سعد ضحية الإحتلال البريطانى نفاه إلى سيشل ثم نفاه إلى جبل طارق ، وكان سعد شيخاً فانياً ، فأضفى عليه الإضطهاد والنفى ، مايضفيه دائماً الإستشهاد والتعذيب على الرجال والنساء من هالات سحرية تجعلهم عند عامة الناس كائنات أسطورية ، وتنسب إليهم قدرات تفوق طاقات البشر ، وهذا دور المستشهدين والمطاردين دائما . والزعيم المضطهد ، يعوض الشعب عن كل حرمانه ، وعما يشكو منه من ضعف ، فقوته الخارقة الخيالية هى فى واقع الأمر ، قوة الشعب المنشودة ، وقدرته على إتيان المعجزات ، هى قدرة الشعب المحروم من العمل ، والمحكوم عليه بالعجز .

والحق أن الدكتور هيكل أضاف إلى التاريخ المصرى وثيقة هامة إذ وصف

لنا كيف تلقى الدستوريون نتيجة الانتخابات فى دائرة بعد دائرة ، وكيف كان يتولاهم ما يشبه الفزع ، حينما يسمعون أن رجلا مهما كاسماعيل صدقى باشا يسقط أمام محام شاب مغمور وتتذاك كنجيب الغرابلى ، وأن قاضيا قديرا كمصطفى النحاس يسقط رجلا ذا عصبية وماض فى العمل السياسى كعلى للنزلاوى .

ولو اطلع هيكل على الغيب ، لعرف أن ما استنكره من نسبة الخوارق والمعجزات لسعد زغلول ، سينسب شىء مثله إليه هو بالذات ، فقد روى بعض من شهد غسل جثمانه أن الثوب سقط عنه ، فارتفعت يدا الجسد الذى فارقته الحياة ، لتدارى ما انكشف منه (١) . ولا تختلف هذه الخرافة ، عما تناقلته الألسن عن تحدث الجماد والأجنة فى البطون باسم سعد ، والهتاف له .

وكما تمنى الدستوريون أن ينجحوا فى الإنتخابات فلم ينجحوا ، فقد تمنوا أن يكونوا أغلبية ذات قيمة عددية نسبيا ، فلم يكونوا إلا أقلية ضئيلة غاية الضآلة ، ثم تمنوا ألا يشتد سعد زغلول معهم ومع أنصارهم ، وألا يجنح لسياسة حزبية ، فاشتد معهم ، وقال أنه يريد حكومته (زغلولية لحما ودما) وهو قول قبيح غاية القبح ، لو قصد بالزغلولية الأقارب والأصهار ، وصريح وواضح وواجب من الناحية السياسية ، لو قصد بالزغلولية المبدأ والعقيدة فغاية كل حزب أو هيئة ، أن تكون الحكومة مصبوغة بصبغة هذه الهيئة ، مؤمنة بمبادئها ، أما الأداة الحكومية التى لا لون لها ، فأمر لا وجود له إلا فى إنجلترا ، لأن إنجلترا حققت كل أهدافها الوطنية ، وبسطت سلطانها على العالمين ، وانتهت الأحزاب فيها إلى شىء من الاتفاق غير المكتوب ، لكنه محترم احترام الدستور البريطانى نفسه ، يقضى بألا تمس المصالح الكبرى الباقية لبريطانيا مهما كانت عقيدة الحزب الحاكم فى بريطانيا . وقد كان موسولينى يهزأ من الحكومة التى

---

(١) كتاب الدكتور محمد حسين هيكل ص ١٠٥ كلمة الدكتور حسين فوزى النجار .

لا لون لها ، والتى يتولى تداولها الأحزاب حزباً بعد حزب ، وكأنما هى البغى التى قضى عليها أن تستقبل الرجال وتودعهم ، بلا عاطفة ولا شعور . وقد كان من آيات التصرف الحزبى مع الأحرار أن جريدة السياسة حرمت من حضور حفلة افتتاح البرلمان ، فراح هيكل يعرض هذا التصرف على الصحفيين المصريين والأجانب فأقروه على أن هذا المسلك لا يليق ، وندبوا منهم أقرب الناس إلى قلب سعد ليراجعوه فى قراره هذا فأبى واستكبر وادعى أنه ممثل الأمة ، وأن البرلمان حظيرة الأمة ، فله أن يدخل فى هذه الحظيرة من يشاء ويقصى عنها من يشاء .

وقد ذهبت السياسة فى خطة معارضتها بلا تردد ، وازداد المبيع منها يوما بعد يوم ، مع أن سعداً نهى أنصاره عن مطالعتها بدعوى أنه يقرأ صحف المعارضة ، بالنيابة عنهم. والحق أن السياسة ، وغيرها من صحف المعارضة كانت تجد من الكثير الذى تتورط حكومة سعد فيه من الأخطاء ، والخروج على ماقاله وهو فى المعارضة ما يصلح مادة جيدة للمعارضة . فقد وصف سعد الدستور أنه من عمل لجنة الأشقياء ، فإذا هو فى خطاب العرش وهو أول خطاب سياسى لرئيس الوزارة يصفه بأنه دستور وضع على أحدث المبادىء العصرية . وقد أراد سعد أن يفر من التحديد فى شأن صلة مصر بالسودان ، وبحدود الاستقلال الذى يسعى إليـــه ، فاستعمل عبارة (الأمانى القومية) التى أثارت عليه ثائرة خصومه . ثم رفع مكافأة النواب إلى خمسين جنيها فى الشهر ، فسمى حزبه بحزب (الستمائة) . وضاق الوفديون ذرعا بهذه المعارضة فأخذوا يهاجمون دور الصحف ، ويمطرونها بالحجارة ، على مرأى ومسمع من البوليس . ويروى الدكتور هيكل أن حافظ عفيفى اتصل به فى بيته تليفونياً — وكان إذ ذاك فى العباسية — وأخبره الدكتور حافظ — أنه علم بأن مظاهرات عنيفة ضخمة ستمر بدور صحف المعـــارضة وستعتدى عليها أو تحطمها وترك له أن يقرر ما إذا كان يجد من المناسب أن يذهب

فى مساء ذلك اليوم إلى جريدة السياسة، أو يمتنع ولو أدى ذلك إلى احتجابها عن الظهور فى اليوم التالى ، فاجتمع هيكل على أثر هذا الحديث مع محمود عزمى ، ومحمد حسن المرصفى مدير إدارة السياسة ، (فى جروبى) وانتهى رأى الثلاثة إلى وجوب الذهاب إلى السياسة ، والعمل على إصدارها كعادتها كل صباح ، فلما ذهب إلى الدار ، وجد قوة من الشرطة على رأسها ضابط ، وقد أدهشه أن (هيكل) حضر إلى السياسة وأنه ينوى أن يعمل فى مكتبه ، بعد أن كانت المظاهرات قد مرت بجريدة الكشكول والأخبار وأحرقتهما ، ولكن هيكل أعلن للضابط أنه مصمم على ذلك وأن عمال المطبعة سيتسلح كل منهم بقطعة حديد ليدفع عن نفسه وعن جريدته ، واستأذن الضابط فى الاتصال تليفونياً برؤسائه ، وبعد حديث طويل ، بقى الضابط على رأس القوة ، ولم تحضر إلى السياسة لا مظاهرات كبيرة ولا صغيرة ، وصدرت السياسة فى اليوم التالى أشد عنفاً من أى يوم سبق ويثنى هيكل على عمال السياسة ، وكيف أبدى كل منهم فى تلك الليلة شهامة تستحق الإعجاب والإحترام .

* * *

لقد أخذ هيكل على سعد أنه غير قانون الإنتخاب وجعله على درجة واحدة، بينما كان يقضى قانون الإنتخاب الذى وضعته لجنة الدستور بأن ينتخب كل ثلاثين من الناخبين مندوبا عنهم ، ثم يتولى هؤلاء المندوبون إنتخاب النائب وهيكل غير محق فى مؤاخذته لسعد . فالقول بأن أغلبية الشعب أمية وأنها لا تقرأ الصحف ولا تتأثر بجريدة السياسة ، وأن المندوبين قد يكونون على قدر أكبر من الثقافة هو أمر تأباه نزعة الحرية الفردية ، وتأباه مبادىء الدستورية التى تعلن أن الأمة مصدر السلطات . فهؤلاء العوام الأميون هم الأمة ، فإما أن يسلم لهم فعلا بالسلطة ، وإما يكفر بهم . وانتخابات على درجتين لا تحقق شيئاً مما كان يتمناه هيكل فقد نجح الوفديون بأغلبية ساحقة وكان الانتخاب على درجتين .

ولا نفع مع انتخاب على هذه الصورة إلا أن تكون الحكومة أقدر على التأثير عليهم . أما على أن الخطأ الذى تورط فيه هيكل والذى لا يجد المرء له دفاعا ، فهو الرأى الذى أبداه هيكل فى مقال كتبه عن التعليم الحر والفوضى التى تسود مدارس هذا الطراز من التعليم ، وقد كان صدور هذا المقال فى وقت كان يحاكم فيه أحد أصحاب هذه المدارس الحرة أمام المحكمة العسكرية الإنجليزية وكان من أنصار سعد فضرب به هيكل المثل على نوع الرجال الذى يتولى الإشراف على هذه المدارس . وكان فى هذا إساءة لمصرى يحاكم أمام محكمة إنجليزية وعلى تهمة سياسية وكان فيه عدوان على متهم يواجه قضاته من المحتلين مما يوجب على المصريين جميعاً أن يقفوا معه بقلوبهم وأن ينسوا خلافاتهم الحزبية معه ولم يفت رئيس المحكمة الإنجليزى أن يستدعى (هيكل) وأن يلفته إلى ما فى مقاله من تحيف لحق المتهم الذى يحاكم أمامهم ، ودفع هيكل عن نفسه بأنه لم يتناول القضية المعروضة على المحكمة ، فرد عليه رئيس المحكمة الرد الطبيعى إذ قال له: لكنك تهاجم رجلاً مقيداً لا يستطيع أن يرد على نفسه» فأقر هيكل بأن رئيس لمحكمة محق فى هذا وكم كان جميلا من هيكل أنه أثبت هذه الواقعة فى مذكراته لا أحسب أن أحداً يذكرها له فإن هذا منه شجاعة تستحق التحية .

وبدأت حكومة سعد تحقق مع هيكل ومحررى السياسة عن بعض مانشرته كان من ذلك مقالات هيكل عن حزب الستمائة ، وتصادف أن وقع التحقيق فى يوم لاحق لليلة عانى فيها هيكل من مغوص كلوى قاس ، فلما كان الصباح، ب إلى رئيس النيابة ، ورجاه، أن يؤجل التحقيق إن كان منتظراً أن يطول، همه المحقق أن الأمر لن يستغرق وقتاً طويلا ، ولكنه أبقاه للتحقيق خمس ات متصلة ، فلما عاد هيكل إلى البيت اشتد عليه الألم ولزم الفراش ، ندعى كبار الأطباء ، وأجريت له تحاليل ، فلما ذهب أخوه بعينة من البول لطبيب المحلل ، سأله هذا الطبيب أصاحب هذه العينة لا زال على قيد الحياة،

فقد كانت كليته اليسرى ممتلئة صديداً .

وقد سئل هيكل عن مقالاته عن انتخابات جرت فى دائرة أسيوط ، واتهمت السياسة فيها سعداً بالتدخل فيها لحساب مرشحه ، فطلب أن تسأل النيابة سعد زغلول فى هذه الوقائع ، فأبدى رئيس النيابة دهشته من أن يطلب المتهم سؤال رئيس الحكومة ، كأن رئيس الحكومة فوق القانون ، ولكن لحسن الحظ أن هذه الدهشة لم تطل ، وأن النيابة سألت سعداً فأنكر أنه تدخل فى الانتخابات .

وقدم الدكتور هيكل والدكتور حافظ عفيفى بوصفه صاحب امتياز جريدة السياسة ، للمحاكمة أمام محكمة الجنايات فنشرت السياسة محضر التحقيق الذى استمر مع هيكل خمس ساعات كاملة ، فأمرت وزارة الداخلية بمصادرة السياسة ، وهو أمر فى حقيقة الأمر غير مفهوم ، ولذلك كان معقولا أنه يلغى القضاء أمر المصادرة حينما طعنت فيه السياسة .

ولما حوكمت السياسة ، كان المبيع منها يزداد يوماً بعد يوم ، بينما كانت قاعة المحكمة غاصة بالجمهور لا موضع فيها لقدم . وقضت المحكمة ببراءة حافظ عفيفى وبتغريم هيكل بثلاثين جنيهاً . وفكر هيكل فى السفر إلى لبنان مع زوجته وأولاده انتجاعاً للصحة ، والتماساً للترويح عن نفسه بعد موسم ملىء بالعمل انتهى بالتحقيق والمحاكمة والمرض ، ولكنه خشى أن يتهيأ للسفر ، ثم يمنع فى آخر لحظة باعتبار أن تحقيقات جرت معه فى شأن مقالات أخرى ، ولم يبت بعد فى هذه التحقيقات .

ولما كان والد زوجة هيكل وكيلا لوزارة الخارجية ، فقد استطاع أن يسأل سعد باشا رئيس الحكومة فى هل لديه مانع من سفر هيكل إلى الإصطياف فأبدى سعد دهشته من تفكير هيكل فى السفر وضده خمس قضايا . وبدرت من صهر

هيكل عبارة معناها « ولماذا هذا الإنتقام ؟ » فغضب سعد وقال إنتقام وأنا أبلغ النيابة كأضعف فرد من النساء أو الرجال ، وجر الحديث إلى أن (سعد) مستعد لحفظ هذه القضايا الخمسة أن اعتذر هيكل عن نسبة التدخل فى انتخابات أسيوط لسعد باشا . وكبر على هيكل أن يعتذر ولكن والد زوجته ألح عليه إلحاحا شديداً وهو يقول له : هأنتذا ترى أن البلد كلها تحت قدمى سعد وأنت تحاول أن تقاومه ! وضعف هيكل قليلا لضغط والد زوجته ، رغبة فى إرضاء خاطره ، فكتب تكذيباً لا تزيد عبارته عن أن مادام سعد باشا قد أنكر تدخله فى الانتخابات ، فإن هذا الانكار يكفى ، ولم تعجب سعد هذه العبارة واعتبرها محاولة منه للضحك على ذقنه — وعاد صهر هيكل يضغط عليه ليكتب تكذيباً أوفى وأصرح — وراح هيكل إلى منزل أصدقائه أولاد عبدالرازق خلف سراى عابدين ولقى هناك محمود باشا عبد الرازق فاستشاره فى أمر هذا التكذيب المطلوب فقال له لك أن تعتذر ولكن عليك بعد ذلك أن تهجر الصحافة والسياسة فلا تتعرض لشىء من مسئولياتها . فقوى هذا القول من عزم هيكل ورفض نهائياً الإعتذار . وتردد فى طلب جواز سفر. بعد ذلك ، إلا أن أحد أصدقائه نصحه بأن يقدم طلب إستخراج جواز السفر ، وأكد له أن الحكومة لن تجرؤ على رفض اصدار هذا الجواز لأنها تعلم أن هذا سيجعلها هدف حملة عنيفة من خصومها ، وفعلا لم ينقض على تقديم طلب الجواز سوى ثمانية وأربعين ساعة حتى حصل عليه ، وسافر إلى لبنان حيث قضى وقتاً جميلا ، زاده جمالا أنه وجد اسمه على ألسن الشباب السورى واللبنانى ، ووجد شخصه محلا لحفاوة الأدباء وأهل الفكر من أبناء هذين القطرين ، فازداد اعتزازاً بالصحافة وحباً لها . وعاد وقد تجددت قواه ، وتحسنت صحته ، حتى أنه عدل عن إجراء العملية فى كليته المصابة كما أشار بذلك الدكتور على ابراهيم ، وقد ندم هيكل لهذا العدول ، فقد بقيت كليته المعتلة مصدراً لمتاعب صحية وقد كانت وفاته بسبب

مرض فى المجارى البولية ، لعله كان أثراً من آثار إصابة الكلى القديمة .

ولم يكد هيكل يعود حتى نظرت محكمة النقض الطعن المرفوع من هيكل فى حكم الجنايات ضده بالغرامة ، وترافع المحامون ، مرافعات مجيدة ، كانت مرافعة توفيق دوس التى راقت هيكل كثيراً أجود هذه المرافعات ، ثم قبلت المحكمة الطعن ، ونقضت الحكم . ففرح الدستوريون بهذا الحكم كثيرا ، ورددت جريدة السياسة كلمة كان سعد زغلول قد قالها لما قضى لأحد أنصاره بالبراءة فى قضية سياسية وهى : لو أن القضاء لطمنى هذه اللطمة لوقعت مغشياً علىّ ، ولتركت منصبى فى الحال » .

وقد كانت محكمة النقض منعقدة برياسة أحمد طلعت باشا،فبقى سعد زغلول سنين ـ محنقا عليه مغيظا ، حتى كانت سنة ١٩٢٦ وتولى رياسة مجلس النواب ، وفى هذه الفترة تعرض المجلس لمرتب أحمد طلعت باشا وكان يزيد عن المرتب القانونى بمائة جنيه فى السنة ، فنزل سعد عن كرسى الرياسة ، وخطب فى وجوب تخفيض هذه المائة جنيه .

* * *

كان الإنجليز — خصوصا حكومة العمال — يؤملون فى أن يكون سعد بعد المنفى — أكثر استعداداً للتفاهم معهم ، إلا أن هذا الذى توقعوه ولم يتحقق فلم تسفر المفاوضات التى أجراها سعد مع رمزى ماكدونالد فى خريف سنة ١٩٢٤ عن شىء ، بل أنها لم تطل ، فعاد سعد إلى مصر ، فسارعت العناصر الدخيلة على الحركة الوطنية والتى أبى سعد إلا أن يمثلها فى وزارته وزيران هما نسيم وسعيد — سارعت هذه العناصر إلى التحضير للدور الجديد فى السياسة المصرية ، فاستقال نسيم وسعيد ولم ينقض على استقالتهما الكثير حتى أطلقت رصاصات على السير لى ستاك باشا سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان عند خروجه من ديوان وزارة الحربية ، فى التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٢٤.

فكأن زلزالا رهيباً أصاب دنيا السياسة فى مصر ، فقد خرج اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى من سرايه على النيل ، على رأس جيش ، ودخل إلى مكتب سعد زغلول رئيس الوزراء ، والغضب يكاد ينفجر من جوانبه ، ودفع بإنذار إلى الحكومة المصرية أشبه شىء بالإنذار الذى وجهته حكومة الإمبراطورية النمساوية إلى حكومة الصرب فى ٢٨ من يونيه سنة ١٩١٤ ، وهو الإنذار الذى تلته الحرب العالمية الأولى . فقد طلبت الحكومة البريطانية أن تدفع الحكومة المصرية لها تعويضاً عن مقتل رجلها مبلغا قدره نصف مليون جنيه ، وأن تسحب الجيش المصرى من السودان ، وأن تطلق يد الحكومة البريطانية فى زراعة أرض الجزيرة دون التزام حد الثمانين الألف من الأفدنة التى نصت عليه إتفاقية المياه المبرمة بين مصر وبريطانيا . جملة القول أن بريطانيا اعتبرت مصر قد هزمت فى حرب ، وأنها تملى عليها شروط الهزيمة . والطريف أنه لم يكن انقضى فى ذلك التاريخ سوى زمن قليل على ارتكاب حادثة اغتيال فى شوارع لندن وقع على أحد كبار الحكومة البريطانية ، وكان مثل هذا الحادث كافيا لتذكير الحكومة الإمبراطورية أنه ليس فى وسع أية حكومة أن تمنع وقوع جنايات الإغتيال السياسى ، وأن تحمل الشعب جريرة فعل واحد أو جماعة من أبنائه ، ولكن الذى يعنينا أن مجلس الوزراء المصرى اجتمع ودفع التعويض الباهظ المطلوب ، ورفض الشروط الأخرى واستقال ويحدثنا اللورد لويد فى كتابه (مصر منذ عهد كرومر) أنه لو رفض سعد الشروط وبقى فى مركزه لوقعت حكومة بريطانيا فى حرج شديد .

لم يقل هيكل شيئاً من هذا لأنه لم يكن من المدرسة التى يخطر على بالها مثل هذه الخواطر ، ولكن لم يفته أن يحدثنا عن اعتكاف سعد بعد استقالته ، فى فندق (مينا هوس) وضيقه بالناس ، وعزوفه عن رؤيتهم ، وانفضاض هؤلاء الناس عنه ، واكتفائه بالسخرية مرة من نفسه حينما هتف بعض زواره — « ليحيى أبو الأمة » إذ قال « أنا بقيت أبو النوم ! » .

ولكن انتابت (هيكل) المواجس مرتين المرة الأولى حينما وجد عند كثير من الأحرار الدستوريين الفرح بسقوط سعد والشماتة لما أصابه ، فقد اعتبر هذا نكسة وطنية ، وشعوراً سياسياً عليلاً . إذ كان يرى ما أصاب (سعد) ، قد أصاب مصر كلها ، وأنه كان من الخير أن يبقى سعد فى الحكومة وأن يعارضه الدستوريون ، وأن يكشفوا عن أخطائه ، ويتعقبوا سقطاته ، حتى ينفض عنه الناس أو يصلح من أمره ، وبذا يستقيم الحكم الدستورى ، وتقلم أظفار هذا الإرهاب البرلمانى الذى يبسط على الناس استبداداً مقنعاً بقناع من الدستور . ولكن الدستوريين أبوا إلا أن يواصلوا التعبير عن فرحهم وعن شماتتهم لأن سعداً — اضطهدم ، ولأن جموع الشعب اعتدت عليهم ، ولأن تأليه سعد ، وإيمان الجماهير به ، جعل الحياة البرلمانيه عبثاً ، والدستور وهماً ، وأحال المعارضة البرلمانية ، والمعارضة السياسية عموماً عملاً لا طائل تحته ، ولا نفع فيه .

أما الأمر الثانى الذى أثار هواجس (هيكل) فهو انضمام إسماعيل صدقى إلى وزارة زيور وهى الوزارة التى وليت الحكم بعد استقالة وزارة سعد ، ثم توليه وزارة الداخلية ، فقد كان إسماعيل صدقى زميلا لعدلى وثروت ، وهو معدود من الأحرار الدستوريين ، وإن لم يكن من أعضاء حزبهم رسمياً . مما يصيب الحياة الدستورية على يد صدقى ، سيحمل الدستوريون وزره ، ولن تنفع حجة ولا برهان فى إقناع المصريين بأن الدستوريين لا يقرون سياسة صدقى ، ولا يوافقون عليها .

وقد أجلت الوزارة بمجرد انضمام صدقى إليها انعقاد البرلمان شهراً الأمر الذى يبيحه الدستور ، ثم حلّ البرلمان ولما ينقض على اجتماعه سوى تسعة أشهر أو أقل ، ثم دعيت الأمة إلى انتخابات جديدة أشرف عليها صدقى . ويروى

(هيكل) شيئاً يتصل به وبهذه الانتخابات فالأحرار الدستوريون رشحوه فى دائرة (تمى الأمديد) التابعة لمركز السنبلاوين، وتهيأ لخوض المعركة، إلا أن لطفى السيد، طلب إليه أن يخلى هذه الدائرة لأخيه سالم بك، وأعجب كيف يسمح أستاذ الجيل لنفسه أن يحول المعركة الانتخابية إلى مجالات المجاملة التى لا تجوز فيما يخص الشعب من أمور. ولما لم يستجب هيكل لرجاء لطفى السيد، أوعز إلى عبد العزيز فهمى رئيس الحزب، أن يعيد على (هيكل) الرجاء، باسم الصداقة التى تربط عبد العزيز ولطفى ولحساب الأخوة التى تربط لطفى وسالم، وأحرج هيكل، واضطر إلى النزول على هذا الرجاء، وفى نفسه مرارة أية مرارة. وقد دفعه شعوره إلى التفكير فى الإستقالة من رياسة تحرير السياسة، فذهب فعلا إلى ثروت باشا ورجاه أن يهيىء له سبيل الخروج من السياسة فى سهولة ويسر، كما هيأ له أسباب الدخول إليها فى سهولة ويسر، فرجاه ثروت أن يرجىء إنفاذ عزمه هذا إلى أن تنتهى الانتخابات حتى لا يستغل الوفديون هذه الإستقالة.

والحق أننا مدينون بالشكر مرة أخرى لهيكل إذ كشف لنا الستار عما كان يجرى فى حزب كانت كل بضاعته أنه الداعى إلى الدستور، وأنه هو الذى صنعه وعما جرى من اثنين، عاشا حياتهما يلقنان المصريين أصـول السياسة الصحيحة — ومبادىء الأخلاق الدستورية القويمة: وقد استطعنا بفضـل ما كشفه هيكل أن نرى أن الحزب كان يرى توزيع الدوائر الإنتخابية والترشيح لها مسألة عائلية.

وجرت الإنتخابات، ثم أجريت انتخابات رياسة المجلس الجديد، فتنافس على هذه الرياسة سعد وثروت. وظهر من نتيجة هذه الإنتخـابات أن أغلبيـة المجلس الجديد مع سعد، فقررت الحكومة أو قرر إسماعيل صدقى حل هذا

المجلس الجديد الذى أشرف هو على إجراء الإنتخابات له ، وظن مع هذا الإشراف أنه نجح فى القضاء على الوفدية وعلى سعد . وأحس صدقى أن (هيكل) لن يوافق على هذا الحل لتعارضه مع نصوص الدستور التى تحرم حل المجلس مرتين لسبب واحد ، فدعاه لمقابلته ، وحاول أن يقنعه بأن التضحية بنص الدستور أمر تقتضيه مصلحة قومية كبرى، هى عدم تمكين الوفديين من الوصول إلى الحكم مما كان يزيد الأمر مع بريطانيا تأزماً يضر بمصلحة البلاد العليا . ويقول هيكل أنه لم يقتنع بحجج إسماعيل صدقى . وفى هذه الآونة بدأ حزب جديد يظهر هو حزب الإتحاد ، وعلم هيكل أن حسن نشأت وكيل الديوان الملكى إذ ذاك هو الذى يشرف على إنشاء هذا الحزب ، وأنه يشجع المديرين على الدعوة له ، واستنصار الأنصار . فذهب هيكل إلى نشأت وسأله عن حقيقة مايشاع فى هذا الصدد فكان الرجل صريحا ، وأفضى إلى هيكل بأن القصد من إنشاء الحزب الجديد أن يكون أداة فى يد الملك لإحداث التوازن بين حزب الدستوريين ، وحزب الوفديين ، حتى لا ترجح كفة أحداهما رجحانا يجعل الشعب تحت رحمة الحزب الفائز ، وأخرج حزب الإتحاد جريدة ، أسند رياسة تحريرها إلى الدكتور طه حسين صديق الدستوريين . وبدأ عدد من الدستوريين ينضم إلى هذا الحزب ، ثم تألفت وزارة من الدستوريين ومن الإتحاديين ولم يحدثنا (هيكل) عما فعل حينما تحقق الذى خشيه وحسب حسابه مقدما . فقد رأى البرلمان يحل وكان يرى حل البرلمان تحديا لأحكام الدستور وخروجا عليها ، ورأى حزب الإتحاد يولد ويستقطب ويدخل فيه بعض الدستوريين ، ثم رأى حزبه يحالف هـذا الحزب الجديد الذى تشوب ميلاده شوائب تجعل هذا الميلاد أبعد الأمور عن الشرعية ، وكان المنطقى أن يقاوم حل البرلمان فى جريدة السياسة لأنه التزم أن يدافع مايعتقد ولو خالف اعتقاده ، اعتقاد الحزب . كما كان المنطقى أن يقاوم التحالف بين حزبه وحزب الاتحاد ، ولـكنه لم يفعل شيئاً من هذا كله ، وقد سكتت مذكرات

عن الإشارة إلى صدى هذه الأحداث فى نفسه وعن انعكاسها على تصرفاته.

وكان لا بد أن يقفز من فوق هذه الفترة إلى حدث أدبى فكرى كبير، ذلك هو ظهور كتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذى قال فيه الشيخ على عبد الرازق، أن الخلافة ليست أصلاً من أصول الإسلام، فوقع هذا القول من نفس الملك فؤاد أسوأ وقع، فقد كان طامعاً فى أن تؤول إليه الخلافة، بعد أن ألغى كمال أتاتورك سلطنة بنى عثمان فى تركيا، وأعلن الجمهورية.

لذلك كله قرر الملك فؤاد أن يؤدب الشيخ على عبد الرازق على كتابه، ولا يبعد أن يكون الملك قد اعتقد أن الأحرار الدستوريين هم الذين دفعوا الشيخ على عبد الرازق إلى إصدار هذا الكتاب، من قبيل مخاشنتهم التقليديةله وأن الإنجليز كانوا من وراء الأحرار الدستوريين، فقد كان الإنجليز يباركون دائماً توثب حزب الأمة، الأصل المباشر لحزب الأحرار، على سلطة الخديو، ومن بعده على الملك.

وقرأ هيكل كتاب على عبد الرازق، فلم يجد فيه ما يستحق المؤاخذة بل أعجبته طريقة البحث فيه، فكتب فى السياسة مثنياً عليه، ولكن الحكومة قررت أن يحاكم الشيخ على عبد الرازق أمام هيئة كبار العلماء، بوصفه قاضياً حاصلا على شهادة العالمية، وقد نصت المادة ١٠١ من قانون الأزهر على حق هيئة كبار العلماء فى محاكمة من يرتكب من الحاصلين على شهادة العالمية ما يتنافى مع كرامة شهادتهم الدينية. وقرأ هيكل هذه المادة فلم يجد فيها ما يسوغ محاكمة الشيخ على عبد الرازق على ما أورده فى كتابه. فعاود الكتابة دفاعاً عنه، متحمساً له، ولكن هيئة كبار العلماء انعقدت لمحاكمته، وقضت بأن الشيخ أتى بإصدار كتابه أمراً يتنافى مع كرامة الهيئة التى ينتمى إليها، فأخرجته

من زمرتها ، وأن للسلطة المدنية تنفيذاً لحكمها هذا ، أن تنظر فى فصله من منصبه فى القضاء الشرعى .

وكان عبد العزيز فهمى رئيس حزب الأحرار الدستوريين هو وزير العدل (الحقانية) الذى تتبعه المحاكم الشرعية التى كان يعمل الشيخ على عبد الرازق قاضياً فيها ، فلم ينفذ فى الحال ، ما أوصت به هيئة كبار العلماء فى حكمها من فصله من وظيفته ، بل أحال الأمر إلى لجنة قضايا الحكومة لتبحث الموضوع ، واستبطأ الملك وزير العدل بينما كان رئيس الوزراء بالنيابة (يحيى ابراهيم) يلح عليه كل يوم ، ليصدر قراره بالفصل ، ولما لم يسارع عبد العزيز فهمى إلى الاستجابة لضغط الملك ، ولا لإلحاح رئيس الوزراء ، وجد نفسه مقالا من الوزارة وكان له زميلان من الدستوريين هما محمد على علوبه وتوفيق دوس بعد إقالة قرينهما فى الحزب وزميلهما فى الوزارة ، وكان المظنون أن يبادرا بالاستقالة احتجاجا على هذه الإقالة المهينة ولكنهما تلكآ طويلا ثم انتهيا آخر الأمر إلى تقديم استقالتهما ، وتضامن معهما اسماعيل صدقى وكان يصطاف فى الخارج . فأصبح بذلك كتاب الإسلام وأصول الحكم أول كتاب يسبب فى تاريخ مصر الحديثة أزمة سياسية ، تودى بتحالف بين حزبين ، وتفضى إلى استقالة أربعة وزراء .

على أنه كان لهذه الأزمة الفكرية جوانبها السياسية التى لولا صراحة الدكتور هيكل وشجاعته ، وقوة ذاكرته ، لما عرفناها بهذا الوضوح .

من هذه الجوانب ما كان معروفاً سنة ١٩٢٥ أى إبان وقوع أزمة كتاب الإسلام وأصول الحكم ، ولكنا نسيناه الآن ، ومن الخير التذكير به ، والتأمل فيه ، ونعنى بذلك أن رئيس الحكومة أحمد زيور كان يصطاف فى أوروبا عند وقوع هذه الأزمة الطريفة التى أطاحت بأربعة وزراء من وزارته ، والتى اقتضت تعديلا وزاريا لشغل الأماكن الوزارية الشاغرة ، ولكن التدهور السياسى

كان قد بلغ فى بلادنا ، كما بلغت البلادة السياسة عند الملك ورئيس الوزراء ، إلى الحد الذى لم يفكر فيه هذا الأخير فى أن يعود إلى بلاده ، ويقطع أجازته ، معلنا بهذا المسلك الوقح ، أن الأمر لا يعنيه ، وأنه يعلم أن بقاءه فى الخارج ، أو عودته إلى الوطن ، لا يغيران من الأمر شيئاً ، فهو لا يملك لنفسه ، ولا يملك لغيره ضرا ولا نفعاً . ولم ير الملك أن الموقف يستدعى تكليف رئيس حكومته أن يحاول مجرد ستر المظاهرة بالعودة ، بل لعل الملك كان سعيداً غاية السعادة إذ يظهر للملأ أنه صاحب الأمر والنهى ، وأن إليه ترجع كل الأمور .

أما الجانب الآخر من التدهور الوطنى فقد كشف لنا عنه كذلك الدكتور هيكل حينما حدثنا عن المستر نيفل هندرسن القائم بأعمال المندوب السامى بعد أن استقال اللورد اللنبى ، وقبل أن يأتى خلفه اللورد جورج لويد . فقد قال هيكل فى أكثر من موضع من كتابه ، أن هندرسن هذا كان حريصاً على إبقاء الحالة فى مصر ، على ما كانت عليه قبل الأزمة ، حتى يتسلم اللورد لويد مصر ، فى وضعها الذى كانت عليه عند إعلان تعيينه مندوبا سامياً لبلاده . ومن أجل هذا الغرض كان هندرسن لا يرى حرجا فى أن يطلب إلى هيكل وإلى غيره أن يكف الحزبان المتحالفان : الدستوريون والاتحاديون ، عن التراشق بالسباب ، وتبادل المطاعن . وقد طلب ذلك من هيكل صراحة ، أو رجاه فيه ، ووعد هيكل بأن يقطع حملة الهجوم على جريدة الاتحاد وحزبها ، إن التزمت هى شروط المهدنة أو وقف القتال .. ولما لم يلتزم حزب الاتحاد هذه الشروط تجدد القتال ، وتدخل هندرسن ثانية وثالثة ، وقابل هيكل فى هذا الصدد مرتين أخريين . وقد كنت أتوقع بين كل سطر وآخر أن أقرأ لهيكل عبارة استياء أو امتعاض من تدخل الإنجليز بين الأحزاب المصرية فى مسألة داخلية — وإن كان لا يغير فى الأمر أن تكون المسألة خارجية — ولكن نظرى لم يقع على شىء من هذا . فقد كانت

مدرسة حزب الأمة قد نجحت فى إفراز سمومها بكثرة ونشاط وانتظام ، حتى تعفنت العقلية السياسية فى بلادنا ، فبات الإنجليز شركاءنا فى أخص شؤوننا .

ويستطيع القارىء لمذكرات الدكتور هيكل ، أن يتبين بيسر ، أن الأمور التى كانت تنفعل لها النفوس فعلا ، والتى تهتاج لها خواطر الساسة أكبر هياج هى ما اتصل منها بالوزارة والحكم ، وبشؤون الساسة الشخصية ، فقد بقى الأحرار الدستوريون حلفاء أوفياء وأمناء للاتحاديين ، وهم يعلمون أن الاتحاديين هم ستار الملك ، وأنهم لا يمثلون إلا أنفسهم ، ولا يسهرون إلا لمصالحهم ، حتى ضاق الملك بكتاب على عبد الرازق ، وضاق بعبد العزيز فهمى وزير الحقانية فأقاله . عندئذ فقط امتشق هذا الوزير سيفه من غمده ، وألقى خطابا ناريا ضد حسن نشأت وكيل القصر الملكي والحاكم بأمره (لحساب الملك) فى تلك الأيام ، وتلقف المصريون هجوم عبد العزيز فهمى على حسن نشأت فى لهفة وسرور ، وتخاطفوا جريدة السياسة التى نشرت هذا الهجوم ، الذى أصبحت فقرة (حنانيك يانشأت) فيه عنوانا عليه ، وكأنها شعار معركة . أما قبل ذلك فلم يكن فى الاتحاديين عيب ، ولا فى التعاون معهم عار .

وكان الخلاف بين الدستوريين وحلفائهم ، توطئة وتمهيداً صالحين ، لأن يقوم تحالف جديد بين الوفديين والدستوريين ، سعى له حفنى محمود شقيق محمد محمود وكيل حزب الدستوريين ، وقد كان حفنى من أنصار سعد زغلول ، وكان بحكم صلته العائلية بالأحرار ، وصلته الحزبية بالوفديين ، وسيطا فذا ، وقد استمر التقارب بين الحزبين ، حتى تم الائتلاف بين الحزبين فى سنة ١٩٢٦ بعد أن تبادلا العداوة منذ عاد سعد من باريس سنة ١٩٢١ .

وكان من الحتم بعد أن تم هذا الائتلاف أن تجرى انتخابات غير انتخابات

صدقى التى جرت فى سنة ١٩٢٥ لبرلمان لم يطل عمره أكثر من ٢٤ ساعة وفكر الدكتور هيكل أن يرشح نفسه للمرة الثانية فى دائرة (تمى الامديد) التى تهيأ لخوض معركة الانتخابات فيها فى أول انتخابات تمت فى ظل دستور سنة ١٩٢٣. وقد حال دون ذلك - كما سبقت الإشارة - أن لطفى السيد أراد أن يؤثر أخاه (سالم) بهذه الدائرة فتركها (هيكل) وهو حزين وآسف، وقد أبى القدر إلا أن يحرمه من تمثيل هذه الدائرة للمرة الثانية فى ظل الإئتلاف فقد كان لابد من أن يتم توزيع الدوائر بين الحزبين المتحالفين فى مفاوضات ومساومات، ولذلك ذهب هيكل مع جماعة من أقاربه الوفديين إلى سعد زغلول ليقبل أن تكون هذه الدائرة من حظه، ولكن (سعد) اعتذر بحجة أن المرشح الوفدى نجح فى هذه الدائرة فى انتخابات سنة ١٩٢٤، ثم فى انتخابات سنة ١٩٢٥ التى أجراها صدقى، وأنه لايستطيع أن يتخلى عن نصير من أنصاره واجه عدوان صدقى وبطشه. وسأل هيكل سعدا عن دائرة يختارها له، فاختار له دائرة الجمالية فى القاهرة وعلق هيكل على هذا بأنه كان غريباً من سعد أن يختار له هذه الدائرة فقد سبق أن نجح فيها مرشح الوفد فى الانتخابات التى جرت فى سنة ١٩٢٤ والتى جرت فى سنة ١٩٢٥، كما هو الحال تماماً فى دائرة تمى الامديد، ولكن لم يكن ثمة بد من أن يقبل الأمر الواقع وأن يخوض معركة فى دائرة ليست له بها سابقة اتصال، وليس له فيها أهل ولا أنصار. ولكن المعروف أن الانتخابات فى العاصمة لاتستلزم من وشائج القربى، ومظاهرة العصبيات، ماتستلزمه معارك الريف. ولكن لم يكن من حظ هيكل أن ينجح، وبذلك تأخر وصوله إلى البرلمان سنوات عديدة، حتى عوض عن هذا التأخير الطويل، بتعيينه رئيساً لمجلس الشيوخ.

وأذكر أنى سافرت يوماً فى الباخرة كوثر بدعوة من المرحوم طلعت حرب احتفالا برحلتها الأولى وقد ضمت هذه الدعوة لفيفاً من الصحفيين والأعيان

وكان من بينهم المرحوم عبد الحميد البنان الذى كان خصما لهيكل فى دائرة الجمالية فروى لنا كيف كان يحارب الدكتور هيكل فى هذه المعركة . وقد كان من بين ما حارب به ، أنه استغل لقب (دكتور) الذى يسبق اسم محمد حسين هيكل ، فوقف بين الناخبين يوما يقول: أن خصمى يتعالى عليكم ، ويكره أن يتعامل مع الفقراء أمثالكم، فهو يرفض أن يعالج مرضاكم مع أنه له عيادة يستقبل فيها الأغنياء من المرضى الذين يدفعون له الأجور الباهظة، وإن لم تصدقونى اذهبوا واسألوه أن يعالجكم، وذهب الناخبون . وعادوا وهم يقولون صدقت إنه ادعى أنه لا يتعاطى الطب ، مع أن لقب الدكتور موجود فى كل إعلان انتخابى . وأوعز البنان لآخرين من أنصاره أن يشيعوا أن الدكتور محمد حسين هيكل ينتحل لقب دكتور انتحالا، وأن الطب والدكاترة أبرياء منه ، بدليل أنه يرفض أن يعالج المرضى من الناخبين ويحدثنا هيكل عن أثر سعد فى نفسه، بعد أن أتيح له أن يتصل به وأن يخلو إليه ، وأن يستمع إلى أحاديثه ، وتستطيع أن ترى من عبارة الدكتور هيكل كيف سحره سعد بلطف مجلسه ، وبراعته فى الحديث براعة تعلو فى نظره على براعة سعد كخطيب . وقد سجل فى مذكراته لسعد ثلاثة أو أربعة آراء خطيرة تكشف عن نفس سعد وفكره . فسعد أفضى إلى هيكل يوماً أن منصب رئيس الوزراء فى مصر، ليس بالمكان الذى يسعد به شاغله فرئيس الوزراء فيه محاصر بطلبات الأمة وطلبات الإنجليز وطلبات الملك ، وطلبات الموظفين . وعجب هيكل من أن يكون الموظفون فى مصر ، سلطة قائمة بذاتها ، توضع مع الأمة والإنجليز والملك فى صف واحد ، وكأنها فى مثل قوة هؤلاء . وبقى هيكل على عجبه حتى ولى الحكم وعرف كيف أن للموظفين فى مصر من الأمر، ما يستحقون معه أن يكونوا قوة توضع إلى جانب الأمة والملك .

وحاول هيكل أن يحصل على حديث من سعد للسياسة الأسبوعية ، وكان مدار الحديث الذى اقترحه موضوع الخلافة ، وقد كانت يومذاك محلا للمناقشة

والأخذ والرد بعد الإنقلاب الذى قام به كمال أتاتورك . وكان رأى الأحرار أو على وجه أدق كان رأى هيكل أن الخلافة الإسلامية أصبحت عبءً على تركيا فى أخريات أيامها ، خسرت فيها أكثر مما كسبت ، وأنه لا يجوز لمصر أن تتطلع إليها . فقال سعد لهيكل ، إنى من رأيكم فاكتبه على لسانى ، وأعرض على الحديث ، فلما أعد هيكل الحديث وعرضه على سعد ، قال له أنه من الخير ألا تنشر هذا الكلام الآن ، لأن خصومنا سيستغلونه ضدنا ، فأظهر هيكل دهشته من أن سعد الذى تدين له الجماهير بالولاء والحب ، يخشى أن يصارحها برأيه ، فأصر سعد على رفضه واعتذاره . وفى مناسبة أخرى تحدث هيكل مع سعد عن الرجال الذين يدخلون وزارة الائتلاف وأبدى سعد تململه من قلة الرجال الصالحين للحكم ، والقادرين على تحمل تبعاته فى مصر . فاستكثر هيكل ألا يكون فى مصر عشرة رجال يصلحون لهذه المهمة ، فلما صمم سعد على رأيه قال له هيكل مستنكراً وكيف تطالب دولتك بالإستقلال لدولة ليس فيها عشرة رجال أكفاء ؟ فقال سعد : أهو كلام .

ومات سعد ، وانتخب مصطفى النحاس رئيساً للوفد ، وقد روى هيكل ن النحاس كان فى شبابه إبان الحرب العالمية الأولى ، وهو بعد قاض بالمحاكم لأهلية، شديد التحمس للألمان ، وعظيم الفرح لكل مايصيبون فى المعارك من تصارات ، وأنه كان يحمل فى جيوبه خريطة لميادين القتال ، يبسطها أمام سدقائه فى مكتبه أو فى القطار كلما جمعته الظروف بهم ، ثم يروح يشرح لهم سير مارك مبديا إعجابه ببرعة الألمان الحربية .

واستمر الائتلاف الذى كان قائماً فى عهد سعد بينه وبين الدستوريين . د وفاته ، ولكن أحس هيكل أن الوفديين باتوا يميلون إلى الخروج على ا الائتلاف ، وأنهم يهيئون الأسباب والظروف لهذا الخروج ، فكتب هيكل

مقالا طالب فيه أن تكون العلاقة بين المتحالفين قائمة على الصراحة والإخلاص وكان عنوان المقال ، « نريد إئتلافا خالصاً » وكان محمد محمود رئيس الحزب — بعد استقالة عبد العزيز فهمى — ميالا إلى الإبقاء على الإئتلاف ، وإسقاط كل المعاذير التى قد يتلمسها النحاس للقضاء على ذلك الائتلاف أو تحميل الدستوريين وزر انفصامه ، لذلك ضايقه أن يكتب هيكل مقالا يتضمن الهجوم على الوفديين وموقفهم من حلفائهم والتشكيك فى صدق نواياهم ، وأراد أن يرضى الوفديين فكتب كلمة يعلن فيها أن مقال هيكل لا يعبر عن رأى الحزب وأراد أن ينشرها فى جريدة الحزب ، ورفض هيكل أن ينشر هذا المقال فى السياسة ، وجاء محمد محمود بنفسه إلى مكتب هيكل — بعد أن كان قد أرسل إليه أحد أعضاء الحزب ليرجوه فى نشر هذه الكلمة - ولما صمم هيكل على رأيه قال محمد محمود أنه رئيس شركة جريدة (السياسة) فكيف يعز عليه أن ينشر كلمة يرى ضرورة نشرها ؟ ويقول هيكل أنه أحس وقتها أن صاحب المال يكلم الموظف الأجير فكبر عليه هذا الأسلوب فى الخطاب وقال له : يمكنك أن تنشر هذه الكلمة ، على أن تقبل استقالتى . فقال له محمد محمود : ياسيدى لا تنشر ولا تستقيل » وخرج مغضباً .

* * *

وفى هذه الفترة فجع الدكتور هيكل بمصاب ، كان له أبلغ الأثر فى نفسه وفى أدبه ، ذلك هو وفاة ابنه البكر ، (ممدوح) فقد فاضت روحه إلى بارئها فى الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، بعد مرض لم يطل ، ولم يبد خطره أول الأمر ، فقد كان المرض - دفتريا - أعراضها عند أول الإصابة بها لا تثير الجزع . وادع للدكتور هيكل حكاية هذا المرض القصير ، الذى عاجل الموت فى أثره هذه الروح الفضة قال :

« وأنا لنى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ إذا الولد مرض مرضاً لم يلق الطبيب إليه أول الأمر بالا ، ثم إذا به يعلن بعد ثلاثة أيام أن

المرض حمى الدفتريا . فى هاته البرهة اخترقت بصيرة الأمومة حجاب الغيب وانهدت الأم باكية تنتحب كأنما رأت الموت رأى العين ، يمـــد يده إلى صغيرها يتخطفه منها . ثم تنبهت إلى واجبها نحوه فأسرعت ترعاه وتمرضه وعالج الطبيب المريض أياما خيل إلينا معها أن كل خطر زال وأن دموع الأم التى انسكبت على قسوة القدر ألانت منه ، فرد اليد الغادرة الممتدة فى جنح الظلام ، وفى مساء السبت ١٢ ديسمبر ذهبت إلى عملى وأنا أشد طمأنينة من كل يوم سبقه منذ مرض الطفل ، فلما عدت عند منتصف الليل رأيت الأنوار فى مسكنى والباب مفتوحاً فدخلت فقابلتنى بهذه الكلمة «ممدوح مات»

« تسرى الرجفة إلى بدنى ويقشعر الآن جسمى لكتابة هاتين الكلمتين وقد مضى على سماعى إياها خمس سنوات وأشهر . نطقت زوجى بهـــذه العبارة الفاجعة فى صمت الليل الخؤون فأسرعت أرى أين هو ودخلت إلى غرفة النوم فإذا أمى جالسة إلى جانب السرير والطفل الذى أورثنا الثكل على ركبتيها ومن حولها أختاى ؛ اختار الله إحداهما إلى جواره فى ٢ أغسطس سنة ١٩٣٠ وثلاثتهم واجمات كسيرات القلب ينظرن فى حسرة ملتاعة إلى هاته الأم الشابة فقدت وحيدها وهى ذاهلة لما تقدر مدى هذا المصاب الكارث . وتركتهن بعد أن قبلت جبين ولدى ، وانتقلت إلى غرفة أخرى وقد هوى الحزن بقلبى إلى قرار سحيق ، وانتقل ممدوح فى عصر اليوم التالى من بيت أبيه إلى فلاة الصحراء ليرقد إلى جانب جدته الشابة فى جوار الله . وعدت بعد ما ودعته هذا الوداع الأخـــير ، ولا شىء أخشاه أكثر من ساعة التقى مرة أخرى بزوجتى وقد تغيرت حياتنا وقد انطفأ سراجها ، وخيم عليها الظلام » .

ونحن ننقل هذه السطور من مقدمة كتاب ولدى الذى تم طبعه فى ١٢ من مايو سنة ١٩٣١ ، والذى تضمن وصفاً لرحلات قام بها الدكتور هيكل

مع السيدة زوجته ابتداء من التاسع عشر من يوليه سنة ١٩٢٦ أى بعد وفاة ابنه بنصف عام ، التماساً للعزاء ، وفراراً من مطاردة الذكريات العزيزة والحزينة لكليهما على السواء ، وللزوجة المفجوعة على وجه خاص .

وهذه المقدمة تناولت الحزن وأثره المتباين فى نفوس الناس تباين أمزجة هؤلاء الناس ونظراتهم إلى الحياة . وهى مقدمة لا تحمل أثراً واحداً من أثر الضعف أمام الحزن ، أو الرغبة فى الاستسلام له أو التلذذ بإثارة ذكريات الألم ، واجترارها ، بل أنها دعوة إلى المقاومة والاستبسال .

فالمقدمة تجرى كلها على نهج من التفاؤل ، والدعوة للتعزى عن مصائب الدنيا وكوارثها ، بما تهيؤه لنا هذه الدنيا نفسها من مجالات جديدة للظفر والتقدم .

وقد تضمن كتاب ولدى وصفاً لثلاث رحلات طويلة فى ثلاثة أعوام متوالية . كانت أولاها إلى مرسيليا فباريس فلندن ، فباريس ثانية إلى جبال الألب فى السافوا العليا إلى سويسرا إلى البندقية إلى الإسكندرية .

وكانت الثانية فى صيف سنة ١٩٢٧ إلى استانبول إلى بوخارست فبودابست ففينا فبراج فباريس فرسيليا فالإسكندرية ، وكانت الثالثة فى صيف سنة ١٩٢٨ إلى جنوه فبون ، فكولونيا وبرلين فميونخ فبادجاستين فباريس ففيشى ثم مرسيليا إلى الإسكندرية .

* * *

ولكن لا بد أن نعود إلى السياسة ، لنستأنف متابعة مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل ، من حيث تركناها .

وقد وقف بنا الحديث عند تأليف وزارة جديدة ، برياسة مصطفى النحاس الزعيم الجديد للوفد ، وهى وزارة ائتلافية يشارك فيها الأحرار الدستوريون .

ولكن فى مصر ، قبل سنة ١٩٥٢ ، كانت المفاوضات هى العامل المحرك للأحداث، فالوزارات تؤلف ، ثم تقال أو تستقيل ، تبعا لمصلحة المفاوضات مع بريطانيا . فقد كانت بريطانيا حريصة أشد الحرص على أن تستصدر من المصريين ورقة يعترفون فيها بشرعية الاحتلال البريطانى ، وبرضائهم عن وجوده ، ويسلمون فيها بأمور معينة سلم معهم بها سعد زغلول وفى مقدمتها محالفة عسكرية أبدية تجعل جيشنا خاضعاً لرقابة الإنجليز .

ولو راجعنا الحوادث منذ قامت ثورة سنة ١٩١٩ لوجدنا أن ما من وزارة وليت حكم بلادنا أو أقيلت ، إلا وكان تأليفها وإقالتها وثيقى الصلة بالمفاوضات مع بريطانيا .

ولكن هيكل يتصور أن الإنجليز أقالوا وزارة النحاس الائتلافية بسبب قانون الاجتماعات الذى كانت وزارة يحيى ابراهيم قد أصدرته ، وكان الرأى العام مستنكراً له باعتباره قانونا رجعيا مقيداً لحرية من الحريات الأساسية وهى حرية الاجتماعات ، وهو تصور يقنع بالقريب من الأسباب ، لا بأصول هذه الأسباب .

وتولى محمد محمود الوزارة بعد إقالة النحاس ، وبدأ عمله بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً ، ثم تعطيل الحياة النيابية ثلاث سنين قابلة للامتداد . وقد كانت حجة هذا التعطيل أن الشعب مضلل ،وأن الحياة النيابية عبث ما دام أن الشعب واقع تحت تأثير فاسد ، لاسبيل إلى مقاومته . ويقول هيكل أن هذه السياسة أعجبته ، لأنها قائمة على الصراحة ، فالوزارة المحمدية — التى كان يقول عنها الوفديون السليمانية — لم تزعم لنفسها أنها صاحبة أغلبية ، بل واجهت الواقع مباشرة فى غير لف ولا دوران ،وأخذت على عاتقها ،أن تعالج الشعب من التضليل الذى كان يعانى منه، ثم لتأذن له بعد شفائه من العلة بممارسة الحياة النيابية ، ومباشرة الحقوق الدستورية .

ولا يستطيع الإنسان إلا أن يبتسم ابتسامة حزينة ، حينما يسمع من الدستوريين المؤمنين بالحريات الفردية كلاماً يبرر هذا التصرف ، ويسوق له المعاذير . فالحياة النيابية والمبادىء الدستورية قوامها أن الشعب يدرك مصلحته ، ويعرف كيف يختار حكامه ، أما القول بأن الشعب يسهل التغرير به ، وأنه يحتاج إلى من يعالجه ، فهو إهدار للمبدأ الدستورى الديموقراطى . ولكن الدستوريين الذين دعوا إلى الدستور ، وكان وضع دستور سنة ١٩٢٣ على أيديهم ، هم أنفسهم الذين واروا هذا الدستور التراب ، وأقاموا أنفسهم أوصياء على الشعب .

والحق أن موقف الدكتور هيكل فى إقرار هذه السياسة ، متناقض مع موقفه حينما استقال سعد ففرح الدستوريون وشمتوا فيه ، فضاق بهذا الفرح وتلك الشماتة ، وقال أنه كان يتمنى أن يبقى سعد فى الوزارة ، وأن يستمر الدستوريون فى معارضته ، فيكشفوا أخطاءه ، ويكسبوا أنصاراً حتى يسقطه الشعب ، أو يستقيم ، وفى الحالين يضمن للحياة النيابية أن تنشأ نشأة صحيحة ، وأن تتطور تطوراً طبيعياً لا يعوقه القسر أو القهر أو الافتعال . فما الذى جعله يقبل أن يحل حزبه محل حزب الوفد بغير طريق البرلمان ، والأمر مع سعد ومع النحاس واحد بل أن الرجاء فى أن ينصرف الناس عن النحاس ، كان أقوى منه فى انصرافهم عن سعد ؟ ولكنى أحسب أن هيكل اضطر اضطرارا إلى مسايرة حزبه فى هذه السياسة ، لأن عدم إقرارها كان يقتضيه أن يخرج على الحزب ، ولم يكن قادراً على أن يخطو هذه الخطوة أو لم يكن راغباً فيها .

والدليل عندى على ذلك أن هيكل سافر إلى أوربا ، وحزبه مقدم على هذه الخطوة الكبيرة فى حياته ، بل على أكبر خطوة فى حياته ، فلم يؤلف الأحرار الدستوريون وزارة قبل ذلك ، والعذر الذى برر به هيكل سفره إلى أوروبا فى هذه الظروف غير العادية ، أن سيارة صدمته فصدعت ساقه اليسرى ، وأصيب

من جراء الصدمة فى الساق ، بصدمة فى الأعصاب ، نصحه الأطباء معها بالاستجمام . ولو صح هذا العذر ، لما أطال هيكل بقاءه فى أوروبا حتى أقبل الخريف ، ولاستجاب لدعوة الدكتور حافظ عفيفى حينما دعاه للعودة إلى مصر. بل أن ظرفا آخر جد ، كان وحده كافياً ليعود من أجله هيكل إلى مصر ، ذلك أنه قبل سفره إلى أوروبا تحدث مع الأستاذ محمود عزمى فى شأن سياسة الوزارة المحمدية عموماً ، وفى تعطيل الحياة النيابية وبعض أحكام الدستور خصوصاً ، فوجد عند الأستاذ عزمى استعداداً للدفاع عن هذه السياسة فى جريدة الحزب ، فسافر الدكتور هيكل وهو مطمئن أنه سيجد من يملأ فراغه ، ومن ينهض بعبء الدفاع عن الوزارة وعن سياستها فى وجه هجمات الأعداء ، ولكن ما كاد يصل إلى أوروبا حتى علم أن الأستاذ عزمى استقال من عمله فى جريدة الحزب ، وأنه انضم إلى المعارضة ، فبقى هيكل فى أوروبا يستمتع بمدنها ، وبمناظرها الطبيعية ، وبجمال الحياة فيها ، على الوجه الذى فصله فى كتابه (ولدى)

وانتهت رحلة الدكتور هيكل إلى لندن فوجد هناك رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، مقيماً فى مقر المفوضية المصرية فى قصر (بيوت هاوس) ، فلما قابله ، أفضى إليه محمد باشا بأمر كان قد كتمه عن كل أعضاء الحزب ، والمحيطين به فى لندن ،وهو أن الإنجليز دخلوا معه فى مفاوضات ، أو يريدون أن يحدثوه فى شأن علاقات مصر ببريطانيا ، ولاحظ هيكل أن محمد محمود كان مشغول البال بنتائج هذه الرغبة البريطانية ، وأثرها على مركز وزارته . فقد كان يدرك أنه إذا أسفرت هذه المحادثات عن مشروع معاهدة ، فإنه لن يكون ثمة مفر فى هذه الحالة من أن يعرض المشروع على البلاد ، وعندها يتحتم إجراء انتخابات أو إخلاء السبيل لوزارة الأغلبية . ويقول هيكل أنه دفع محمد محمود إلى الترحيب بهذه المحادثات والإقبال عليها ،فإن أسفرت عن مشروع فيه خير للبلاد ، فإن

ذلك سيذكر له ، وهو خليق بألا يحجب هذا الخير عن البلاد لاعتبارات تتعلق بمصير الوزارة . وقبل محمد محمود هذه النصيحة ، وإن بقى مشغول الخاطر بما سينجم عن الاستماع لها . وتحقق ما توقعه فإنه لم يكد يعود إلى مصر ، حتى رأى نفسه مضطراً إلى الاستقالة ، ليحل محله عدلى يكن الذى أجرى انتخابات أدت إلى عودة الوفد إلى الحكم ثم إلى مفاوضة الإنجليز ، ثم إلى فشل هذه المفاوضة، وأخيراً إلى النتيجة الحتمية لكل فشل تمنى به وزارة مصرية فى المفاوضات ، وهو إسقاطها .

والأمر الثانى الذى يذكره هيكل عن زيارته للندن ومقابلته لرئيس حزبه فيها هو استطلاع محمد محمود رأى هيكل فى تعديل الدستور ، ويقول أنه لم يكد يسمع السؤال حتى أعلن فى حماسة واندفاع معارضته للتفكير فى هذا وسوء مغبته ،ولما أحس محمد محمود أنه لا سبيل إلى إقناعه قال له : إنك تتكلم بحماسة لا تدع سبيلا للتفاهم معك ، فاجلس مع حافظ عفيفى ، وتحدثا سويا فى هذا الشأن ، ولننظر ماذا تكون النتيجة ،وكان حافظ عفيفى فى لندن ففهم منه أن التعديل المراد إدخاله سيتناول موضعين من الدستور أولهما الأحكام الخاصة بحق مجلس النواب فى سحب الثقة من الوزارة ، وثانيهما النصوص الخاصة بحق أعضاء المجلس فى اقتراح تشريعات مالية . ففيما يخص الموضوع الأول كان يراد ألا يكون للمجلس الحق فى التصويت على الثقة بالوزارة فى أول الدورة البرلمانية ، وفيما يخص الموضوع الثانى كان التعديل يقضى بسلب أعضاء المجلس حق اقتراح القوانين المالية وقصر هـذا الحق على الحكومة ، وكان رد هيكل أن هذين التعديلين سيسخطان الناس بلا فائدة لأحد ، إذ لم يحدث أن سحب البرلمان الثقة من وزارة لا فى أول الدورة ولا فى آخرها كما لم يحدث أن اقترح المجلس تشريعات مالية . ويقول هيكل أنه أحس أنه غير مرغوب فى إقامته فى لندن فسافر إلى أوروبا ، ولم يقل من هؤلاء الذين لم يرغبوا فى إطالة إقامته هناك قريباً

من رئيس الوزراء ، وما سبب عدم رضاهم عن هذه الإقامة ، ولكن لابد أن يكون هؤلاء هم أعضاء بطانة محمد محمود ، من المصريين والإنجليز ، الذين أحسوا أن (هيكل) لا يبدى من النصائح ما يتفق مع ما رتبوه من الأمور .

* * *

سقطت وزارة النحاس بعد أن فشلت فى المفاوضات كما هى العادة ، وكان المفروض - المفروض عند محمد محمود وحزبه على الأقل - أن يعود هو إلى الحكم ، ولكنه أصيب بالتهاب فى الزائدة الدودية ، أدخل بسببه إلى المستشفى حيث أجريت له عملية جراحية ، وفى هذه الأيام بذاتها أسندت رياسة الوزارة إلى إسماعيل صدقى .

وساء وقع اختيار إسماعيل صدقى للوزارة عند محمد محمود وعند الأحرار الدستوريين ، فقد كانوا شديدى الشعور بأنهم أحق بهذه النعمة ، وقد حرموا منها عسفاً ، فبقوا يتربصون بصدقى منتظرين أن تتيح لهم الظروف فرصة الانقضاض عليه ، وقد أتاح لهم هذه الفرصة قبل أن يطول انتظارهم فقد عدل دستور سنة ١٩٢٣ ، وأصدر دستوراً فى سنة ١٩٣٠ . فانتفضوا فى حماسة واشتعال ، يكافحون هذا الدستور الجديد ، مع أن هذه الفكرة ذاتها ساورت رئيس الأحرار الدستوريين نفسه، وكادت تغريه على إنفاذها .

ولكن يبدو أن (هيكل) الذى لم يكن متحمساً كثيراً خلال حكم محمد محمود ، قد وجد فى المعركة من أجل دستور سنة ١٩٢٣ ، ما يرضى نزعته ، وما يتفق مع صادق إحساساته ، فإنه يصف معاركه مع إسماعيل صدقى فى أسلوب يفيض حرارة وحماسة ، وينبض بسروره وسعادته .

وحينما تقرأ الصفحات التى كتبها هيكل عن هذه الفترة ، يخيل إليك أن

مصر كانت موشكة على حركة وطنية شعبية ، تستهدف خلع صدقى من منصبه، وأن الزعماء ، أدركوا لأول مرة أن التاريخ لم يعرف شعباً يناضل فى إصرار واستبسال ، مضحياً مستهيناً بالخسائر والمصائب ، وزعماؤه فى بيتهم أو فى مكاتبهم ، يدبرون القتال من بعيد ، لا يصيبهم أذى ، ولا يقفون فى الصفوف مع الأعوان والمناصرين .

انتهت معارضة صدقى إلى لا شىء ، وإن أبلى فيها هيكل بلاء حسناً ، حتى بعد أن عطلت جريدة السياسة ، وبعد أن حلت محلها جريدة (الفلاح المصرى) التى استأجرها حزب الأحرار من صاحبها . إذ أنه لما لم يجد صحيفة تنشر مقالاته ، أخرج زميلاه المازنى وعنان ، كتاباً بعنوان (السياسة المصرية والانقلاب الدستورى) ملأوه طعناً فى حكم صدقى فصادرته النيابة ثم أفرجت عنه بعد شهر من الزمان ، فتلقفه الناس ، ونفـــــدت نسخه البالغة عشرة آلاف عداً .

وأصيب صدقى بالشلل فذهب يتطبب فى أوروبا ، فلما عاد وقد أبـل من مرضه ، وظن أنه باق فى الحكم ، فإذا هو يعزل ويحل محله عبد الفتاح يحيى باشا وكان أحد وزرائه فورث الوزارة عنه وحزب الشعب ، وهو الحزب الذى كان صدقى قد لفقه من أناس يجرون وراء كل حاكم . .

وعند تأليف حزب الشعب ، وصدور جريدة يومية باسمه ، عرض صدقى على الدكتور هيكل أن يترك الأحرار وجريدتهم السياسة وأن ينضم إليه ، ويقول بعض مؤرخى حياة هيكل أن إسماعيل صدقى عرض عليه — عن طريق والد زوجة هيكل عبدالرحمن رضا باشا وكيل وزارة العدل — أن يدفع له عشرين ألفا من الجنيهات دفعة واحدة ، وأن يعطيه مرتبا سنويا ضخماً يزيد عن مرتبه أضعافاً ولكنه رفض ذلك العرض المغرى مع أن السياسة كانت تمر فى أزمة ، كان من جرائها أن عجزت عن دفع مرتبه ، أو عن دفعه كاملاً .

وفى فترة حكم صدقى ، تواردت الأنباء عن نشاط حركة التبشير المسيحى فى مصر ، وعن أنها اتخذت من الجامعة الأمريكية مقراً لأركان حربها، وأن السياسة اهتمت بهذه الحركة ، لا لتكون الحملة عليها عنصراً من عناصر الحملة على حكومة صدقى ، بل رعاية لعقائد أبناء الشعب ، وحماية لمعنوية أبنائه ، وقد اتهم هيكل الإدارة الأوروبية فى وزارة الداخلية ، وكان يرأسها موظفون إنجليز ، بأن هذه الحملة تتم تحت رعايتهم ، فقدمته النيابة إلى المحاكمة .

وقد كان لهذه الحملة أكبر الفضل على الدكتور هيكل ، فقد أحس أنه لاسبيل إلى حماية عقائد الناس الدينية ، إلا بتبصيرهم بتاريخ دينهم ، وتاريخ حياة نبيهم ، وحدث أنه كان يتناول الغداء فى منزل عبد الحليم العلايلى وهو من أعيان دمياط وأحد زعماء الدستوريين فذكرت حملة التبشير هذه فسأل هيكل الحاضرين إن كانوا يستطيعون أن يدلوه على كتب ألفها كتاب من الغرب عن الإسلام ونبي الإسلام ، فذكر له أحدهم كتاب درمنجيم ، فما كاد يفرغ من مأدبة الغداء حتى ذهب إلى المكتبة ، فاشتراه ولخص منه فصلا فى السياسة الأسبوعية ، فى الأسبوع التالى ، فراج ذلك العدد رواجاً شديداً حتى طلب المتعهد مضاعفة عدد المطبوع من السياسة الأسبوعية ، فواصل هيكل نشر فصول من حياة محمد ، انتهت به إلى تأليف كتاب كامل عن حياة الرسول ، كان بدوره نقطة دور فى نشاط هيكل الأدبى ، وآثاره الفكرية .

* * *

ويسترسل الدكتور هيكل فى رواية الأحداث السياسة، وتطورات الأمور فى بلادنا ، بأسلوبه السهل ، وعبارته الواضحة ، فيجلي لنا كيف أسندت الوزارة إلى توفيق نسيم بعد سقوط عبد الفتاح يحيى الذى خلف اسماعيل صدقى ، وكيف كانت سياسة توفيق نسيم هذا إلى الحد الذى أغضب منه الجميع مع أن هدفه كان إرضاء الجميع .

وكان وزير خارجية بريطانيا أدلى بتصريح قال فيه أن إعادة دستور ١٩٢٣ أمر غير مرغوب فيه لأنه دستور أثبتت الأيام أنه غير عملى unworkable كما أن الإبقاء على دستور سنة ١٩٣٠ غير سائغ لأن هذا الدستور غير شعبى فأثار هذا التصريح ثائرة الشباب ، وكان الضغط الذى ران عليهم طوال حكم صدقى، قد حبب إليهم التعبير عن أنفسهم بانفجار ، واشتدت الحكومة فى قمع هذه الحركة ، ونشط الضباط الإنجليز الذين يعملون فى البوليس المصرى ،فقتلوا عدداً من طلبة الجامعة ، واتخذ طلاب الجامعة من تشييع للموتى من زملائهم مناسبات للتعبير عن مزيد من السخط ، ولذلك حاولت قوات الحكومة الاستيلاء على جثث الضحايا من الشباب والقيام بدفنها ، فرد الطلبة على ذلك بإخفاء هذه الجثث فى ثلاجات الموتى بقصر العينى لتشييعها فى الغد فى احتفالات ضخمة ،وقد أشاعت هذه الاحتفالات روحاً ثورية ، اقتنعت نسيم أنه لا أمل له فى النجاح فى خطته القائمة على إحداث الموائمة والمصالحة بين المتناقضات ، وأنه لا يستطيع أن يتلكأ فى إعادة الدستور سنة ١٩٢٣ ولكن الأحرار الدستوريين كانوا يرون أن عودة الدستور وحده لا يكفى ، وإنما الواجب أن تتحد الأحزاب لتنهى الحالة المعلقة بين مصر وبريطانيا منذ تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ ، بمعاهد تزيل مالا يزال عالقاً بسيادة مصر واستقلالها . وقد وجدت هذه الدعوة قبولا وارتياحا عند القسم الأكبر من طلبة الجامعة . فنجحوا فى إلزام الزعماء المصريين بأن يتحدوا فى سبيل طلب المفاوضة مع الإنجليز ، واتحدوا فعلا وتألفت جبهة ، وقبلت بريطانيا أن تتفاوض بعد بعض التمنع والتدلل ،وقد حرصت بريطانيا أن تكون جميع الأحزاب ممثلة فى هيئة المفاوضات خلافا للقاعدة الأساسية المعروفة التى يجرى عليها الإستعمار دائماً وهى قاعدة « فرق تسد » فقد كان اتحاد المصريين لأول مرة فى مصلحة بريطانيا ، لأنها كانت تريد أن تربط زعماءهم بحبل واحد ، وأن تمنع المزايدات بينهم ، وقد أسفرت هذه المفاوضات عن معاهدة سنة ١٩٣٦

التى أسماها النحاس بمعاهدة الشرف والاستقلال ، وفى الفترة السابقة للمفاوضات جرت الانتخابات بين الأحزاب، وقد رفض الوفديون أن يوزعوا الدوائر بين الأحزاب المؤتلفة كما حدث فى ظل ائتلاف سنة ١٩٢٦ ، ولذلك خاض الدكتور هيكل الانتخابات للمرة الثانية ، وخاضها فى دائرة (تمى الأمديد) لأول مرة مع أنه تمنى أن يخوض هذه المعركة فى تلك الدائرة فى مرتين سابقتين، فتبددت آماله التى كان يعقدها على صلاته بأهل الدائرة فسقط أمام منافسه الوفدى اسماعيل رمزى ، وخرج من الانتخابات متعبا ومرهقاً ، إلا أنه عين عضواً فى مجلس الشيوخ .

ولما بدأت المفاوضات ، سافر هيكل إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج ، فقد عرض على على ماهر ، رئيس الحكومة - بعد سقوط وزارة نسيم - أن يعمل على إصلاح ذات البين بين الحكومتين المصرية والسعودية ، بعد الفتور الذى دب بينهما منذ سنة ١٩٢٦ ، بسبب إعتراض الحكومة السعودية على أن يصحب المحمل المصرى الذى كان يحمل الكسوة للكعبة ، قوة عسكرية ، جريا على العادة منذ عهد الملكة شجرة الدر . ويقول الدكتور هيكل أنه اتصل بكثير من رجالات الحكومة السعودية ، وأنه هيأ لعودة المياه إلى مجاريها ، وقد جاء بعد ذلك فؤاد حمزه بك وكيل وزارة الخارجية السعودية إلى مصر ، وتحدث رسمياً مع مصر ، وأسفر هذا كله عن معاهدة مودة وصداقة بين الدولتين كان على ماهر حريصاً على سرعة إبرامها قبل سقوط وزارته لأنه لم يكن يرى فى رجال السياسة من كان يتحمس تحمسه لتحسين العلاقات بين بلاده ، والمملكة السعودية .

ويروى لنا الدكتور هيكل أنه قابل على الباخرة التى أقلته إلى الحجاز ، شابا قدم له نفسه، وكان يلبس ملابس الإحرام ، كما كان يفعل هيكل ، فعلم منه أنه حسن البنا ، وأنه أسس جمعية أسماها الإخوان المسلمين ، وأن غايتها الدعوة

إلى الإسلام ، دعوة مستنيرة ، ولتهذيب المسلمين تهذيباً إسلامياً صحيحاً ، وأنه يطمع فى تعضيد مؤلف (حياة محمد) لهذه الجماعة ، بل يطمع فى قبوله رياستها ويصف هيكل (حسن البنا) فيقول :

« والرجل لبق حسن الحديث ، حلو الإلقاء ، عرفت ذلك منه فى هذه المقابلة ، وعرفته بعد ذلك أثناء مقامنا بالحجاز ، إذ كان الحجاج من بلاد الأرض المختلفة يجتمعون ويتحدثون فى مختلف شئونهم ، فكان يقف فى كل جمع خطيباً واعظا ، يتلو آى القرآن فى مناسباتها ، ويلقى خطبه فى عبارة بليغة وعربية فصيحة وقيل لى وأنا بالحجاز أن له صلة بالحكومة السعودية ، وأنه يلقى منها عطفاً ومعونة ، فلما فاتحنى فى أمر جمعيته ، ذكرت له أن بث الدعاية لتثبيت الناس على هدى الدين الحنيف ، أمر حسن جدير بالتشجيع ، ولكن أعمالى فى التأليف والسياسة لا تدع لى مجالا لقبول ما دعانى إليه . »

ولما انتهت المفاوضات وعرضت المعاهدة لم يكن محمد محمود متحمساً لها تحمس الوفديين ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعارضها لأنه وقع عليها ، وعرضت المعاهدة على مجلس الشيوخ ولكن المرض حال بين الحضور فى الجلسة المخصصة لمناقشة المعاهدة ، ولكن الناس تصورت أن المرض الذى منع (هيكل) من الحضور لم يكن إلا مرضا سياسياً ، ولكنه يؤكد أنه لازم فراش المرض فعلا .

ولما أبرمت المعاهدة وصدق عليها البرلمان وخيل للوفديين أن الدنيا دانت لهم ، وأن لهم أن يطمئنوا إلى المستقبل ، استعانوا على مكافحة خصومهم توطئة للقضاء عليهم بفرق القمصان الزرقاء ، وفى ذات يوم كان هيكل يعبر ميدان الفلكى فى طريقه إلى محكمة الاستئناف ، فلمحه بعض قادة القمصان الزرق داخل السيارة ، فأسرعوا نحوه ، ومن خلفهم أتباعهم وانهالوا على السيارة بالعصى التى كانوا يحملونها ، ولم ينقذ هيكل إلا أن قائد السيارة ، أسرع بها ، ثم رأى

هيكل أن يبلغ النيابة عن الاعتداء الذى وقع عليه ، ولـكن وكيل النيابة أو رئيسها سأله عما إذا كان يعلم أسماء الذين اعتدوا عليه ، ولما كان لا يعرفهم بطبيعة الحال ، اكتفى وكيل النيابة بتهنئته على السلامة ولم يسر خطوة واحدة بعد ذلك فى التحقيق ، وقد كان اعتداء مشابه ، قد وقع على هيكل أثناء الانتخابات السابقة على إبرام المعاهدة فقد خرج عليه عماليق وهو يطوف فى دائرة تمى الأمديد يحملون عصياً وانهالوا بها على سيارته ، فأسرع السائق بها ولولا ذلك لما كتب للـكاتب الـكبير السلامة التى كان مدينا بها فى الحالين لسرعة السائق.

* * *

واتسع نطاق حملة الإرهاب التى تقوم بها فرق القمصان الزرق ، فقد وجهت حملاتها يوما إلى جريدة البلاغ فحطمت ما استطاعت الوصول إليه من أثاث الدار ومتاعه ، ولـكنها لم تستطع أن تحطم آلات المطبعة الحـــديدية ، واعتدت فى يوم آخر على دار السياسة الأسبوعية التى كان يصدرها هيكل منذ أوقف الأحرار الدستوريين إصدار جريدة السياسة اليومية ، ولما علم هيكل بأن فيلقا من هذه الفرق فى طريقه إلى دار السياسة الأسبوعية ، أسرع بترك الدار ، ولم ير البقاء فيها مستعينا بالعمال ، كما فعل من قبل فى سنة ١٩٢٤ حينما كان سعد زغلول فى الحـكم ، ولعل المثل الذى ضربه الوفديون فى سنة ١٩٣٧ حينما اعتدوا على دار البلاغ وحطموا ما فيها ، أقنعه بأنه لا نفع من المقاومة لأن الأمر يومذاك ليس تهديداً صرفا ، وأنه قد يتجاوز ذلك إلى الاعتداء عليه كما هموا بذلك عندما كان فى السيارة بميدان الفلـكى وحدث بعد ذلك أن وجهت الحكومة البريطانية دعوة للصحافة المصرية ، لزيارة بريطانيا ، فـكان هيكل أحد المدعوين ، وكان معه خليل ثابت رئيس تحرير المقطم ، واسكندر مكاريوس رئيس تحرير اللطائف ولما استقبلهم إيدن وزير الخارجية فى مكتبه ، التقط مكاريوس

صورة لإيدن بغير استئذانه ، فكان تعليق إيدن على هذا بأن هذه أول صورة فوتوغرافية تؤخذ فى هـذه الغرفة ، ولعلها آخر صورة . وقد أبدى هيكل ملاحظة جديرة بالتأمل ، فقد بدا له الفرق الواضح بين فخامة حجرة وزير الخارجية والبساطة المسرفة التى اتسمت بها حجرة رئيس القسم المصرى بوزارة الخارجية البريطانية ، فقد اقتصر الأثاث فى هذه الحجرة الأخيرة على المكتب الذى يجلس عليه هذا الموظف الكبير ، فلم يكن إلى جانب هذا المكتب من قطع الأثاث حتى ولا خزانة كتب ، أو مقعدان كبيران أمـام المكتب لجلوس الضيف ، وهما — قطعتان من الأثاث لا يخلو منها مكتب بالغة ما بلغت بساطته

ولذلك كان لا بد للحاجب المخصص لحجرة رئيس القسم المصرى من أن يحمل كرسياً من الخيزران إلى الحجرة ليجلس عليه الدكتور هيكل ، فلما انتهت الزيارة ، حمل الحاجب هذا الكرسى وأعاده إلى موضعه خارج الحجرة . وفى لندن دارت أحاديث بين هيكل وبين خليل ثابت حول مستقبل الوزارة الوفدية النحاسية ، وكان رأى هيكل أن هذه الوزارة لن تعمر طويلا لأنها خرجت على روح الدستور ، وأشاعت الرعب فى صفوف خصومها السياسيين ، وأن الناس ضاقوا بها ، أما خليل ثابت فكان رأيه أن الوزارة مؤيدة بأغلبية برلمانية كبيرة وأنها لهذا جديرة بأن تبقى حتى نهاية الفصل التشريعى الذى يمتد إلى خمس سنوات، فإذا خذلها الناخبون بعد هذه المدة ، أفسحت المكان لمن يظفر بتأييد الشعب ، ولم يعجب هذا الرأى هيكل ودفعه بقوله بأن الأغلبية البرلمانية لا تكفى وحدها لإبقاء أية وزارة فى دست الحكم إذا كان الرأى العام قد تخلى عنها . ولما انتهت الزيارة وعاد الزائرون إلى مصر ، جاء إليها لزيارتها السير رونالد ستورس ، الذى كان منتدباً من وزارة الخارجية البريطانية لمرافقة الصحفيين المصريين أثناء زيارتهم وستورس شخصية لعبت دوراً كبيراً فى حياة مصر والبلاد العربية ؛ فقد كان السكرتير الشرقى فى دار المندوب السامى خلال الحرب العالمية الأولى ،

وفى فترة الثورة المصرية التى اندلعت نيرانها عندما وضعت تلك الحرب أوزارها. وقد عمل ستورس طويلا مع (لورنس) وكتب عنه . وهو إلى جانب هذا كله مستشرق يحسن قراءة اللغة العربية وكتابتها والتحدث بها . ورأى هيكل أن من واجبه أن يسارع إلى استقباله ، رداً على حسن ضيافته للصحفيين المصريين ، ودار الحديث بين هيكل وستورس على مركز الوزارة النحاسية ، فإذا استورس يكرر رأى خليل ثابت ، من أن الوزارة يجب أن تترك حتى تكمل الفصل التشريعى لأنها جاءت إلى الحكم فى انتخابات حرة ، وأن مراعاة أحكام الدستور تقتضى تركها حتى تكمل المدة التى يخول لها الدستور ممارسة الحكم فيها .

وأدرك هيكل أن هذا الرأى هو رأى الدوائر السياسية فى بريطانيا ، وأن الدافع لها هو رغبتها فى رد الجميل إلى الوفديين لأنهم أعانوا على إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وعلى حسن استقبال أغلبية الشعب لها ، ولأنهم هم أنفسهم قد أسرفوا فى الثناء عليها ، وفى بيان مزاياها والعجيب هنا أن (هيكل) تنكر للمرة الثانية لرأيه الذى أبداه لإخوانه وزملائه الدستوريين عقب حادثة مقتل السردار فقد كان من رأيه — كما بينا فى موضع سابق — أن الخير فى ترك وزارة سعد فى الحكم ، حتى تسقطها المعارضة فى داخل البرلمان وخارجه ، وأن تنحية سعد بالقوة عن الحكم قد يكسبه عطفا .

ولكن يبدو أن الملك فاروق استطاع أن يقنع الدوائر البريطانية إقالة النحاس ، فأقال النحاس وأسند تأليف الوزارة إلى محمد محمود ، ولم يتدخل الإنجليز .

وفى هذه الفترة كان زعماء الأحرار الدستوريين وأصدقاؤهم يكثرون من التردد على بيت محمد محمود ، وفى ذات مساء ذهب هيكل إلى الصالون الكبير

فى هذا البيت فإذا عدد من السياسيين هناك بينهم عبد الرحمن فهمى بك الوطنى الكبير وصاحب الدور العظيم فى ثورة سنة ١٩١٩ ، وإذا صاحب البيت يقوم إلى صالون صغير مجاور للصالون الكبير ويدعو إليه الجالسين فيلبى دعوته الجميع إلا عبد الرحمن فهمى ، وبهم هيكل والأستاذ كامل البندارى المحامى للانتقال معهم إلى هذا الصالون ، فإذا بمحمد محمود يقول : «إلى هنا وكفى» فارتفع الدم إلى رأس هيكل فقال : وأنا أيضاً لا أدخل . فأجاب محمد محمود : نعم ، وأقفل الباب . وانطلق هيكل من الصالون إلى باب الدار ، ومعه كامل البندارى يحاول أن يهدئه ، ولكنه يأبى ذاكراً أنه احتمل أثقل عبء فى المعارضة ، فكان جزاؤه أن يهان هذه الإهانة . ومضيا إلى بيت البندارى ، حيث كتبا خطاب الاستقالة ، وعادا بالسيارة إلى بيت محمد محمود حيث سلماه إلى أحد الواقفين على باب الدار لتوصيله إلى رب الدار وانصرفا ، ولم يمض على انصرافهما وقت طويل حتى أقبل محمد محمود نفسه إلى بيت هيكل ودخل إليه وهو يقول: « تزعل منى أنا يا هيكل وتتصور أننى أقصد إغضابك ، لم يكن ظنى بك ذلك » .

فأجابه هيكل : أما وقد حضرت دولتك إلى هنا فأنا أكتفى بهذا وأعتبر المسألة منتهية ، وكأن لم يحدث شىء وأراد محمد محمود أن يسترسل فى الحديث فرد هيكل وهو لا يزال متجهماً : لا ضرورة للكلام فى أمر اعتبر أنه لم يحدث .

ويقول هيكل أنه لم يكن له أن يفعل غير ما يفعل ، وقد حضر محمد محمود معتذرا له دون أن يرتدى معطفه فى ليلة من ليالى ديسمبر الباردة .

وأقيل النحاس وتولى محمد محمود تأليف الوزارة ، واختير هيكل للوزارة التى ضمت شيوخ السياسة يومذاك من أمثال لطفى السيد وعبد العزيز فهمى

وإسماعيل صدقى وحافظ رمضان وعبد الفتاح يحيى . واعتبر هيكل نفسه من الوزراء الشبان فى هذه الوزارة مع أنه كان قد تجاوز الخمسين من عمره بقليل ، ولعل مرد اعتباره هذا إلى أن الآخرين كانوا قد تجاوزوا الستين . واختير هيكل للعمل فى وزارة الداخلية بوصفه وزيراً للدولة ، ويبدو أنه لم يجد شيئاً يعمله ، فدعى الصحفيين إلى مؤتمرات صحفية ، يحدثهم فيها عما فعلته الوزارة ، وعما تنوى فعله ، ويتلقى أسئلتهم ويجيب عليها وهو لا شك تقليد حسن ، وهو تقليد خليق بوزير عاش كل حياته قبل الوزارة فى الصحافة .

ويحدثنا هيكل أن من الأمور التى شغلت أذهان الوزارة عقب تأليفها الانتخابات التى جرت فى نقابة المحامين لانتخاب النقيب ، وكان التنافس فى هذه الانتخابات قد جرى بين محمد على علوبة باشا وبين مكرم عبيد باشا ، فلما وصلت نتيجة هذه المعركة إلى الوزراء معلنة انتصار علوبه على مكرم ، فرح بها الوزراء ، لأن انتخابات المحامين كانت وقتذاك أحسن الدلائل على اتجاه الرأى العام السياسى . ولما قرأت هذه الإشارة إلى انتخابات المحامين فى سنة ١٩٣٧ ابتسمت ابتسامة واسعة ، فقد شهدت هذه الانتخابات بنفسى ، ورأيت كيف وقف رجال الشرطة على أبواب محكمة الاستئناف ليمنعوا دخول المحامين الوفديين إليها ، حتى لا يشاركوا فى الانتخابات ، وكانت الوزارة هى التى أصدرت بطبيعة الحال أو الأوامر لرجال الإدارة ليفعلوا ما فعلوا ، وكان هيكل يعلم كل ذلك ، فلم يكن ثمة داع للسرور بهذه النتيجة إلا أن يكون سبب هذا السرور لا النتيجة فى ذاتها ، وإنما نجاح الحكومة فى إقصاء الوفديين عن نقابة المحامين .

ويحدثنا هيكل عن الرتب والنياشين حديثاً غير قصير ، ذلك لأن الملك أنعم قبيل عيد الأضحى — فى يناير سنة ١٩٣٨ — على رئيس الوزراء ورئيس

الديوان الملكى بلقب صاحب المقام الرفيع ، كما أنعم على الوزراء القدامى أمثال لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وأحمد خشبه بنيشان النيل ، ذلك لأنهم كانوا باشوات من قبل .

أما الوزراء الذى يسميهم هيكل بالشبان والذين كانوا فى الواقع قد أتموا الخمسين ، فلم يظفروا لا بباشوية ، ولا بوسام . ويقول لنا هيكل أنه لم يحفل بهــــذا الأمر ويسوق لنا الدليل وراء الدليل لنصدق أنه لم يأسف إذ تخطته وتخطت زملاءه مثل البندارى وبهى الدين بركات الانعامات الملكية ، فقال أنه كان يرى فى لقبه العلمى ما يدل على قيمته الذاتية ، فضلا عن أنه ذكر لنفسه أن الرتب والألقاب كانت تجارة فى عهد الخديو ، فكان على القادر والراغب فى شراء الرتبة ، أن يدفع الثمن فيحصل على أيهما شاء . أما زميلاه بهى الدين بركات وكامل البندارى فلم يخفيا احتجاجهما على هذا الذى حدث ، وذهب البندارى ليقابل على ماهر رئيس الديوان معترضاً على إغفاله وزملائه من كشف الذين شملتهم الرعاية الملكية بالألقاب والأوسمة وهدد بهى الدين بركات بالاستقالة ، واستجابت دوائر القصر لهذا الاحتجاج وأنعمت على من لم ينعم عليه من الوزراء بالباشوية ، وتلقى هيكل وزملاؤه التهنئة من كل ناحية ، وجاءته فى اليوم التالى بنته وكانت فى الرابعة من عمرها تسأله أصحيح أنه أصبح باشا فلما أجاب بنعم ، سألته مستغربة ، كيف يكون ذلك ، وهو هو على حاله لم يزد فيه شىء ، فضحك وقال خذوا الحكمة من أفواه الأطفال بل من أفواه المجانين .

ويذكر فى هذا بثورة العقاد حينما منح بعض الصحفيين دونه فى هذه المناسبة ذاتها بالألقاب ، وكان العقاد يومها صريحاً لم يخف غضبه ، بل عبر عنه فى أعنف

عبارة. ولعله لم يحط يومذاك بالحكمة التى تجرى من أفواه الأطفال والمجانين.

وينتقل الحديث بعد ذلك إلى الانتخابات ، فلا يدخر هيكل فى هذا الوصف عبارة من عبارات السرور إلا واستعملها ليصف فرحه بنجاحه فى الحملة الانتخابية التى أدارها فى ربيع سنة ١٩٣٨ لحساب مرشحى وزارة محمد محمود وأصدقائها ممن خرجوا على الوفد برياسة الدكتور أحمد ماهر ، والذين ألفوا حزباً لهم باسم الهيئة السعدية وحديث هيكل عن هذه الحملة الانتخابية ، دليل على سذاجته السياسية ، وعدم تمرسه بشئون الانتخابات وما يجرى فى الريف بخاصة فى مواسم تلك الانتخابات. فقد كان سعيداً كل السعادة بالجموع التى تخرج إلى القرى لتحييه وتحيي الوزراء ، حتى كان يصعب على سيارته أن تتحرك إلا بمشقة. والسرادقات التى تقام ليخطب فيها هو وليخطب فيها زملاؤه أعضاء الحكومة تكتظ بالسامعين ، فإذا خطب وليس هو بالخطيب الجيد ، التهبت أكف الحاضرين بالتصفيق ، وانشقت حناجرهم بالهتاف ، وربما تدافعوا ليحملوه على الأكتاف.

وغاب عن هيكل أن رجال الإدارة فى مصر ، مرنوا على حشد جموع الفلاحين لكل رئيس وزارة ، وأن أصحاب المصالح ، وطلابها ، والآكلين على كل مائدة حكومية من العمد والمشايخ والأعيان ، قادرون على أن يجندوا أتباعهم ويسوقوهم سوقاً حيث يهتفون للوزير ، وهم لا يعرفون اسمه ، ولا رسمه ، ولا مبدأه ولما أسفرت الانتخابات عن نجاح الأحرار الدستوريين فى المرتبة الأولى ، السعديين فى المرتبة الثانية هنأ هيكل نفسه ، لأنه هو الذى هيأ لهذا النجاح أسبابه ، بما ألقى من خطب وبما قام من رحلات. ولو علم أن النتيجة لم تكن تتغير فى قليل أو كثير لو أنه قبع فى مكتبه فلم يبرحه ، ولزم الصمت فلم يفتح

بكلمة ، شريطة أن يكون رجال الإدارة على مثل نشاطهم وولائهم للحكومة إبان معركة انتخابات سنة ١٩٣٨ .

ولما أعلنت نتيجة الانتخابات وفرك محمد محمود يده سروراً ، وظن أن وزارته باقية ، وأن ثقة الملك به زادت ، فوجئ بأن أحلامه تتبدد ، وأن الملك الشاب بدأ سياسة أسلافه من عائلة محمد على الذين جروا على امتهان وزرائهم والعبث بهم . يتلقون هذا الدرس على يدى مستشاريهم الذين يكسبون من الالتصاق بهم ، والاختفاء وراءهم . فقد كان على ماهر طامعاً فى الحكم ، وكان يهيئ له الأسباب ويمهد الطرق ، فأخذ يوصى للملك أن يطلب من رئيس الحكومة الذى نجح فى الانتخابات كشفاً بأسماء وزرائه الجدد ، بعد كشف — فيستبقيها جميعاً ، ولا يرفضها ثم لا يقبلها .

وبعد ذلك شكلت الوزارة واختير هيكل وزيراً للمعارف فيها ، ولطفى السيد وزيراً للداخلية ، وكان لطفى راغباً فى أن يعود للمعارف لولا أنه رجاه هيكل أن يدع له هذه الوزارة .

* * *

وذهب هيكل إلى وزارة التعليم — وزارة المعارف — التى آثرها بحبه ، ووقع عليها اختياره ، فحاول أن يجدد فيها ، فكان أول ما تعلقت به إرادته فى التجديد ، هو إدخال نظام اللامركزية ، بانشاء مراقبات محلية فى المديريات والمحافظات تستقل ببعض الأمور دون الرجوع إلى الديوان العام . وهو اتجاه كانت تقضى به المصلحة من قديم ، ولكن كان يحول دون إنفاذه رغبة الوزراء فى أن يرجع إليهم فى الصغيرة والكبيرة . وقد قاوم فعلا كبار موظفى الوزارة إخراج فكرة اللامركزية إلى حيز التنفيذ بدعوى أن الوزارة لن تجد فى موظفيها من تكل إليهم أمر المراقبات فى الأقاليم وهى مطمئنة إلى حسن رأيهم واستقلال

شخصياتهم . وحاول هيكل كذلك أن يرتقى بمستوى تعليم اللغة العربية فى مدارس الحكومة ، واعتقد أن سبيل ذلك الارتقاء ، هو أن يلحق بمدرسة دار العلوم قسم ثانوى يهيىء التلاميذ للحاق بالقسم العالى بها ، لأن مستوى ثانوية الأزهر هبط عما كان عليه من قبل ، ولكن الشيخ المراغى عارض فى هذه الفكرة ، واعتبرها مخالفة لقانون الأزهر وقانون معاهده ، وكان المراغى مسنوداً بالملك ، وصديقاً لرئيس الوزراء ، فنجح فى قتل هذه الفكرة ، ثم خطا خطوة أخرى ، إذ طلب أن يعين خريجو كلية اللغة العربية فى مدارس الحكومة بالتساوى مع خريجى دار العلوم بلا امتحان مسابقة ، ورفض أن يلتحقوا بمعهد التربية قبل تعيينهم كما يلتحق به خريجو الجامعة . ثم ألغى هيكل تعلم اللغة الانجليزية فى السنة الأولى من المدارس الابتدائية حتى لا يثقل على التلميذ فى السنة الأولى الجمع بين تعلم لغتين لغة بلاده ، ولغة أجنبية عنه مما يكون على حساب تعلم لغته القومية ، فشنت عليه جريدة (الاجبشيان جازيت) حملة اتهمته واتهمت وزارة المعارف فيها بأنها تنوى القضاء على اللغة الإنجليزية بدافع من كراهية الأجانب . ثم وضع أساس جامعة الاسكندرية بانشاء كليتى الحقوق والآداب بها . وألزم المدارس الأجنبية بتعليم اللغة العربية وتاريخ وجغرافية مصر ، وأخضع هذه المدارس لتفتيش وزارة المعارف . وحاول أن ينشىء الجديد من مدارس التعليم الأولى والإلزامى فى القرى لأن حال أبنية مدارس هذا النوع من التعليم ، كانت من السوء إلى الحد الذى أزعجه ، غير أن سبباً جديداً للازعاج نجم له حينما جاءت له كبيرة طبيبات الوزارة - وكانت انجليزية - تستنجد به إذ علمت بأنه يفكر فى أن ينشىء مدارس جديدة للتعليم الأولى ، فقد رأت من واجبها أن تذكر له أن أطفال هذه المرحلة يذهبون إلى مدارسهم بملابس لا تكاد تستر أبدانهم ، وهم فى حالة من الضعف وسوء التغذية لا ينفع فيها تعليم بحيث يصبح من الأولى أن ينفق ما استطاع أن يدبره من ميزانية الدولة

لإنشاء المدارس على تغذية الأطفال لا على بناء مزيد من تلك المدارس .

وروى هيكل من أنباء نشاطه فى وزارة المعارف ، أمرا اتصلت به عن قرب ، وكان لى فيه دور ما ، وأعنى بذلك موضوع التحقيق الذى أجرى مع المرحوم سليم حسن وكيل مصلحة الآثار ، على أثر اتهامه باختلاس مال الدولة الذى كان مخصصاً للحفريات التى كانت تجرى فى منطقة الأهرام تحت إشراف سليم حسن نفسه. وقد بدأ هذا التحقيق إداريا فى الوزارة ،فلما شكا سليم حسن من أن المحققين الاداريين يتحاملون عليه ، اقترح عليه الدكتور هيكل أن ينقل التحقيق إلى النيابة فرحب بهذا الاقتراح سليم حسن ، وكتب معبرا عن هذا الترحيب طلباً قدمه إلى الدكتور هيكل الذى أحال هذا الموضوع إلى النيابة العامة ، وهو يتنفس الصعداء لما ظهر له من ميل على ماهر رئيس الديوان الملكى إلى التأثير على التحقيق الذى يجرى فى هذه المسألة .

والحق أن قضية سليم حسن كانت صورة نموذجية لفساد الحكم فى تلك الأيام ، ولغلبة الأهواء على أصحاب السلطان فى ذلك العهد . فالتحقيق الذى أجرى معه لم يكن باعثه الحرص على مال الدعوة ، ولا الرغبة فى أن يسلم الموظفون من شبهات عدم النزاهة ، بل كان الدافع إليه كان عند (دريتون) مدير مصلحة الآثار ، أن تبقى هذه المصلحة ، وتبقى الحفريات التى تتبعها مجالا للنشاط الفرنسى ، ولنفوذ العلماء الفرنسيين بخاصة والأجانب بعامة وكان ـ سليم حسن ـ قد وضع نظاما يحول دون تسرب الآثار التى تكشف عنها هذه الحفريات إلى الخارج عن طريق الأمناء المساعدين فى مصلحة الآثار وكلهم من الإنجليز والفرنسيين والطليان . وانتهز دريتون مناسبتين خاصتين أثارت الأحقاد على سليم حسن ، فتقدم بشكواه إلى وزير المعارف ضد سليم حسن وكانت المناسبة الأولى أن درجة من درجات مصلحة الآثار خلت وأراد أحد صغار الموظفين

الذين كانوا يلوذون بسليم حسن أن يظفروا بها، مع أنه لم يكن حاصلا على أى مؤهل علمى، فأبى عليه ذلك سليم، فانضم هذا الموظف إلى معسكر دريتون، وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى تزوج فيه سليم حسن بسيدة وكان متزوجاً، فاجتمعت زوجته الأولى وبناتها ضده. ومن هذا الثالوث تكونت جبهة ضد سليم حسن، هدفها القضاء عليه. وكانت التهمة المنسوبة إليه أنه كان يزوّر فى كشوف صرف أجور العمال، فيورد فيها أجوراً لم تصرف قط، أو لم تصرف كلها للعمال الموقعين عليها. وقد كان التحقيق الذى أجرى مع سليم حسن خليقاً بأن يبعث به إلى محكمة الجنايات، لولا أن العلاقة بين رئيس الديوان الملكى والأحرار الدستوريين بلغت من السوء إلى أقصى حد. فقد كان على ماهر راغباً فى التخلص من محمد محمود ليرأس هو الحكومة، وكان دريتون على صلة وثيقة بالملك، منذ أن كان فى صحبته فى إحدى رحلاته بالصعيد، وهو بعد ولى عهد - إلى معابد الوجه القبلى - وكان دريتون عالماً كبيراً، ومحدثاً بارعا، فاستولى على الملك وظفر بحبه. كان على ماهر، يضغط بكل قواه لينتهى التحقيق سريعاً، وليلقى القبض على سليم حسن. وانتهز الدستوريون هذه الفرصة ليردوا على مكايد رئيس الديوان لهم، فلم ينيلوه وطره من سليم حسن. وقضت الصدفة أن يكون وزير المعارف ووزير العدل والنائب العام كلهم من الدستوريين، وفى أيدى هؤلاء يجتمع مصير سليم حسن. وسار التحقيق بطيئاً أو على الأقل لم يسرع على الوجه الذى كان يطلبه رئيس الديوان الملكى. وقد كنت محامى سليم حسن وترددت بهذه الصفة على وزير المعارف الدكتور هيكل أكثر من مرة لأطلعه على تطورات التحقيق باسم موكلى ولأشكو من الملابسات غير العادية التى كانت تتصل به وقد كان من غرائب القدر أن قضية سليم حسن لم يؤذن لها بأن تحفظ إلا عندما سقطت وزارة محمد محمود، وتولى الحكم على ماهر نفسه، فأصبح قادراً على أن يتصل بالتحقيق اتصالا مباشراً بعد أن تغير النائب العام الدستورى، وعزل وزير العدل

الدستورى . إلا أن حسن حظ سليم حسن شاء له أن يعين فى وزارة العدل الأستاذ مصطفى الشوربجى ، وكان من زعماء الحزب الوطنى ، وذهبت إليه ، وكشفت له عن البواعث الحقيقية ، وهى بواعث عند الأجانب خصوم بلادنا خلف اتهام سليم حسن فأمر بحفظ التحقيق وبإحالة سليم حسن إلى المعاش ، وقد أخبرنى الأستاذ مصطفى الشوربجى فيما بعد أن الملك ساءه ذلك وعلق على قرار الإحالة على المعاش الذى أرسل إليه مع غيره من قرارات مجلس الوزراء بخطه قائلاً :

« لم أفهم سبب هذا القرار » وأضاف الشوربجى وكان ذلك التعليق مكتوباً بخط ردىء أشبه شىء بخط تلميذ صغير — ويعتقد هيكل أن إخراجه من الوزارة هو وأحمد خشبه ، كان راجعاً إلى موقفه من قضية سليم حسن .

* * *

وفى الفترة التى تلت خروج هيكل من الوزارة ، يحدثنا عن الكثير من مجريات السياسة ، ليس فيه مما يتصل به مباشرة سوى ما يتعلق بصلاته بزميله البندارى .

وكان البندارى قد ترك الأحرار الدستوريين ليكون صديقاً لعلى ماهر ، ووكيلاً له فى الديوان الملكى ، وقد ملأت نفسه ، منذ أخريات سنة ١٩٣٧ ، حماسة شديدة للدين الإسلامى ، وأشهد أننى سمعت منه محاضرات طويلة ، فى أنه لا صلاح للعالم كله إلا بالعودة إلى هذا الدين .

ويروى الدكتور هيكل إنه التقى فى دار الأوبرا ، بالأستاذ كامل البندارى بإحدى فترات الاستراحة بين فصلين من فصول رواية غنائية ، فدار الحديث بينهما عن الدعوة إلى النظام الإسلامى فتساءل الدكتور هيكل كيف يمكن أن تجرى هذه الدعوة ، مع أن بين الإسلام والنظام الدستورى فى البلاد تعارضاً

فسأل البندارى عن مواضع هذا الخلاف فقال له هيكل أن الدستور ينص على حرية العقيدة ، و - والإسلام يعاقب المرتد عن الإسلام بالقتل ، عملا بالحديث « من بدل دينه فاقتلوه » والدستور ينص على أن ولاية العرش وراثية فى عائلة محمد على ، والإسلام يجعل ولاية الملك ، منوطة بيعة المسلمين للوالى ، فقال البندارى أن هذه أمور ثانوية يمكن معالجتها ، ولكن ليس ثمة خلاف جوهرى بين الإسلام ، وأحكام الدستور. على أن الخلاف لم يلبث حتى دب بين على ماهر وصديقه البندارى ، حينما سافر أولهما إلى لندن ، ليفاوض الحكومة البريطانية مع باقى ممثلى الحكومات العربية فى أوائل سنة ١٩٣٩ فى شأن أزمة فلسطين ، فقد بقى البندارى فى مصر ، قائماً بأعمال رئيس الديوان وتصادف أن حل فى هذا الوقت عيد رأس السنة الهجرية فوجه الملك فاروق إلى الشعب المصرى بهذه المناسبة خطابا قال فيه من بين ما قاله أنه ورث من صفات أبيه الاستقلال فى الرأى ، وفهم الناس يومها أن الملك يريد أن يعلن أنه ليس واقعا تحت تأثير على ماهر ، وأن الذى كتب هذه العبارة هو البندارى الذى بدأ يستميل الملك.وعاد على ماهر ، ووقعت القطيعة بين الصديقين ، وراح البندارى يهاجم على ماهر هجوماً شديداً فى كل مكان وعلى ماهر يرد الصاع صاعين .

* * *

وينتقل بنا هيكل بعد ذلك إلى حديث الحرب ، وكيف ساءت العلاقة بين على ماهر رئيس الحكومة والملك نفسه من جهة وبين السفير البريطانى من جهة أخرى ، إذ لم يكن يخفى كل من الملك وعلى ماهر ، اعجابهما بانتصارات الألمان فى المراحل الأولى للحرب ، وقد بلغ الأمر فى هذا الشأن إلى حد القول بان الطليان هم الذين بنوا لعلى ماهر قصره الأخضر فى مزرعته التى كانت أقرب ما تكون من الأسكندرية ثم استفاض الحديث فى هذا الموضوع فقيل أن المهندسين الطليان وعلى

رأسهم المهندس المعمارى فيروتشى كانوا يمارسون نشاطا سياسياً فى القصر ونفوذاً على الملك. ولم يكن مايلز لامبسون السفير البريطانى يخفى ضيقه بالملك وبمسلكه، ويروى هيكل فى هذا الصدد أن حفلة ضمته مع السفير ، فأخذ أحد الوزراء يتحدث عن ذكاء الملك ومواهبه العقلية ، فما كان من السفير البريطانى الا أن علق على هذا الحديث بقوله « ولكن الملك سطحى للغاية » فاتجه السفير إلى هيكل وسأله قائلا : وما رأى وزير المعارف « فا كتفى هيكل بقوله أنه مليكنا »

واستطاع الإنجليز آخر الأمر أن يجلوا على ماهر عن الوزارة ، وأن يحلوا محله حسن صبرى . وقد كان الشائع عن حسن صبرى أنه شديد الصلة بالدوائر البريطانية، وأنه يمالىء فى غير تحفظ السياسة البريطانية. ولذلك لما اختير رئيساً للوزراء ، فزع الوطنيون من هذا الإختيار وعدوه إنهياراً فى سياسة القصر، وهزيمة لكل إتجاه وطنى .

فلما تولى حسن صبرى الحكم كان الطبيعى أن أميل مع الذين مالوا إلى إستهجان أختياره فقد كان صديقاً لبريطانيا بغير جدال ، وقد كان هذا بالفعل شعورى ، ولكن الرجل بقى يزحزحنى وأمثالى عن موقفنا منه شيئاً فشيئاً ويوما بعد يوم حتى توفاه الله ، وهو يلقى خطاب العرش سنة ١٩٤١ . فقد تولى رياسة الوزارة ، وبريطانيا تمر فى أحلك أدوار الحرب مع ألمانيا وإيطاليا . كانت هزائمها قد توالت وشملت كل ميدان والدولة المهزومة يطيش الانهزام صوابهـا ، ولكن حسن صبرى نجح فى ألا يصدر أمراً باعتقال مصرى واحد ، وكان لبريطانيا أكثر من خصم سياسى . ولم يصادر جريدتنا ، وكنا نشتد فى مقالاتنا وكنا خصوماً متطرفين لبريطانيا .

وقد وقع إختيار حسن صبرى على الدكتور هيكل ليكون وزيراً للمعارف

فى وزارته وكان قد انقضى عليه نحو تسعة أشهر لا يشارك فى العمل السياسى قانعاً بالتأليف، فأعد مواد كتابه عن الصديق أبى بكر، وكتبه مستمتعاً غاية الإستمتاع، سعيداً إلى أقصى حدود السعادة بقراءة المراجع التى تؤرخ لعهد أبى بكر، وتروى أمجاد للسلمين وبطولاتهم وكان قد هيأ نفسه لقضاء فصل الصيف فى رأس البر مع عائلته، فلما فاتحه حسن صبرى فى أن ينضم إلى وزارته اعتذر هيكل ولكن حسن صبرى ألح وألح، وعاد الدكتور هيكل إلى الوزارة وإلى العمل السياسى .

وكان السعديون مشاركين فى وزارة حسن صبرى، فرغبوا فى أن تعلن مصر الحرب مع بريطانيا وضد ألمانيا وإيطاليا، بدعوى أن الطليان تجاوزوا حدود مصر من ناحية السلوم ووصلوا إلى سيدى برانى وهى فى منتصف الطريق إلى مرسى مطروح، وكان الإتفاق بين أعضاء الوزارة، أن مرسى مطروح هو الحد الذى تغير عنده مصر موقفها، فتدخل الحرب إلى جانب بريطانيا إذا وصل الألمان والطليان إليه . وهو أمر مضحك كله، يدل على أن السياسة المصرية فى تلك الأيام كانت عبثاً من العبث، لا يفترق فى هذا العبث الذين كانوا ضد دخول مصر الحرب عن الذين كانوا مع دخولها فى تلك الحرب .

ذلك لأن الذين كانوا يبررون وجوب الدخول بأن سكوتنا على توغل الطليان فى بلادنا مهين لشرفنا إذ الواجب يقتضينا أن نسارع بالدفاع عن أرضنا، وأن نرد المغيرين على حمانا فإذا صح هذا القول، فما الذى يجعلنا نسكت على جيش الإحتلال البريطانى، ونخدم البريطانيين ونتعاون معهم بوضع مرافق بلادنا من موان ومطارات وطرق، فى خدمة مجهودهم الحربى. أليسوا غزاة مغيرين؟ أم أن طول وجودهم على أرضنا، قد أحال عدوانهم صداقة؟ أم أننا قبلنا أن نخدع

أنفسنا بالقول بأننا فاوضناهم وتحالفنا معهم وعاهدناهم ، فى حين نحن نعلم أننا فاوضناهم مكرهين ، وتحالفنا معهم مكرهين .

أما الذين كانوا يرفضون الدخول إلى الحرب . وإن كان منطقهم أسلم ، وحجتهم أوضح ، فقد كانوا يقيمون نظريتهم على أن الحرب الدائرة بين معسكر الإنجليز وحلفائهم ، هى حرب بين غزاة يود كل طرف منهم أن يستأثر بالسيادة على العالم ، وأن يقهر من عداه ، ويخرجه من حلبة المنافسة ، فالحرب إذن هى حرب استعمارية لا ناقة لنا فيها ولا جمل . وهو قول صحيح ، ولكن ينقصه ، أننا لا يجوز لنا أن نؤجل جهادنا ضد الإنجليز حتى تنتهى الحرب ، ولا أن نحارب مع الإنجليز ، حتى لو وعدونا بالجلاء الكامل بعد الحرب ، فهم غاضبون ومن حقنا على أنفسنا أن نجاهدهم ونجليهم عن ديارنا فى السلم والحرب ، وهو أمر لم يكن يدخل فى حساب قادتنا ، لأنهم لا يؤمنون به . على أن موقف حسن صبرى لم يلبث حتى تطور فقد بات يؤمن بأن مصر لن تدخل الحرب حتى ولو تجاوزت جيوش الألمان والطليان مرسى مطروح ، ووصلوا إلى الأسكندرية ، بل حتى إذا وصلوا إلى القاهرة ، فمصر دولة محايدة غير محاربة ، وبريطانيا أدركت أن من مصلحة مجهودها الحربى ، وخططها العسكرية أن تبقى مصر على الحياد ، ذلك لأن هذا الحياد ، فرض قيوداً على خطط الألمان . فحال بينهم وبين ضرب المدن المصرية ، ومطاراتها ، وسككها الحديدية ، ومرافقها الكبرى كخزان أسوان وغيره من السدود والقناطر ، التى لو ضربت ، لأشاعت فى مصر من الفوضى ولأقامت فى وجه الإنجليز من الصعاب ، ما كان خليقاً بأن يزيد من متاعبها ، وأن يحملها من الأثقال ما يزيد من أزماتها أضعافاً مضاعفة . لذلك طلب رئيس الوزراء من الوزراء أن يناقشوا الموقف على ضوء تصريحه هذا ، وأن يصدروا فيه قراراً ، وطالت المناقشة ، وطرحت نتيجة المناقشة للتصويت ، فصوت جميع الوزراء فى

جانب عدم دخول الحرب ، وصوت الوزراء السعديون فى جانب دخول الحرب فأعلن حسن صبرى أن الخلاف فى أمر جوهرى كهذا ، لا يستقيم معه أن يبقى السعديون فى الوزارة ، إذ لا ائتلاف مع قيام الخلف على أمر هـذا قدره من الأهمية ، فخرج السعديون من الوزارة .

وفى اليوم الذى جرت فيه المناقشة كان الدكتور هيكل مزمعاً السفر إلى رأس البر ليقضى عطلة آخر الأسبوع مع عائلته فى هذا المضيف ، وكان قد حجز لنفسه مكانا فى الطائرة المسافرة إليه ، ولـكن لما طالت المناقشة إلى ما بعد الساعة الثالثة أقلعت الطائرة دون أن يـكون هيكل من ركابها ، فأسف أشد الأسف على حرمانه من عطلة كان فى أشد الحاجة إليها بعد أسبوع حافل بالعمل والمناقشات المثيرة ، ولـكن كم تغيرت نظرته حينما علم أن الطائرة التى فاته الركوب فيها قد سقطت بركابها ، وأنهم أصيبوا باصابات كان بعضها جسيما .

وحلت دورة البرلمان الجديدة ، ووجب أن يلقى حسن صبرى خطـاب العرش التقليدى فى إفتتاح هذه الدورة ، فطلب إلى هيكل إعداد هذا الخطاب ورجاه أن يوجز فيه ما استطاع ، وأن يقصره على السياسة العامة للوزارة دون الخوض فى التفاصيل ، وأعد هيكل الخطاب على الوجه الذى أشار به رئيس الوزراء وسر به ، وأعلن عن سروره هذا فى مجلس الوزراء . وقبيل يوم الافتتاح أذيع فى الصحف أن الملك سينعم على رئيس الوزراء بوشاح محمد على ، وفى يوم افتتاح الدورة قدم الملك إلى مجلس النواب ، ومن خلفه رئيس وزرائه ، وقد اتشح بوشاح الوسام الجديد ، والغبطة تملأ بآياتها صفحة وجهه ، وقصد الملك إلى قاعة المجلس ، ووقف رئيس الوزراء يلقى الخطاب فى صوت جهورى ثم ما لبث أن خفت صوته بعد أن كان جهوريا رنانا ثم مال مستنداً إلى

رئيس مجلس الشيوخ ثم تفلت الأوراق من يده ثم يتهالك إلى الأرض فى أناة ثم ينحدر فوقها بلا حراك .

وفيما كان الوزراء يشيعون جثمان رئيسهم السابق ، همس حسين سرى فى أذن هيكل ، بأنه وزملاؤه مرجوون إلا يغادروا القاهرة ، فأدرك من ذلك هيكل أن حسين سرى قد كلف تأليف الوزارة الجديدة وأنه سيكون من أعضائها وكان حسين سرى ، زوج خالة الملكة فريدة . وكانت هذه الصلة بالملك أهم عناصر ترشيحه لهذا المنصب الكبير ، فوق سابق صلاته بالإنجليز ، وطول عمله معهم فى وزارة الأشغال .ولم ينقض وقت طويل على وفاة حسن صبرى حتى لحق به محمد محمود رئيس حزب الأحـــــرار الدستوريين والذى عمل معه هيكل سنين طويلة .

وانتخب الدستوريون عبد العزيز فهمى رئيساً لحزبهم ، بعد تردد منه وتمنع بدعوى انقطاعه عن السياسة منذ اختير رئيساً لمحكمة الاستئناف سنة ١٩٢٧ ثم رئيساً لمحكمة النقض سنة ١٩٢٨ حيث بقى على رأسها إلى سنة ١٩٣٥ .

ولما ولى هيكل وزارة المعارف للمرة الثالثة ، كان من أعماله السياسية ، نقله الشيخ حسن البنا من مدرسة المحمدية الابتدائية بالقاهرة حيث كان يعمل فيها مدرساً للغة العربية إلى إحدى قرى الصعيد، بناء على طلب رئيس الوزراء حسين سرى، الذى استجاب بدوره فى هذا للانجليز. ولما اعترض عدد من نواب الأحرار الدستوريين على هذا النقل ، ورجوا (هيكل) أن يعيد حسن البنا إلى القاهرة رفض لأن النقل كان بناء على توجيه من رئيس الوزراء ، فذهب هؤلاء النواب إلى عبد العزيز فهمى رئيس الحزب الذى تحدث إلى رئيس الوزراء فى هذا الشأن

فوافق هذا الأخير على إعادة حسن البنا إلى القاهرة ، وقد رأى هيكل فى هذا العدول عملا غير حكيم ، لأنه أشعر حسن البنا بقوته ، فتمادى فى نشاطه السياسى .

ويروى هيكل الكثير من حوادث السياسة المصرية التى صاحبت هزائم بريطانيا وحلفائها فى شمال إفريقيا والتى انتهت بدخول (روميل) عنصراً جديداً فى تلك الحرب التى كانت مجالا بين الطليان والإنجليز ، ينتصر الطليان حينا حتى يبلغوا مرسى مطروح ، ثم ينهزمون ، حتى تسقط طبرق فى أيدى الانجليز ، وهكذا دواليك ، حتى ظهر روميل على المسرح الحربى ، فانقلبت انتصارات الألمان والطليان إلى موجة عالية مستمرة ، تزداد على الأيام علوا ، تنحسر أمامها موجة الإنجليز .

هنا أدرك الانجليز أنهم لا يستطيعون أن يواجهوا الحرب ، ومن خلفهم مصر ، يبدى فيها حزب الأغلبية ، برياسة النحاس من علامات التبرم والتفزز ما يسببه حرمان هذا الحزب من الحكم ، وإقصاؤه عن الوزارة .

وقد انتهى هذا كله بحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، الذى فرض فيه الانجليز على البلاد النحاس ، بدباباتهم . ولكن قبل ذلك وقع حادث كانت لى به صلة وثيقة ، هو حادث فرار عزيز المصرى بطائرة من طائرات سلاح الجو المصرى ، يصحبه طياران من ضباط هذا السلاح وقد أخطأ الدكتور هيكل إذ أثبت فى مذكراته أن عزيز المصرى حاول الخروج من مصر ، مع طيار واحد ، والحقيقة أن زميليه فى هـــذه المحاولة كانا اثنين هما حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف .

ويصف لنا كيف وقع رئيس الوزراء فى هم عميق عندما بلغه نبأ هذه المحاولة التى أخفقت بسقوط الطائرة عند قليوب ، بعد اصطدامها بأسلاك التليفون فى يوم

من ايام شهر مايو سنة ١٩٤١ . وكيف بذل حسين سرى كل جهده للعثور على الضابط الكبير وزميليه الشابين ، وكيف طال البحث عنهما دون نجاح ، حتى وفق أخيراً البوليس إلى العثور عليهما مختبئين فى بيت بامبابه ، هو بيت المثال عبد القادر رزق .

وقد وقع هذا الحادث ، وأنا فى أسوان أترافع فى قضية اتهم فيها واحد من أبناء كبار التجار فى تلك المدينة، وفيما أتهيأ لمبارحة المحكمة بعد المرافعة ، امتلأت حجرة رئيس النيابة بكبار موظفى المديرية وعلى رأسهم وكيل المديرية ، ثم أعلمونى ـ على استحياء ـ بأنه مطلوب تفتيشى ثم ضبطى وإحضارى إلى القاهرة تحت حرس مسلح ، وقد تم هذا كله فرحلت إلى القاهرة حيث أفرج عنى ليعاد إعتقالى مرة أخرى عند العثور على عزيز المصرى ، إذ وجد مع صاحب البيت الذى اختفى فيه عزيز المصرى وزميلاه خطاباً موجها من عزيز باشا إلىّ يرجونى فيه أن أتسلم بريده من مكتب شركة كوك بالقاهرة ، وكان طلبا ساذجاً ، مستحيل التنفيذ ، وكان ذلك الخطاب المبرر الظاهر للقبض علىّ واعتقالى فترة ، وإن كانت صلاتى بعزيز المصرى وبنشاطه ، فى ذاته داعيا لاعتقالى ، الذى لم يؤخره إلا رغبة السلطات البريطانية ، فى التعرف على جوانب عديدة خافية من النشاط الوطنى السرى فى تلك الفترة ، بمراقبتى ، وكان تحفظى واحتياطى قد حتم عليهم أن يلتزموا جانب الصبر ، عساهم يعرفون مدى هذا النشاط والمشاركين فيه ، وهوياتهم وأسلوب عملهم ،وطبيعة اتصالهم .

* * *

أما حادث ٤ فبراير فقد بدأ حينما أضطر حسين سرى إلى الاستقالة من الوزارة فى ٢ فبراير سنة ١٩٤٢ ، بعد أن قرر مجلس الوزراء قطع علاقات مصر السياسية مع حكومة فيشي الفرنسية التى كانت تتعامل مع الألمان ، فى حين كان

ديجول فى لندن يمثل حكومة فرنسا الحرة اللاجئة . فقد تقرر قطع العلاقات مع حكومة فيشى هذه ، بينما كان الملك فاروق فى أسوان ، ودون أن يرجع إليه حسين سرى ويستطلع رأيه ، فغضب عليه ، وأمر رئيس الديوان الملكى أحمد حسنين ، أن يطلب من رئيس الوزراء أن يأمر بدوره صليب سامى وزير الخارجية أن يلزم داره . ثم حدث أن بلغت أنباء انتصارات روميل وزحفه المستمر إلى اسكندرية ، القاهرة ، فقامت مظاهرات اكاد أقطع بأنها من تدبير المخابرات البريطانية ، استغلت بها حماسة الشباب غير المتريث ، فأوحت إليهم أن يهتفوا « تقدم يا رومل ! وإلى الأمام يا رومل ! » فتلقفت السفارة البريطانية هذا الحادث لتتكىء عليه فى طلب إسناد الوزارة إلى زعيم الأغلبية ، لأنه وحده القادر على أن يضبط مشاعر الشعب ، وأن يعبئها فى جانب بريطانيا الحليفة ولمصلحتها . وفعلا ذهب السير مايلز لا مبسون مع الجنرال ستون قائد القوات المسلحة البريطانية فى مصر بعد إنذار للملك يتضمن وجوب دعوة النحاس لتأليف الوزارة قبل الساعة السادسة من مساء يوم ٤ فبراير . واضطر الملك إلى أن يكل إلى النحاس تأليف الوزارة ، وكان قد بقى طويلا خارج الحكم ، فرحب بهذه الدعوة ، وكان هذا كله بداية النهاية للملك ولأحزاب تلك الحقبة .

ولو أن الملك التزم البيان الذى أعده وتلاه رئيس الديوان الملكى على زعماء الأحزاب فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٤ فبراير ، لتغير وجه التاريخ فقد ختم الملك بيانه هذا بقوله : « لا تجعلوا لأى اعتبار آخر حساباً . إننى مستعد فيما يتعلق بشخصى أن أضحى بكل شىء فلا شىء يعنينى غير مصلحة مصر وكرامة استقلالها . » وقد كانت هذه الكلمات مفعمة بروح وطنية عالية ، وكانت عنواناً على موقف ملىء بالمفاداة والشجاعة فى مواجهة المخاطر من أجل الوطن ، ولكنها كانت مجرد كلام إذ أن الملك لم يلبث حتى رضخ لتهديد الإنجليز ، وقبل أن يكلف النحاس بتأليف الوزارة ، فمهد طريق التدهور للنحاس ،

ولو أنه رفض الإذعان لتهديد الإنجليز ، لتردد الإنجليز فى عزله ، ولجبن النحاس عن قبول الوزارة ، ولو عزل لوفر على نفسه سنوات من التخبط، ولحل فى التاريخ وعند المصريين ، شخصاً آخر .

ولسنا بصدد رواية تاريخ ٤ فبراير ، إلا فيما يخص هيكل فقط . .

قال إنه دعى لمقابلة الملك فى مكتبه بعابدين بعد أن سبقه إلى ذلك النحاس وأحمد ماهر فلما استقبله الملك قال له : هذه أول مرة تحدثنى فيها باسم الأحرار الدستوريين ، وأنا مسرور للقائك وقد عرفت رأيك مفصلا . وإنك ترى تأليف وزارة قومية ولو برياسة النحاس». فشكر للملك تحيته ولما قال للملك إن الموقف لا يحتمل التأجيل ، وأن الظرف يتقضى سرعة إقناع النحاس بتأليف وزارة قومية ، ابتسم الملك وقال بالفرنسية «لكنى لا أصنع المستحيل» .

فأجابه هيكل إذا كان فى هذا البلد مس يستطيع أن يصنع المستحيل فذلك هو الملك ، وكم كنت أود لو أن مكرم عبيد باشا دعى مع النحاس باشا فله عليه تأثير بالغ : فقال الملك سآمر بدعوة مكرم غداً ، ولا تبالغ فى مخاوفك ، فستمر هذه الأزمة الوزارية كما مرت غيرها من قبل ، وسنجد رئيس الوزارة الجديد على نحو ما وجدنا حسن صبرى ثم حسين سرى» .

ولما تلكأ الملك فى تكليف النحاس بتأليف الوزارة ، أحاط الإنجليز قصر عابدين بالدبابات ، واقتحموا على الملك مكتبه ، وطلب إليه السفير البريطانى أن يوقع وثيقة تنازله ، فهد الملك لتراجعه ، بقوله «بأنه مستعد أن يوقع الوثيقة بعد كتابتها على ورقة تليق بقيمتها التاريخية» ثم انتقل الملك من ذلك إلى القول « ومع ذلك فما الإصرار على هذا الموقف من جانبكم وقد كلفت النحاس بتأليف وزارة قومية لاعتقادى بأن هذا أدعى لتوفير سلامة مصر كقاعدة حربية أكثر من قيام وزارة حزبية ، فإذا كان رأيكم غير هـــذا ،

فـأ كلفه كطلبكم تأليف هذه الوزارة » وانسحب السفير والقائد ، ثم الدبابات ودعى الزعماء من جديد ، كما دعى معهم النحاس باشا ويصف الدكتور هيكل شعوره فى تلك الليلة فقال :

« وأقبل النحاس باشا فأمسكنا عن الكلام ، وشعرت بفتور وبرد يسرى فى جو قاعة مجلس البلاط حيث كنا مجتمعين ، وكأنما امتلأ الجو بأشباح هذه الدبابات التى كانت تحيط بالقصر منذ قليل » .

وقد كانت حادثة ٤ فبراير سبباً فى اتصالى بالدكتور هيكل إبان رياسته لمجلس الشيوخ ، فقد وكلت عن صول طيار ، هرب بطائرته خلال الحرب العالمية الثانية ، فى فترة احتلال الألمان لواحة سيوه ، وقد نظرت قضية ذلك الصول أمام مجلس عسكرى عال ، يرأسه ضابط كبير ، وقد كان دفاعى يقوم على أن بريطانيا لم تعد حليفة لمصر ، لأنها فسخت المعاهدة التى تنص على المحالفة بين البلدين بارتكابها حادث ٤ فبراير وإحاطتها قصر رئيس الدولة بالدبابات وتدخلها فى شئون مصر الداخلية ، وكان لابد لإثبات حادث ٤ فبراير أن يسأل بعض الذين شاهدوا هذا الحادث بأعينهم إذ المفروض أن الحاكم لا تقضى فى القضايا المعروضة عليها بعلمها ، وطلبت لذلك إعلان ثلاثة من الشهود هم الدكتور محمد حسين هيكل وإسماعيل صدقى وحافظ رمضان وبذلت الحكومة يومذاك جهداً كبيراً لتمنع هؤلاء الشهود من الحضور أمام المحكمة والإدلاء بشهادتهم ، وقد ذهب فعلا السيد سليم وزير الحربية فى وزارة الدكتور أحمد ماهر إلى حافظ رمضان باشا فى بيته ، وألح عليه فى عدم تلبية دعوة المحكمة للشهادة ، واستجاب حافظ رمضان لهذا الضغط ، ولكن رفض كل من إسماعيل صدقى والدكتور هيكل الإستجابة له وحضرا وأديا شهادة وافية وصريحة ، ولما سألت الدكتور هيكل هل يعتقد أن الإنجليز استعمارا

ضغطاً لإكراه الملك لإتيان حمل من حقوقه ، قال الدكتور هيكل :

ذهبنا إلى قصر عابدين وكان الظلام حالكا ، وكان حول القصر دبابات بريطانية ، ولك بعد ذلك أن تتصور ماذا يمكن أن يكون الغرض من هذا كله .

وقال إسماعيل إذا لم تكن الذاكرة قد خانتني — إنه يعتقد أن حادث ٤ فبراير يعتبر فسخاً للمحالفة المصرية البريطانية .

وقد يكون من الواجب ، لنكمل صورة حادث ٤ فبراير ، أن نذكر أنه حينما ذهب السفير البريطاني في اليوم التالي إلى مقر رياسة مجلس الوزراء ، ليهنىء النحاس باشا بتشكيل الوزارة التي طلبها الإنجليز ، وعززوا طلبهم إياها بالدبابات والمدافع ، حشد الوفديون جموعاً ، استقبلت السفير البريطاني بالهتاف بحياته ولعلهم رفعوه فوق الأعناق ، وكان حافظ رمضان ينشد كلما ذكر ذلك الموقف المخزي ، بأبيات شعر من رواية كليوباطرة لشوقي :

انظروا الشعب ديون كيف يوحون إليه
أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ملأ الجو هتافاً بحياة قاتليه
ياله من ببغاء عقله في أذنيه

ولما تولى النحاس باشا الحكم ، واستمرت هزائم الإنجليز ، وتقدم الألمان بقيادة روميل نحو اسكندرية ، بلغ اسماعيل صدقي ، أن الإنجليز منتوون أن يغرقوا مديرية البحيرة حتى يعوقوا تقدم اعدائهم وأنهم سيحرقون ما في البلد من مخازن البترول ، وأن ذلك سيؤدي إلى إلحاق خسارة بالاقتصاد المصري ، لن ينجو من آثارها الوخيمة إلا بعد سنوات طويلة ، فاتفق صدقي مع حسين سري وأحمد ماهر على أن يوفدوا

(هيكل) لمقابلة النحاس باشا ويطلعه على ما اتصل بعلمهم من نوايا الإنجليز ، ورجوه بأن يتحدث إليهم ليعدلوا عن هذه الخطة التى تدمر مصر ، وقد يعودون إليها فى مرحلة تالية من مراحل الحرب ، فيجدوا كل مرافقها محطمة ، مما يزيد أعباءهم . وقبل الدكتور هيكل أن يطلب من النحاس باشا موعداً عن طريق صهره الاستاذ محمد صلاح الدين الذى كان سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء ، واستقبل النحاس باشا الدكتور هيكل فى منزله بمصر الجديدة وطمأنه إلى أنه مستيقظ لكل ما قد تأتى به الحرب من متاعب للبلاد ، وأنه أمر محافظ الاسكندرية بأن يحسن استقبال القائد الألمانى عند وصوله إلى الاسكندرية .

وتلت ذلك أحداث كثيرة ، فقد توقف زحف الألمان عند العلمين ، وقيل أن سبب ذلك أن شحنات البترول التى كانت مرسلة له قد توقفت ، ومن قائل أن (هتلر) منع عن قائده المظفر ما يحتاج إليه فى حربه فى شمال إفريقيا بباعث الغيرة التى يقع الحكام المطلقو السلطة ضحايا لها . فقد استفاضت شهرة (روميل) حتى كاد يكون أسطورة من أساطير الحرب الحديثة ، لا يدانيها فى غرابتها وسحرها على العقول شىء آخر مما حدث فى الحرب العالمية الثانية . ومثل هذه الشهرة التى تكلل هامة القائد الألمانى تجعله عند الأزمات ، أملا من آمال الشعب الألمانى ، أو زعيما للمعارضة الخفية للزعامة الهتلرية .

على أن الذى يهمنا أنه كان لانحسار الخطر العسكرى عن مصر أثره فى الداخل فقد نشطت الحركة فى الجبهة الداخلية وكان للدكتور هيكل فى هـــذا النشاط نصيب ، إليك بعض صوره كما جاءت فى مذكراته :

كان الملك فاروق عائداً بسيارته عن طريق المعاهدة الذى يصل بورسعيد بالقاهرة فلما وصل إلى قرية القصاصين ، حيث كان معسكر للانجليز ، خرجت سيارة بريطانية مصفحة فجأة اصطدمت بسيارة الملك الذى وقع على الأرض

فاقداً للوعى ، واتضح بعد ذلك أن شرخاً أصاب عظام الحوض ، وأنه سيضطر إلى ملازمة المستشفى العسكرى فى المعسكر البريطانى حتى يتم له الشفاء ، وتوافدت وفود من الأقاليم تعبر عن عواطفها بمناسبة هذا الحادث ، وكان للمعارضون لحكم النحاس ، والمحتجون على حادث ٤ فبراير قد اتخذوا من هذه المناسبة فرصة لاحتجاجهم . وفيما كان الملك فى سرير مرضه ، جاء إلى مصر ، روزفلت وتشرشل وتشان كاى شيك ، فعقدوا اجتماعاً فى فندق مينا هاوس ، تداولوا فيه فى شئون الحرب ومستقبل علاقات بلادهم بعضها ببعض ، وفى هذه الأثناء تلقى الدكتور هيكل دعوة لمقابلة الملك فى القصاصين مع الدكتور أحمد ماهر وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ، ولما مثلوا فى حضرة الملك ، لفت نظرهم إلى أنه يجب أن ينتهزوا فرصة انعقاد هذا الإجتماع السياسى الكبير بين أقطاب الدول الغربية ، ليطالبوا بحقوق مصر لقاء ما أسدته من معونة للمجهود الحربى الغربى ، فاجتمع الزعماء المصريون الثلاثة مع إسماعيل صدقى ، ووضعوا مذكرة بمطالب المصريين وقد تولى ترجمتها إلى الفرنسية إسماعيل صدقى ، ثم أرسلوها إلى الرؤساء بعد أن تعذر عليهم أن يحصلوا على موعد من هؤلاء الرؤساء .

* * *

وفى ذات يوم كان الدكتور هيكل فى منزله ، فإذا بمكرم عبيد باشا يدخل إليه ، ومعه شىء ملفوف فى ورق يدفعه إلى هيكل ، الذى يكشف عنه وهو يسأل : ما هذا ؟ فيجيبه مكرم أنه الكتاب الأسود ، ويرى فعلا هيكل كتاباً ذا غلاف أسود ، سجل فيه مكرم جميع ما تورطت فيه وزارة النحاس من أخطاء ، ومخالفات لمقتضيات الحكم الصالح ، والنزاهة ، والعدل والحيدة بين المواطنين. وكان مكرم عبيد قد خرج من الوفد ، على أثر صدام متكرر بينه وبين حرم مصطفى باشا النحاس أدى إلى خصومة حادة بينهما ، حاول النحاس باشا

أن يضع لها حدا فلم ينجح . وقد أعان على إلهاب هذه الخصومة ، وإشعال نارها ، أن أسهم الوزير الشاب فؤاد بك سراج الدين الذى كان قد انضم إلى الوفد قبل تلك الأيام بقليل ، كانت فى صعود مستمر عند النحاس وفى دوائر الوفد ، وكان مكرم هو صاحب الكلمة النافذة ، عند النحاس ، والإرادة المحركة لكل نشاط فى الوفد . فلما خرج من الوفد ، أخذ يحصى على رئيسه وصديقه السابق وعلى أنصاره وأتباعه ، وأصهاره وأشياعه ، أخطاءهم ، وجمعها فى كتاب ، حرره بأسلوبه المسجوع الذى كان يطيب للكثيرين ، وطبعها فى خفية من الحكومة وعيونها ، وأعانه القصر الملكى إعانة غير قليلة فى هذا الصدد ، فلما وزع الكتاب بعد طبعه اهتزت له دوائر الحكومة وحزب الوفد ، وتلقفه الناس ، فى لهفة وشوق ، وتبادلته الأيدى فى سرعة ، حتى أصبح حديث الناس جميعاً ، ثم تجاوز مصر إلى صحف بريطانيا . وقد سكتت الحكومة أول الأمر على هذا الكتاب ثم لم تجد بدا بعد ذلك من أن توعز إلى أنصارها أن يقدموا أسئلة عن الأمور التى وردت فى الكتاب الأسود ، ليرد عليها الوزراء رداً يتضمن دحض اتهامات مكرم . ونصح أصدقاء مكرم له بأن يقدم هو استجوابا عن المسائل التى ضمنها كتابه ، فأقدم على ذلك بعد تردد خوفا من مقاطعة الأغلبية الوفدية له ولكنه استطاع آخر الأمر أن يشرح استجوابه فى جلسات متعددة حتى بح صوته . وقام الوزراء كل فيما يخصه برد على هذه الاتهامات ، مستغلين نقط الضعف فى الاستجواب . ولما انتهى الاستجواب بالثقة بالحكومة ، تقدم اقتراح بفصل مكرم من عضوية مجلس النواب ، ووافق المجلس بأغلبية ساحقة على هذا الفصل . ويذكر هيكل بأن المعارضة كانت قد طلبت من مكرم عبيد حينما كان سكرتيراً للوفد أن ينزل الوفد عن ثلث مقاعد المجلس حتى لا تجرى معركة انتخابية فى فترة الحرب ، فأبى مكرم قبوله أن النحاس باشا يريد أن يكون للوفد جميع الأغلبيات التى يتطلبها الدستور ومنها أغلبية ثلاثة أرباع أصوات

النواب التى تبيح إسقاط عضوية النائب ، حتى بعد إعلان صحة انتخابه ، ويقول الدكتور هيكل أن هذه الأغلبية كان مكرم حريصاً على توفيرها لحزبه ليكون مطلق اليد فى تقرير مصير أعضاء المجلس النيابى ، استعملت أول ما استعملت ضده هو ، ثم ضد اثنين من أنصاره .

وقد اجتمع مكرم وهيكل فى مصيف رأس البر ، بعد خروج مكرم من الوزارة ، فتحدثا معاً فى سبب التغير الذى طرأ على علاقة مكرم بالنحاس . فقال مكرم ، على ما روى هيكل فى مذكراته — أن حرم النحاس باشا كانت تكرر أن زوجها إذا خرج من الوزارة بقى لا يعمل عملا يدر عليه مالا ، بينما يتقاضى مكرم مرتب الوزير فى الوزارة ، ويجنى أرباح المحاماة خارج الوزارة ، وأنها لذلك كانت ترى زوجها مغبوناً ، وترى حظها غير سعيد إذ تزوجت رجلا فقيراً ، فلما ذكرهـــا مكرم بما لزوجها من مكانة وحب عند الناس ، قالت « يكفينا نميرها » .

* * *

ويعرض الدكتور هيكل لأمرين أخريين كان لى بهما معاً صلة وثيقة .

أولهما توزيع الدوائر الانتخابية بين الأحزاب التى ألفت الوزارة بعد إقالة النحاس باشا فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، بعد أن انتهت الحرب فى أوروبا إلى انتصار البريطانيين وحلفائهم ، وانهزام ألمانيا وتسليمها بلا قيد ولا شرط ، إذ لم يعد الإنجليز حريصين على استبقاء النحاس وقد كانت وزارته ضرورة من ضرورات الحرب .

ولما أقيل النحاس باشا تألفت الوزارة برياسة الدكتور أحمد ماهر رئيس السعديين ، ودخلها معهم الدستوريون ، برياسة الدكتور هيكل ، ومكرم عبيد وأنصاره الذين كونوا حزباً إسمه « الكتلة الوفدية » ثم الحزب الوطنى وقد مثل حافظ رمضان الوطنيين .

كان كل حزب من هذه الأحزاب المؤتلفة يريد أن يزيد من عدد دوائره على حساب الأحزاب الأخرى زاعماً أن له من الأنصار أكثر مما لغيره، وأن مصلحة الإئتلاف تأييد المرشح الأقوى، بغض النظر عن الحزب الذى ينتمى إليه وإلا كسب الوفد المعركة، وهو خصم الجميع. وقد مثلت الحزب الوطنى فى اللجنة التى شكلت لتوزيع الدوائر على المرشحين وكانت تنعقد حيناً فى منزل مكرم عبيد وأحياناً فى منزل أحمد عبد الغفار النائب الدستورى الذى أصبح وزيرا فيما بعد. وقد كنت غريباً عن هذا الجو، وعن المساومات التى تجرى فيه، وكانت الأحزاب متفقة على أن الحزب الوطنى هو أضعف الأحزاب، وأقلهم حقاً فى أن يطلب لنفسه دوائر انتخابية، وأن مرشحيه لن يقووا على مقاومة الوفديين. ولم أكن أكلف نفسى مشقة الرد على هذا الكلام لأنه صحيح فى جملته، ولكن كانت حجتى التى أكررها لهم: أن الذى أضعف الحزب الوطنى إنتخابياً، هو مقاطعته للحكم، والناس لا تؤيد الأحزاب حباً فى مبادئها، بل جريا وراء مصالحها، ونحن لا مصلحة لنا فى الاشتراك فى الوزارة، إلا أن نهيء فرصة لعدد من الشبان، هم فى ذاتهم طراز جديد، أن يخوضوا المعركة الإنتخابية ويعرضوا أنفسهم على الناس، فإن لم يتيحوا لهم هذه الفرصة، وأن يتحملوا الخسارة التى قد تنجم عن ذلك، فالأولى بالحزب الوطنى أن يترككم إلتزاماً لخطته السليمة والقديمة». ولم تنفع حجتى، وعملنا نحن شبان الحزب الوطنى وقتذاك — على أخراج حافظ رمضان من هذه الوزارة. ولكن كم كان ممتعاً أن أشهد جلسات توزيع الدوائر، وأن أرى ممثلى الأحزاب وهم يتراشقون بالتهم، وأحياناً بالسباب، وأن أرى شيوخ السياسة، وقد خرجوا عن طورهم، ونسوا وقارهم، تنافساً على دائرة، وليس بين هؤلاء جميعاً خلاف على رأى، ولا على منهج، ولا على هدف، وإنما هى جماعات لاقتسام النفوذ، ومزايا الحكم. وليس معنى هذا، أن هذه الجماعات كانت تخلو من رجال ذوى مواهب، وذوى إرادة، تنطوى

صدورهم على حب مصر ، وتطمح نفوسهم إلى خيرها ، فقد كان فيهم الأذكياء ، وحسنو الاطلاع ، وكان منهم المستنيرون ذوو العقول ، ولكنهم كانوا جميعاً ضحايا أسلوب من العمل لا يؤمن إلا بالحكم ، ولا يفكر إلا فى ظله ، ولا يرتب الأمور ألا على أساسه. فلو عمت مصر ، روح كالروح التى أثارها غاندى فى الهند، أو ديفاليرا وحزب الشين فين ، و (فيانا فيل) فى أرلندا، لاتجهت إرادة بعض هؤلاء المتصارعين على الحكم فى بلادنا إلى أعمال وطنية ، وجهاد وطنى ، يعتمد على الشعب ، لخرج من صفوفهم ، زعماء أوسع أفقاً ، وأعظم أثراً ولكان للحركة الوطنية المصرية خارج حدود مصر ، أثراً أعلى قدراً ، وأطول عمراً من أثر الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولتقدمت بلادنا بخطى أوسع ، ولتحركت فيها مواهب أرفع مقاماً ، وأعلى شأناً .

أما الأمر الثانى ، الذى أشار إليه (هيكل) فى مذكراته والذى اتصلت به اتصالا وثيقاً كذلك ، فذلك هو الحادث الفاجع ، حادث إغتيال المرحوم الدكتور احمد ماهر فى القاعة الفرعونية بمجلس النواب فى مساء يوم ٢٥ من فبراير سنة ١٩٤٥ على أثر اطلاق رصاصات عليه من المرحوم محمود عيسوى المحامى الشاب .

ويرجع أصل هذا الحادث إلى تبليغ تلقته الحكومة المصرية من حكومة الولايات المتحدة يتلخص فى أن الخمسة الكبار : الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين ، قد وضع خبراءهم مشروعا لإنشاء منظمة دولية تقوم مقام عصبة الأمم ، وتهدف إلى إنشاء نظام لتوثيق العلاقات بين الدول فى ظل تعاون دولى ، يمنع الحروب واستعمال القوة لحل المشكلات ، وإن هذا المشروع سيعرض على مؤتمر دولى فى سان فرانسيسكو ، كما أن هؤلاء الخمسة اشترطوا على الدول التى ترغب فى الإنضمام إلى هذه المنظمة أن تعلن

الحرب على خصوم الحلفاء قبل أول مارس سنة ١٩٤٥ . ولم يرد الدكتور ماهر أن يستقل بالرأى فى هل تعلن الحكومة المصرية الحرب ضد ألمانيا واليابان قبل أن يتداول مع الدكتور عبد الحميد بدوى والدكتور هيكل فى هذا الشأن .

ولم يتردد هيكل ولم يتردد بدوى فى أن ينصحا بوجوب إعلان الحرب، حتى يتاح لمصر الاشتراك فى هذا المؤتمر وكانت حجة هيكل أن الخير كل الخير لمصر ، أن تشترك فى الحلبة الدولية ، خروجاً بقضية مصر من الدائرة الثنائية إلى الدائرة الدولية . ولكن الدكتور ماهر رأى مع اقتناعه سلفاً بهذا الرأى — إذ كان من دعاة الدخول إلى الحرب منذ بدأت الحرب — بأن يهيء الجو لهذا القرار حتى يسيغه المصريون ، بعد أن انتهت الحرب دون أن تشترك فيها واقترح أن يدعو إلى لجنة تضم جميع أهل الرأى من جميع المشارب والهيئات السياسية بما فيهم الوفد. ودعى الوفد مع من دعى من ممثلى الأحزاب الأخرى فرفض الوفد أن يلبى الدعوة للاشتراك فى هذه اللجنة جريا على سياسته فى مقاطعة كل عمل تقوم به أو تدعو إليه الحكومة . وعقدت اللجنة إجتماعات كثيرة، ناقشت فيه نصوص المشروع الذى وضعه مندوبو الخمسة الكبار فى مدينة (دمبرتون أوكس) وانتهى الرأى إلى التوصية بإعلان الحرب، ونقلت هذه التوصية إلى مجلس الوزراء فأقرها . ودعى مجلس النواب لجلسة خاصة فى ٢٥ من فبراير سنة ١٩٤٥ — كما سلف القول — للمناقشة فى هذا الموضوع وإصدار قرار بشأنه . وفى نفس اليوم أصدر الوفد بياناً بتوقيع مصطفى النحاس قال عنه هيكل انه يتهم الوزارة بأنها تضر بمصالح البلاد ضرراً يكاد يبلغ الخيانة بما تريد من إعلان الحرب ثم قال فى مذكراته :

«وبدأت الجلسة سرية . واستمرت كذلك ، وخطب رئيس الوزارة فيها ساعات متعاقبة — حضرت جانباً منها ثم ذهبت إلى مجلس الشيوخ أنتظر فى

غرفتى إنتهاء جلسة النواب لأفتتح جلسة الشيوخ - وتقدمت الساعة إلى الثامنة وبدأ أعضاء المجلس يبرمون بضياع الوقت ، ويطلب بعضهم إلىّ أن أؤجل الجلسة إلى الغد إذا كان ذلك مستطاعاً وبعثت اسأل عما يجرى فى جلسة النواب فقيل لى أنها على وشك الإنتهاء ، ولم تمض بضع دقائق بعد ذلك حتى جاء من يخبرنى أن شاباً أطلق الرصاص على الدكتور ماهر باشا وهو يتخطى البهو الفرعونى قادماً من مجلس النواب إلى مجلس الشيوخ » .

« يا لها من لحظة رهيبة، ويا له من نبأ فاجع ! وقمت لفورى أرى ماحدث ، فألفيت رئيس مجلس الوزراء وقد نقل إلى غرفة الإسعاف بمجلس الشيوخ وقد أحاط به الأطباء من أعضاء المجلسين يفحصونه وقد أصمت فلا ينبث ببنت شفة ».

وقد كان ممكنا أن يمر هذا الحادث الذى هز مصر ، وأحزنها ، دون أن أرتبط به ، إلا كما يرتبط به كل مصرى مشتغل بالسياسة ، لولا أننى كنت ساعة الحادث بدار مجلس النواب أمثل جريدة اللواء الجديد ، وللمرة الأولى تقريباً وكانت عندى البطاقة الصحفية التى تخول لى الدخول إلى قاعة المجلس ، والجلوس فى الشرفة المخصصة للصحافة ، ولكن الجلسة كانت سرية ، وطال الإنتظار ، حتى هممت أكثر من مرة أن انصرف لولا تصورى بين كل دقيقة وأخرى ، أن السرية سترفع ، وأننا سنسمع القرار ، وبدلا من أن نسمع هذا القرار ، سمعنا دويا خيل إلىّ معه أن باب الجلسة فتح ، وأن تصفيقاً حاداً يدوى داخل القاعة تأييداً لخطاب الدكتور ماهر ، أو أحد غيره من المتكلمين ، ثم رأيت تدافعاً شديداً ، وهرجا ومرجا ، كما رأيت نوابا أعرف بعضهم بالإسم، وأعرف بعضهم شخصيا تدفعهم الجموع المتراجعة ، وهم يتكلمون كلاما عصبياً لا معنى له ، ولا رباط بينه بعضه ببعض . ثم علمنا ان الدكتور ماهر قد سقط وسط القاعة الفرعونية ، ثم أن القضاء قد حم ، ففاضت روحه إلى بارئها .

ولما كان الحزب الوطنى قد اجتمع فى صبيحة ذلك اليوم برياسة حافظ رمضان وزير العدل فى وزارة أحمد ماهر نفسه ، وأصدر قراراً بعدم الموافقة على إعلان الحرب ضد ألمانيا التى سلمت فعلا ، وضد اليابان التى تبعد عنا آلاف الأميال، والتى كانت كل الدلائل تشير إلى أن الحرب معها موشكة على النهاية وكان شعور أعضاء الحزب الوطنى ، أن إعلان مصر الحرب فى مرحلة النهاية من مراحل ذلك القتال الدولى الرهيب ، هو عمل هزلى لا يليق بنا ، حتى ولو أدى إلى دخولنا إلى مؤتمر (دمبرتون أوكس) ومشاركتنا فيه ، وأن مصر التى رفضت أن تعلن الحرب يوم أن كانت الحرب قائمة ، خليق بها ألا تعلنها وقد انتهت وإلا سجلت على نفسها أنها لم تعلن الحرب استناداً إلى مبدأ ، وإنما لجزعها من أداء تكاليف الحرب، وجبنها عن الخوض فيها . وأيا ما كان الأمر، فقد قضت الظروف أن أحمل هذا القرار بنفسى ومعه استقالة حافظ رمضان من وزارة أحمد ماهر، وأن أقدمهما إلى الدكتور أحمد ماهر شخصياً فى صباح اليوم الذى صرع فى مسائه . ولذلك طاب لخصومى والذين كانوا ينقمون منى إلحاحى المستمر على حافظ رمضان بأن يترك الوزارة، وأن يتفرغ لنشاط الحزب الوطنى ، أن يقدموا أكثر من بلاغ يتهموننى فيه بأن لى يداً فى قتل المرحوم أحمد ماهر ، بل أنهم ذهبوا إلى أنى المحرض والمدبر لهذا الحادث ، وزجوا بى إلى السجن شهوراً طويلة ، كنت أعجب فيها من مجرى الأمور فى بلادنا . ولكن التحقيق أثبت أن كل ما نسب إلىَّ كان زيفا لا أساس له. والحق أننى حزنت لوفاة الدكتور ماهر لأنى كنت أعده من تلاميذ الحزب الوطنى، وعلى وجه خاص من تلاميذ عبد اللطيف الصوفانى رئيس شعبة العمل السرى فى الحزب خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، وأن انتقاله إلى الوفد كان مرده انقطاع الحزب الوطنى عن العمل الواسع الكبير الذى كان يجب أن يقوم به، وقد أتاح لى حضورى عن الحزب الوطنى فى لجنة الترشيحات لانتخابات سنة ١٩٤٥ فرصة الاقتراب منه، فأحببته، وقد زرته فى مكتبه لشأن يتصل بالعمل السياسى، قبل مصرعه

بشهور قليلة فتبادلنا حديثاً لطيفاً وديا ، أعلنت له فيه عن إعجابي بتصرفه المتسم بالشجاعة والصراحة حينما ذهب إلى الجامعة بغير حرس ، وهو رئيس الوزراء ، وخطب في الطلبة الذين كانوا قد تظاهروا احتجاجاً على منع أحد السودانيين من ترشيح نفسه عن دائرة عابدين باعتبار أنه ليس مصرياً .

لقد راح الدكتور ماهر ضحية الغموض في العمل السياسي في بلادنا وتأرجحه بين المفاوضة والتفزز الموسمي ، كما راح قاتله محمود عيسوى الذي كان يحسب في هذا الجو المضطرب المكفهر ، أنه يخدم وطنه بهذه الرصاصات التي أودت برجل خدم بلاده قدر طاقته ، دون خوف ولا تردد . . .

ويختم الدكتور هيكل الفصل العاشر والأخير في الجزء الثاني من مذكراته فيحشد في هذا الفصل الحوادث التي جرت في ست سنوات كاملة ، حشداً سريعاً يخيل إليك معه ، أن هذه الحوادث تجري جرياً ، وكأنما تولاها مس من الشيطان فهي تعربد ، وتختلط ، وتقع على غير سياق مفهوم ، وبغير منطق معلوم .

فتبدأ بمفاوضات صدقي بيفن ، التي أسفرت عن المشروع الذي كان أحسن ما انتهت إليه المفاوضات بين مصر وبريطانيا ، والذي قطعت فيه بريطانيا على نفسها العهد بأن تجلو عن مصر براً وبحراً وجواً في سنة ١٩٤٩ مقابل تنظيم الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط في حالات الحرب وخطر الحرب . وقد رفضنا نحن الوطنيين هذا المشروع إلتزاماً منا بمبدئنا من أن المفاضة ليست السبيل إلى تحقيق استقلال أي بلد ، وأن المعاهدات ليست ضماناً لما يكتب فيها ، وإن كان جيداً ، ما دام الطرفان المتعاهدان غير متكافئين ، وكانت الأحزاب الأخرى خليقة بأن تقبل هذا المشروع ولكنها رفضته تطبيقاً لنظرتها القائلة بأن الحماية على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلي ، وأن الخير الذي يأتي للبلد على يد حزب آخر شر ، سيرفع من قدر هذا الحزب ، ويزيد من حب الناس له ، جدير بالرفض .

وفيما صدقى يفاوض كان الملك يزداد خروجاً على الدستور ، واندفاعاً فى العبث على أساس أنه صاحب البلد، وصاحب الحق فى التصرف فيها على هواه، فدعى الملوك العرب إلى انشاص ، وتحدث إليهم فى شأن من الشئون العربية وحضر هذا الاجتماع عبدالرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية ولم يحضره وزير الخارجية، بل لم تسمع الوزارة بهذا الاجتماع حتى تم . وعين الملك ، كريم ثابت مستشاراً صحيفياً ، فاعترض اسماعيل صدقى على هذا التعيين، لأن هذا المستشار كان يتقاضى مبلغاً ثابتاً من المصاريف السرية فلم يأبه الملك بهذا الاعتراض ، وأمر أن يضاعف له المبلغ الذى كان يتقاضاه من المصاريف السرية ذاتها وأذعن رئيس الوزراء ، وبرر صدقى السكوت على هذه المخازى والمخالفات بأنه كان يفاوض الإنجليز وأن نجاح المفاوضة يستلزم ألا يحارب الملك . وسقطت وزارة صدقى ، وحلت محلها وزراة برياسة النقراشى أرادت أن تستكمل ما كان فى مشروع معاهدة صدقى بيفن من بعض بالمفاوضات فلما لم توفق، رفعت حكومة النقراشى إلى مجلس الأمن شكوى طلبت فيها إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ قرر مجلس الأمن تأجيل الفصل فى الشكوى إلى أجل غير مسمى ، وأبقى الشكوى على جدول أعماله لم يحذفها. ولما عاد النقراشى أرسل الملك إليه عربة من عربات القصر ، إظهاراً لعطفه على النقراشى الذى استطاع بموقفه فى مجلس الأمن أن يكسب حب المصريين كلهم ، ولـكنه كعادة السياسيين فى مصر ، لا يجتمع لهم رصيد عند الشعب حتى يبددوه ، فإن النقراشى طارد كل حركة مقاومة ضد الإنجليز. وقبض على الشبان الذين تصدوا لمعسكرات وأندية البريطانيين ، وزجهم فى السجون ، وقدمهم للمحاكم فقضت عليهم بعقوبات صارمة ، مما استفاض له سخط العناصر الشابة ، فامتلأ الجو ، ببذر الغضب فى شكل قنابل تلقى ، هنا وهناك .

وقد فعل الملك فعلة رئيس وزرائه ، إذ أنه بعد أن كان أملا من آمال

الشعب ، بعد ٤ فبراير ، وإن لم يخل موقفه من ضعف ، إلا أنه راح يبدد رصيده هذا أى مبدد، ويذكر هيكل أنه أبدى أسفه للملك وهو يحدثه يوما ، عما جرى فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فكان تعقيب الملك على ذلك : لا تأسف ، لقد علمنى هذا الحادث درساً لن أنساه !

وكان الدرس الذى تعلمه ألا يعول على الشعب ، ولا يحسب له حساباً وأن يصافى الإنجليز ، ويتحاشى التصادم معهم ما استطاع ، وقد نفذ هذه السياسة الجديدة ، حتى أصبح جنرالا فى الجيش البريطانى ، وتزيا بزى هذا الجنرال ، ونشرت صور له وهو فى هذا الزى .

ويورد هيكل تحليلا لما آل إليه فاروق ، بعد أن كان محبوباً من الناس ، ملتزماً جانب المصلحة الوطنية ، فبدأ بما أحيط به فاروق منذ كان صبيا يتلقى العلم فى بريطانيا ، من جو فاسد ومفسد . إذ كان أحمد حسنين يطلق له العنان ويترضى نزواته ، ليكسب حبه وثقته ، حينما يبلغ رشده ، ويتولى عرشه ، فلما توفى أبوه ، وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره لم يجتمع له علم ولا تجربة ، رأى من حاشيته ومن الوزراء خضوعاً وتسابقاً إلى استرضائه حببا إليه الاستئثار بالسلطة ، والاستهانة بالوزراء ، إذ لم يجد واحداً يرفض له أمراً ، أو يقاوم له رغبة ، أو يشير عليه بما يتفق مع مصلحة البلاد .

ويروى هيكل كيف فسدت العلاقة بين الملك وزوجته ، لما استرسل على هواه ، وأسرف فى سهراته وأن السفير البريطانى أخبر رئيس الوزراء حسن صبرى يوماً أنه علم أن الملك والملكة تشاجرا صباح ذلك اليوم ذاته ، وأنهما تبادلا أقذع الألفاظ وأقساها .

كما روى أن جريدة أخبار اليوم - لسبب غير ظاهر - حملت عليه - على

هيكل — أثناء وجوده فى روما يحضر مؤتمر الاتحاد البرلمانى الدولى ، فلما عاد إلى مصر ، وقابل الملك دار بينهما هذا الحديث :

الملك : أنت يا هيكل جعلت الناس يقولون أنك طامع فى رياسة الوزارة

هيكل : من هم هؤلاء ؟ أنا لا أعرف أحداً قال ذلك غير أخبار اليوم .

الملك : كلا ، بل هناك آخرون كثيرون .

هيكل : وإذا كنت أطمع فى رياسة الوزارة فجلالة الملك هو الذى أتوجه إليه بهذا الطمع فهل سمعتم منى جلالتكم شيئاً من هذا . إنى . أؤكد لجلالتكم أننى لا يعنينى أن أكون يوماً رئيساً للوزارة ، ولا يعنينى أن أكون كما أنا اليوم رئيساً للشيوخ . وأسعد ساعة عندى أن أجلس إلى مكتبى أؤلف كتابا تطمئن إلى تأليفه نفسى، ثم هل تحسبون جلالتكم ان رياسة الوزارة فى مصر مركز محسود، حسب رئيس الوزارة فى مصر متاعب زملائه ، ومطالب أعضاء البرلمان ، ومطاعن الصحف ، والمشاكل التى تواجهه من كل جانب . فإذا لم تكن هناك خدمة للبلاد ترونها جلالتكم فى إسناد الوزارة لشخص بذاته فما أغنى العاقل عن أن يواجه كل هذه المتاعب .

افترت أسارير الملك ثم قال : على كل حال يستطيع رئيس الوزارة إذا عز عليه مواجهة الموقف أن يستقيل ، ولكن ماذا يستطيع الملك ، أن يفعل ؟ فقال هيكل مبتسماً : وهل كان لى شأن فى أن تولد جلالتكم ملكا .

ويعقب هيكل على هذا الحديث : ابتسم الملك وانتقلنا إلى حديث آخر . لكن مفاجأته إياى بهذا الحديث كانت نذيرا بكلام لم يقله بعد الذى سمعه منى ، فطالما سمعت من وزراء عبارات وجهها الملك إليهم لا يساوى البقاء فى الوزارة سماعها .

يذكرنى هذا الحديث ، بما رواه لى أحد الوزراء السابقين من أنه بدا له أن ينصح الملك بأن يتزوج بعد طلاقه من الملكة فريدة ، وأنه استعمل فى إزجاء هذه النصيحة أرق العبارات ، وأشبهها بما كان يصطنعه الوزراء مع ملوك ألف ليلة وليلة ، ولما وصل الوزير بعد هذا الحديث إلى عتبة باب المكتب الملكى الذى كان يدور فيه الحديث صرخ الملك: وقح! وقح ! وهو يعنى بهذا السباب طبعاً وزيره الذى جرؤ على أن ينصحه بشيء .

ويذكر هيكل بعد ذلك أمثلة على خضوع الوزراء لمشورة الملك، وإرادته على عكس ما يقضى به الدستور ، وما تقضى به طبيعة الأمور ، من أن الأمر للوزراء ولرئيسهم ، والنصح والمشورة فقط للملك ، ومن أضخم هذه الأمثلة تحرك الجيش المصرى إلى أرض فلسطين ، بدون موافقة رئيس الوزراء أو رضاه أو علمه ولكن رئيس الوزراء نفسه لم يلبث فى ١٢ من مايو سنة ١٩٤٨ أن عرض على مجلس النواب فى جلسة سرية ، أمر تحرك الجيش المصرى ، وقدم معلومات غير صحيحة عن الموقف العسكرى جعلت المجلس كله يوافق على ذلك .

ويروى هيكل كذلك أنه حينما خلا مكان رئيس اللجنة المالية فى مجلس الشيوخ ، اتصل به رئيس الديوان الملكى بالنيابة ورشح له أحد الشيوخ لهذا المكان ، فما كان من هيكل إلا أن قال له أننا اخترنا لهذا المكان حسن باشا صادق ، فألجم هذا الرد رئيس الديوان فاكتفى بالقول : حسن باشا رجل عظيم .

ولكن الأمر لم يجر على هذا الوجه حينما أراد الملك أن ينزع الأوقاف الملكية الخاصة من وزارة الأوقاف ، لتتولى إدارتها الخاصة الملكية كما تدير سائر أطيان الملك ، إذ أن على عبد الرازق ، وزير الأوقاف ، عارض فى هذا النزاع لأنه يدمغ الوزارة بسوء الإدارة ، ولكن الملك لم يأبه بهذا الإعتراض،

وأصدر مرسوماً جعل النظر على هذه الأطيان لناظر خاصته إذ أن وزير الأوقاف لايتولى إدارة الأوقاف إلا بتوكيل يصدر له من الملك، وبهذا كان علك أن يعدل فى توكيله كما يشاء، ويقول هيكل أن على عبد الرازق لم يرد أن يحدث بسبب هذا العزل أزمة. ولكن لم أدر، لأية حكمة تفادى الوزير إحداث أزمة، والأمر يستحقها.

ثم يحدثنا هيكل عن سبب إخراج وزيرين من الوزارة هما عبد المجيد بدر، واللواء أحمد عطيه، فيقول أنهما كان فى ملهى (حلمية بالاس) وحضر الملك ليقضى سهرته هناك، فلم يلتزم الوزيران حد الأدب فلم يخرجا من الملهى ويخليا المكان لجلالة الملك ليلهو بغير تحرج، بينما خرج زميلان آخران لهما كان موجودين فى نفس المكان والزمان، فاحتفظا بمركزهما فى الوزارة ويقول هيكل أن سمعة الملك ساءت إلى أبعد الحدود حتى أنه لما أعلن أنه سيقضى الصيف فى (دوفيل) متنكراً باسم فؤاد باشا المصرى، هرعت بنات الهوى من كل حدب وصوب، ليعرضن مفاتنهن على الملك الشاب الذى ترك بلاده قاصداً مغانى الحسن، ومجالات المتعة. وأنه قرأ يوما فى جريدة (لوموند) الفرنسية الوقورة أن الملك فاروق يريد أن يجدد تقليداً فرعونياً قديماً، وهو زواج الملك من شقيقته.

لم يجد الملك أحداً يردعه أو يحدثه فيما تردى فيه، وفى النتائج السياسية الوخيمة التى تنتظره إن هو استمر فى هذا المنهج الوضيع، بل أن الدكتور هيكل أنه عاتب يوما فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد فى دفاعه عن كريم ثابت مستشار الملك الصحفى، وكان طالما يطعن فيه أمام هيكل وفى سياسة القصر التى تسمح لدخيل مثله فى شئون الدولة فما كان من فؤاد سراج الدين إلا أن قال: لقد بقى الوفد فى الشارع عشر سنوات كاد يقضى عليه فيها، ولنا من ذلك كل العذر عن الاتفاق مع القصر وسياسته.

ويذكرنى هذا بما أعرفه ويعرفه الكثيرون من أن بعض الأحزاب المعارضة،

كحزب المعارضة فى السويد ، وحزب المعارضة فى كندا تطول عليهم فترة بقائهم فى المعارضة بعيداً عن الحكم إلى سنوات تبلغ أحياناً الخمسة عشر عاما ، ولا يفقد الحزب مع ذلك تماسكه، ولا يدب إليه اليأس ، ولا يكفر برسالته ، لأنه يشعر بأن وجوده فى المعارضة ، نشاط يستأهل الإهتمام والمثابرة ، وأنه يخدم البلاد بهذه المعـــارضة ، ويقيم الدستور ، ويقوم الحكومة وأن الوصول إلى الوزارة ، وإن كان من أهداف المعارضة إلا أنه ليس كل أهدافها :

ويذكرنا هيكل فيما يذكرنا به بما كان من الملك مع والدته وشقيقته ، حينما ذهبت الأولى ومعها الأميرتان فايقه وفتحيه ومعهما شابان يعملان معهن كسكرتاريين ، فتزوجت كل أميرة من سكرتير ، وكان أحد الشابين مسيحياً فاعتنق الإسلام ، فإن الملك جمع مجلس البلاط وكان رئيس الشيوخ عضواً فيه بحكم منصبه فأصدر قراراً بإسقاط لقب الإمارة عن الملكة وإبنتيها ، وحرم الوالدة من الوصاية عليهما وأقام ناظر الخاصة حارساً على أموال الملكة ، إلى آخر هذه السلسلة المتصلة من الفضائح .

وكأن الأحزاب قد أبت إلا تنافس العائلة المالكة فى هذه الفضائح، إنما على طريقتها، وفى مجالها الخاص بها ، قتل النقراشى فى بهو وزارة الداخلية فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٨، فولى الوزارة ابراهيم عبد الهادى، وفى الوقت الذى خيل له فيه أن الأمور استقرت له ، وأن بعض كبار الوفديين قد مالوا إلى الانضمام إليه ، منهما طه حسين وزير المعارف فى آخر وزارة وفدية ، وعبد السلام جمعه رئيس مجلس النواب ، أرسل الملك ياوره حيدر باشا قبيل نهاية رمضـان ليوقظ ابراهيم عبد الهادى من النوم ويبلغه فى الساعة السابعة من الصباح، أنه أقيل، والرجل لايدرى ماذا حدث ، ثم يكلف الملك حسين سرى ليؤلف وزارة قومية، يدخل فيها الأحزاب الثلاثة الوفديون والدستوريون والسعديون بعدد مماثل

من الوزراء ثم يحاولون أن يقتسموا الدوائر الانتخابية فيما بينهم ، كما حاول الحزبان المؤتلفان فى عهد ابراهيم عبد الهادى أن يفعلوا ذلك ثم يعدل حسين سرى وزارته ويخرج الحزبين منها ، ويجعلها وزارة إدارية ، ويجرى الانتخابات ، فإذا كان يوم الإنتخاب يذهب إلى مقر اللجنة الانتخابية ويدلى بصوته شفويا ، معلنا أنه ينتخب شقيق فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد ، ويفهم رجال البوليس من ذلك أن المطلوب أن تأتى وزارة وفدية ، ويحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، ويعهد الملك إلى النحاس بتأليف الوزارة فيؤلفها ولما يمثل بين يدى الملك ليؤدى اليمين ، يعلن بصوت جهورى أن له طلباً واحداً عند الملك ويحسب الملك ، ويحسب الحاضرون أن رئيس الوزراء سيبدأ عهده بإثارة المتاعب وأنه سيطلب أمرا دستوريا كأن يمنع الملك مثلا حاشيته عن التدخل فى شئون الوزارة إلا أن زعيم الشعب ، يعلن أن طلبه أن يقبِّل يد جلالة الملك ... فتكمل المهزلة ، ويثبت لكل ذى عينين أو عقل أن العهد ، قد فعل كل ما يملك لتحطيم نفسه ، وإنه لم يدخر وسيلة لتحقيق هذه الغاية ، وأنه حشد لذلك الملك وزراءه والأحزاب وزعماءها ، والأمراء والأميرات ، والرجال والنساء وأنه سلك لهذا الهدف سبيل الحرب والسياسة ، والاقتصاد والمال ، والرشوة ، والمحسوبية ، والإختلاس والتزوير ، والعبث بالقانون ، والعبث بالدستور .

كان الملك يقول عابثاً ، لن يبقى بعد سنين إلا ملك إنجلترا ، وملك الكوتشينه ..

وفى آخر وزارة للنحاس ، قدم مصطفى بك مرعى إستجوابا عن أسباب إقالة رئيس ديوان المحاسبة ، وكان قد قدم سؤالا فى هذا الشأن ، فلم يجبه رد الحكومة ، وحينما وقف يبسط استجوابه ، لم يكتف بالتحدث عما اثبته تقرير رئيس ديوان المحاسبة من أن مستشار الملك الصحفى كريم باشا حصل على خمسة

آلاف جنيه من الدكتور أحمد النقيب باشا بوصفه رئيس جمعية المواساة وقد قيل فيما بعد فى تفسير دفع هذا المبلغ أنه كان مقابل دعاية قام بها كريم المستشفى، بل أشار أيضا إلى الاختلاسات التى وقعت فى صفقات الأسلحة مع أن هذه الصفقات أبرمت ونفذت فى عهد الوزارات السابقة على الوزارة الوفدية والتى لم يكن لحزب الوفد يد فيها .

فوقف فؤاد سراج الدين ووجه الكلام إلى الدكتور هيكل رئيس مجلس الشيوخ قائلا بأنى أشعر بأن كرسى رياسة المجلس يهتز لكثرة ما خولفت اللائحة .

والحق أن هذا الكرسى لم يهتز وحده ، بل كان كل شىء يهتز فى الدولة وما يتصل بالدولة من مرافق ، وما تقوم عليه من قيم ، وبقى هذا الاهتزاز حتى كانت قمة الزلزلة فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢.

* * *

بقى علينا أن نعرف ماذا يكون الدكتور محمد حسين هيكل فى حياة الفكر المصرى ، وما هى خصائص دوره فى هذه الحياة ، وما سماته المميزة له .

الدكتور هيكل هو أولا وقبل كل شىء كاتب سياسى . كان كاتبا سياسيا. وهو يترجم لحياة جان جاك روسو ، أول كتبه، وكان كاتبا سياسيا وهو يكتب تراجم مصرية وغربية، وكان كاتبا سياسيا وهو يكتب عشرة أيام فى السودان، وهو يترجم لمحمد عليه السلام ، وكذلك لخليفته الصديق أبى بكر والفاروق عمر ، أما مذكراته بجزئيها فعمل سياسى من الألف إلى الياء . ولسنا نبالغ حينما نقول أن قصته الأولى زينب هى أيضا أثر سياسى ، فالأدب الخالص الذاتى الذى يصف فيه الكاتب عواطفه ، ويخلق لهذه العواطف بناء متكاملا ، تظهر فيه بظلالها المختلفة ، لم يكن مجالا لقلم الدكتور محمد حسين هيكل.

لقد وصف الدكتور هيكل بعض مؤرخيه بأنه أعظم وصاف فى الأدب المصرى المعاصر ، والواقع أنه وصف فى قصة زينب وفى رحلاته التى جمعها فى كتابه (ولدى) كثيرا من صور الطبيعة والحياة فى ريف مصر ، وفى الجبال وعلى شواطىء البحار والبحيرات فى أوربا ، وهو إذ يصف ما رآه ، يصطنع أسلوب المتأنى المتريث الذى لا يرسم الصور فى حرارة الفنان ، الذى اتقد وجدانه، وتزاحمت الخواطر والمشاعر، فى نفسه، وحاولت أن تتدفق إلى الورق عن طريق قلمه . فأسلوبه فى الوصف ، هو أسلوب التقرير ، الذى لا يشغلك بما يدور فى نفس صاحبه ، مكتفيا برسم الظاهر الذى يقع عليه نظره ، هذا الظاهر الذى يستعذبه حيناً ويعجب به إعجابا لا يبعد به عن الأرض ، والذى يكرهه ويمقته حيناً آخر ، كرها ومقتا لا يسمانه إلى خواطر ثائرة أو ساخطة حالمة أو شاردة، ولكن حب الدكتور هيكل للوصف ، وصبره على التفاصيل والدقائق ، إنما ينبع من قدرة أخرى لا يباريه فيها آخر من حملة القلم فى بلادنا . تلك هى قدرته على السرد . ولقد عبرت هذه القدرة عن نفسها ،وكشفت عن مداها الواسع فى كل ما كتب .

كان هيكل (ساردا) أو (راويا) أيهما شئت ، من الطراز الأول فنفسه طويل فى سرد كل ما يقع تحت نظرة أو يصل إلى سمعه . وهو سرد واضح جلى، ينجح دائماً فى الاستئثار باهتمام القارىء وعنايته ، لا بفضل ألفاظ هيكل الرنانة الوسيقية ، ولا بفضل ما يضفيه على الأحداث التى يرويها ، من أخيلة ، أو ما يعلق به عليها محللا ، مستنبطاً معانيها ، مفلسفا اتجاهها ، رداً إياها إلى أصول أبعد منها أو أعمق ، فإن ذلك من الأمور التى لم يتعلق بها اهتمامه ، ولم ينصرف إليه جهده . كان غرامه الكبير ، فى أن يروى لك ما حدث له ، أو ما حدث للآخرين ممن يترجم حياتهم، فى ألفاظ سهلة واضحة، وعبارة بسيطة لطيفة ذاكراً الواقعة وراء الواقعة، فى تسلسل واتصال محكمين، لا يلبثان حتى يظفرا من القارىء

بكل عنايته ، ثم يستحيلان بعد ذلك إلى مصدر متعة له ، يعوضه عن موسيقى الألفاظ ذات الرنين العالى أو الجرس أو النغم وعن الفلسفة التى تنتقل بالقارىء من الواقع الظاهر ، إلى ما خلفه من البواعث والدوافع .

وهيكل ، وفى هذا الأسلوب الجميل ، أسلوب السرد الواضح الجلى ، فى كل المواقف، وفى كل المناسبات ، فإذا فجع فى ابنه مثلا ، لم يرد أن يؤبنه فى عبارات باكية ، تتأجج بنار فجيعته ، وتشتعل بثوران عواطفه ، بل اتخذ تأبينه صورة السرد لوقائع المرض الذى سبق للمصاب حتى اختار الله لجواره ابن الكاتب . فهو يروى لنا كيف بدأ المرض خفيفاً ، فلم يشغل بال والديه ، ولم يخفهما مقدمه بل لم ينزعج له الطبيب ، ثم يروى كيف بدا القلق على الطفل المريض يتسرب إلى النفوس، ثم كيف زالت المخاوف عليه، حتى إذا اطمأن الأب على ابنه، ومضى إلى عمله كعادته ثم عاد منه فى ساعة متأخرة من الليل ، وجد أبواب المنزل مفتحة ، وحجراته مضيئة ، وأم الطفل تلقى إليه بالنبأ الفاجع « ممدوح مات » .

ولم يكن بين يدى هيكل وسيلة ، تطلعنا على مقدار ألمه لهـــذه المحنة إلا وسيلته المحببة إلى نفسه ، وسيلة السرد لذلك راح يصف لنا كيف هزا المصاب زوجته وشريكة حياته ، وكيف لم تفلح المحاولات ، فى تخفيف الألم عنها ، ولا فى صرف ذهنها عن التفكير فى وحيدها ، الذى خلفها للحزن الممض ، وللحسرة المتجددة ، وللوعة تزيد على الأيام حرقة وشدة ولا تخف .

وما من مصاب يقع للدكتور هيكل حتى يصف لنا ، كيف سمع نبأ المصاب ومن الذى نقله إليه ، وفى أى وقت نقله ، ثم يروى ، إما طرفاً من الأحداث المتصلة بالمصاب ، وإما آثاره عند الناس، وذيوع خبره بينهم ، أو شيئاً مما يرويه يعبر به عن إحساسه ومشاعره . أراد أن يؤبن مصطفى كامل ، وأن يترجم لحياته فبدأ ذلك بقوله :

« فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٨ بينما أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديوية إذ ذاك على باب داره ، جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جواداً ، فلما كان بإزائنا وقف برهة فحيانا وقال :

« أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى » وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم فلما سمع قول الناعى ، سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل مطلقاً جواده : نعم ، ولكم طول البقاء ! » .

وأراد أن يؤبن عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء فقال بعد سبعة شطور قدم بها لهذا الرثاء :

« ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التى عرفت فيها الخبر أثر الوفاة بسويعات حين دخلت إلى صالون السيدة المحترمة هدى هانم شعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الأستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريهما وكلهم باكو العيون والفؤاد ، وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل . »

والأمثلة الأخرى على ذلك كثيرة ، فالوقائع ، هى وسيلة الدكتور هيكل فى التعبير عن نفسه ، وعن وصف احساساته ومشاعره ، وعن بيان أفكاره أما التصورات الأدبية ، والشروح الفلسفية، وعالم الباطن ، فكلها مناطق لم يطأها بقدمه . وعلى طول ما حمل القلم ، وعلى كثرة ما كتب ، لم تنازعه نفسه مرة فى الإقدام على محاولة كشف مجاهل هذه النواحى من الفكر الإنسانى والنفس الإنسانية . والسر فى ذلك سر مكشوف ، فهيكل فى واقع الأمر ، كاتب سياسة ، والجانب السياسى من حياة الناس ، هو الجانب الذى استأثر بهواه ، وملك عليه كل تفكيره ، فقد درس الحقوق ، وتتلمذ فى مطالع شبابه على جريدة حزب الأمة ، ومحررها الأول ، وكانت رسالته التى حصل بها على أجازة القانون

فى الدين المصرى العام ، ولما عاد إلى مصر اشتغل بالمحاماه ، ولما درس فى الجامعة المصرية الأهلية ، ألقى دروساً فى القانون ، وكان أول عمل عام اشتغل به ، هو عمله فى سكرتارية لجنة الدستور ، ثم تولى رياسة تحرير جريدة السياسة ، وخاض بعد ذلك الانتخابات مرتين خوض رجل مشتغل بالسياسة ، عمليا ، وليس باعتبار الانتخابات جهداً هامشياً إلى جانب نشاطه الأدبى الأصيل ، كما كانت الانتخابات عند عباس العقاد مثلا ، فما كان البرلمان سوى حلية لحياته العامة ومظهراً من مظاهر نجاحه فيها ، وكما كان فى حياة شوقى الشاعر مثلا ولكن الدكتور هيكل صاحب ذوق أدبى ، وكانت اهتماماته إنسانية الطابع ، ونشاطاته متعددة الجوانب ، لذلك كان لابد من آثار أدبية له ، وهى وإن كانت ذات قيمة لا تنكر ، إلا أنها لم تكن المجال الأساسى لنشاطه الفكرى ، إنما كانت فى الأغلب أثراً من آثار تفكيره السياسى .

حتى رواية زينب لم تعد هى أيضاً أن تكون أثراً لهذا التفكير ، حسبك أن تعلم أنه استتر وراء لقب « فلاح مصرى » وهو يقدمها للناس ، ولم يكن استعمال هذا الستار فى عهد صدور هذه الرواية إلا تفكيراً سياسيا . « فالفلاح » و « المصرى » ، هما مصراعا البـــاب فى طراز من التفكير بدأت بشائره فى أخريات القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وقف فى مواجهة الدعوة إلى الإسلامية والولاء لتركيا ، وكانت وقائع الرواية تصويراً لمجتمع القرية المصرية ، وما احتوته من علاقات تربط بين عناصرها المختلفة .

وهى لهذا تعد نقطة بداية مبكرة فى تاريخ التفكير السياسى فى مصر ، بقدر ما تعد نقطة بداية لتاريخ الرواية المصرية أيضاً . وهى بداية ذات أهمية وخطر بعيدين .

ولكن ما دمنا قد قلنا أن هيكل هو كاتب سياسى ، أكثر منه أديباً ،

تشغله دراسة النفس الإنسانية ، وتصويرها ، وأكثر منه مفكراً يفلسف نظريات السياسة ، ويستنبط منها لنفسه منهجا يلتزمه ، ويدعو إليه ، فما هو قدره بين كتاب السياسة فى مصر ؟

أنه بلا جدال ، كاتب مصرى ، استأثرت به الأحداث السياسية فى بلاده ، استئثاراً كاملا ، فقد كتب فى هذه الأحداث ، وتأثر بها ، ثم أتيح له أن يؤثر فيها . وقد بدت مصريته منذ كتب روايته الجميلة (زينب) ، ثم منذ كتب رسالته فى الدين المصرى العام ، بل منذ شرع يكتب فى صحيفة (الجريدة) وهو لوضوح (مصريته) ونقائها ، لم يضطرب اضطراب غيره أمام المذاهب الأخرى التى كانت تتنازع عقول وقلوب سواه من الشباب والرجال ، فلم يكن يوما من دعاة الجامعة الإسلامية ، ولا من دعاة الجامعة العربية ، ولا من يضمرون ولاء ولا إعجاباً بالدولة التركية ولا من يعقدون عليها أملا أو رجاء ، ولقد رأينا أنه رفض أن ينضم إلى الرابطة الشرقية بحجة أن الظروف فى البلاد الشرقية التى دعت هذه الرابطة إلى تنسيق الجهود بين أبنائها ظروف متباينة ، وأن صرف بعض جهد المصريين إلى إقامة التعاون بين بعضها البعض قد يضعف الجهد الذى كان يرى أن يوجه كله إلى مصر . ولكن يبدو أنه حينما نذر نفسه للفكرة المصرية ، لم يعان فى سبيل إصدار هذا القرار ، فلم يكن فى نفسه مشاعر متصارعة . فتم الأمر فى هدوء وبغير حرب ، كأن لم يكن ثمة سبيل أخرى يمكن له أن يسلكه .

ولكن ما هى طبيعة هذه (المصرية) التى اعتنقها هيكل ، والتى بقى فى صفها إلى آخر حياته . أهى هذه (المصرية) النكراء التى آمن بها لطفى السيد ودعى لها ، التى يحدها من جانب كراهية مستعرة للأتراك ولتركيا ، وولاء وحدب وحب وإعجاب ، من جانب آخر ، لبريطانيا وممثليها وثقافتها وحضارتها .

الحق أنها مصرية نقية . لم يكن للطفى السيد فيها إلا أقل الفضل فقد تأثر هيكل بمصطفى كامل تأثراً أخرجه من مدرسة حزب الأمة، وجعله أكثر استقلالا ، واستقامة ،ممن عداه من أنصار هذا الحزب ، الذى ألحق بالوطنية المصرية ، أسوأ الأضرار ، وأطولها عمراً .

لقد اختلف هيكل مع لطفى السيد فى أكثر من مناسبة ، واحتد فى المناقشة معه ، حينما بدت لأستاذه آراء واتجاهات لاترضى عنها الوطنية السليمة ، ولا المنطق الصحيح . فلم يعجبه منه موقفه أثناء الحرب الإيطالية الطرابلسية من دعوة إلى الحياد ، ولم يعجبه منه موقفه فى مطلع الحرب العالمية الأولى من نبذ الحياد ، واقتراح الوقوف فى صف بريطانيا . وثار على موقفه حينما قال كلاماً يشتم منه أنه يزين للناس الحكم البريطانى إذ لم يكن من الحكم الأجنبى بد ، ولم يستطع أن يخفى دهشته المزوجة بالانتقاد حينما رأى لطفى السيد يبالغ فى إظهار حزنه على مصطفى كامل ، فيرتدى السواد ، ويفتح مكتبه لاستقبال المعزين، وكأنه فجع فى أعز عزيز لديه وهو يعلم حقيقة مشاعره ، ورأيه فى مصطفى كامل وفى مذهبه الوطنى . وزاد اعتراضه على موقف لطفى السيد حينما لم يبرر هذا الموقف لهيكل إلا بقوله أن (هيكل) لايزال شابا لم تحنكه تجارب الحياة بعد ،إذ لم يكن لهذا القول من معنى إلا أن الصراحة مسلك مصدره السذاجة، وأن الأيام كلما مرت على الإنسان ، علمته كيف يخفى عواطفه ، فيبدى للناس غير ما يبطن. فلم يكن هيكل إذن تلميذا خالصا لمدرسة حزب الأمة وتعاليمها ، فقد تتلمذ عليها بقدر ما انتفع من نصائح استاذه حينما أشار عليه أن يقرأ الأدب الغربى ، إلى جانب مطالعاته فى الأدب العربى ، وانتفع بمحاكاة أسلوبه فى الكتابة البسيطة الواضحة ، ومناقشة الأمور ، مناقشة تقوم على ازجاء الحجج، واستنباط الدليل ، والإقلال من مطاوعة العاطفة ، والاسترسال معها .

ولكنه انتفع فى الوقت نفسه بكل ما قدمته مدرسة مصطفى كامل من أسلوب ومنهج لمعالجة شئون الوطن ، معالجة أساسها أن الاحتلال البريطانى ، مرفوض أساساً ، وأن المصالحة بينه وبين حقوق الوطن ، مصالحة بين الأضداد، ولا تؤدى إلى خير ، لأنها تنطوى على مزالق للوطنية والوطنيين ، تؤدى بهم إلى النزول عن القليل ، ثم عن الكثير ، وتزين لهم تضحية المظهر ، ثم الجوهر . ولكنه لم يكن بطبيعة تكوينه النفسى والعقلى ، مهيئا لأن يلتزم جانب مدرسة مصطفى كامل ، وأن يجرى مجراها ، فلم يكن من هذا الطراز من الناس المتقد العاطفة ، المتطرف ، ولم يكن مقاتلا ، مؤمنا بأن الشعب وحده قادر على أن يحقق الحرية لنفسه ، وإن لم يكفر قط بهذا الشعب ولم يستهن بقدره ، أو يغض من قيمته .

ولعلك واجد فيما كتبه عن مصطفى كامل هذه المزاوجة بين الاعتدال والتطرف ، وبين عاطفة مصطفى كامل المشبوبة ، وفتور حزب الأمة الذى يسمى نفسه حزب التعقل ، ومذهب العقليين قال :

« ولم يكن عجيباً أن يحرك مصر من أقصاها إلى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب ، فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن إلا بتخفيف الأعباء المالية ناسياً كل اعتبار غير تخفيض الضرائب ، ليخيم على البلاد الجهل ، وليكن الغرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ، ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير، مادامت الضرائب المرهقة ، وما دامت السخرة والكرباج قد ألغيت فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الإنسانية ، بعث القدر

مصطفى بشيرا بهذه الحاجات السامية، رفيع الصوت عالى الكلمة، طلق اللسان، قوى الجنان ، حلو الأسلوب ، يتغنى لقوم بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها، فكان طبيعياً أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ، ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفساً ، ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء ، ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبة الناس له شيئاً » .

فهذا كلام يعبر عن إعجاب بمصطفى كامل لاتحفظ فيه ولا احتياط ، وهو إعجاب صادق ليس فيه مداراة لأحد ولا مواربة ، فقد كتب ، بعد أن مات مصطفى ،بل بعد أن توالت السنون على وفاته ، بل كتبه بعد أن هدأت صيحة الحزب الوطنى ، وقد رسم هيكل خصائص مدرستى حزب الأمة والحزب الوطنى فقال :

« كان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابى ، واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الإنجليز عليها ، وعلى فرنسا وانفرادهم دونها بأمر مصر ، كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس ترددا فى مشاركة الأمير الشاب الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد إلا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل ، استبداد الإنجليز والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم ، فقد جمع إلى الشباب أقداما جاوز حدود

الأقدام ، مع نشاط عصبى لا يهدأ إلا أن يهـد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . »

هذا إذن هو رأى هيكل فيمن تابع مصطفى كامل ، وفيمن نفر منه ، وبعد من حركته من الشيوخ الذين شهدوا مظالم اسماعيل، فهانت عليهم أثقال الاحتلال البريطانى ، وتبعاته ، وهم لم يظفروا بعلم ، فلم يكن البقاء فى الجهل ، كريها إليهم ، ولم يكن سوء التعليم فى عهد الاحتلال ، وقلة مدارسه ، وضعف مناهجه بالأمر الذى يشغلهم ، ويؤرقهم ، فحسبهم أن السخرة والكرباج قد رفعا ، وحسبهم أن طبقة أعيان الأتراك قد انحسرت موجتها ، وقلمت أظافرها ، وحسبهم أنهم أصبحوا أعيان البلاد ، يستطيعون أن يجمعوا الثروة ، وأن يتصدروا المجتمع ، وأن يزورهم المفتش البريطانى، فيحسنوا استقباله ، فيزدادوا عند الناس جاها . أما الشبان الذين كانوا فى مطالع الحياة عندما نكبت البلاد بالاحتلال ، والذين تعلموا فأدركوا أن الحرية أغلى من لقمة العيش ، وأن كرامة الشعب ، ليست فى جسور تشاد ، ولا سدود تقام، ولا نظام رى يبتدع، بل فى أن يكون للشعب إرادته ، وأن يكون صاحب الكلمة فى أموره ، وفى أن يكون التعليم متاحا للجميع ، وأن يكون التعليم قادرا على أن يخرج للأمة رجالا يصلحون حالها ، ويزيدونها قوة ومنعة . أما هؤلاء فهم أنصار مصطفى كامل، وأتباعه ، أصموا آذانهم عن سماع المديح فى الاحتلال، أو مقارنة بينه وبين ظلم اسماعيل . فاسماعيل بلاء ، والاحتلال بلاء ، والمقارنة بين بلاء وبلاء ، كالمقارنة بين عار وعار ، لايسيغه إلا من لا يفهم أن الكرامة لا تتجزأ . وأن العرض أمر لا يقاس أو يكال .

وغاية القول أن هيكل لم يقبل لنفسه أن يكون فى المعسكر المضاد لمصطفى كامل ، وأن يهب نفسه كاملة لمعسكر العقليين المعتدلين ، وأن قضت

الظروف ، أن يعمل معهم طوال حياته ، فقد كانت صلاته العائلية وثيقة بزعماء حزب الأمة ، وكانوا منه بمثابة الأعمام والأجداد . وكان الحزب الوطنى قد انكمش انكماشا ترك أمثال هيكل مسيرين غير مخيرين ، ولو بقيت مدرسة الحزب الوطنى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى مفتحة الأبواب ، لدخل فيها هيكل ، حتى ولو قام بينه وبين أساتذتها وزعمائها خلاف بين الحين والحين ، فالخلاف بين أبناء المذهب الواحد ، أمر نشهده كل يوم .

هذه طبيعة تفكير هيكل، وهذه موارد ثقافته السياسية ، فما هى خصائص حياته السياسية ؟

أن أكبر سمات شخصية الدكتور محمد حسين هيكل السياسية ، ثباته . أنه وحده من كتاب السياسة فى مصر بلا استثناء الذى بدأ حياته السياسية العملية مع حزب الأحرار الدستوريين ، وانتهت حياته السياسية والمادية بانتهاء حياة هذا الحزب : لم يخدم حزباً آخر ، ولم يهجر حزبه يوما ، ولم يفترق عنه ، أو يختلف معه قط . وهو بهذه الصفة متفرد متميز

تولى هيكل رياسة تحرير السياسة منذ صدر عددها الأول ، وبقى يكتب فيها ، وفى السياسة الأسبوعية ، حتى أوصدتا أبوابهما ، وتنقل فى مدارج الرقى فى صفوف حزب الأحرار الدستوريين ، حتى أصبح زعيم الحزب ، بقى فى حزب الأحرار ثم على رأسه حتى قامت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ ، فى حين أن عدلى يكن مؤسس حزب الأحرار الدستوريين ورئيسه الأول تركه ... وتخلى عنه ، ثم لحق به عبد العزيز فهمى الذى ترك السياسة واشتغل بالقضاء ثم عاد إلى السياسة ليرأس الحزب ، ثم لينفصل عنه . كذلك حافظ عفيفى الذى كان من أكبر شخصيات الحزب قدرة على التنظيم ، فقد ترك الحزب ، وعمل مع اسماعيل صدقى وزيراً لخارجيته ، ثم سفيرا فى لندن ، ثم ترك السياسة كلها

ليشتغل بالاقتصاد حتى قضت إرادة الملك فاروق أن ينزعه من بنك مصر وشركاته ، ليعينه رئيسا لديوانه حتى قامت الثورة .

وقد روى هيكل أن بشارة تقلا صاحب الأهرام عرض عليه أن يشتغل فى تحرير الأهرام أو يرأس تحريره فى سنة ١٩٢٢ حينما أذيع أن حزب الأحرار سيخرج جريدة له ، وقد اعتذر هيكل عن قبول عرض تقلا لأنه كان قد وعد الأحرار أن يكون رئيس تحرير جريدتهم ، وارتبط بوعده معهم .

وحاول اسماعيل صدقى أن يشتريه ليرأس تحرير جريدة حزبه ، فى الفترة التى شن فيها الأحرار الدستوريين حربهم الضروس على وزارة صـدقى وحكمه .

على أن عمل هيكل فى السياسة لم يكن عمل الصحفى وحده فقد كان من أصحاب الرأى فى رسم سياسة الحزب ، ولم يكن صحفياً يقف عند حـد كتابة المقالات ، بل كان يقود الحملات ، ويتعرض بسبب هذه الحملات للمحاكمة والسجن والغرامة .

وقد حاول ناظر خاصة الملك زكى الإبراشى فى عهد الملك فؤاد ، أن يساوم هيكل على أن يعتذر محمود عزمى المحرر بالسياسة ، عن مقال كتبه ورؤى أن فيه عيباً فى الملك ، على أن تحفظ النيابة التحقيق مع عزمى ، فأبى هيكل إذ رأى فى هذا الاعتذار مساساً بمقام الصحافة ، فلما حاجه زكى الإبراشى بأن مقال عزمى يتضمن مساساً بمقام جلالة الملك ، رد عليه هيكل بأن الاعتذار المقترح يتضمن مساساً بمقام صاحبة الجلالة الصحافة .

ولا يستطيع أحد أن ينسى يد هيكل على الصحافة الأدبية والفكرية فى العالم العربى كله ، فقد كانت السياسة الأسبوعية ، ثمرة من ثمار جهده وعمله ، وقد حققت ربحاً أدبياً وماديا عظيمين ، فكانت مدرسة ذات آثار بعيدة فى الأدب،

العربى ، والأدب السياسى ، وفى النقد والفن ، اجتمعت على صفحاتها أقلام لم يكن ليتاح لها أن تساهم فى تكوين الثروة الأدبيـة فى بلادنا ، لو لم يقيض للسياسة الحياة .

ولعل هيكل هو أيضاً الوحيد بين زمـلائه الذين أتيح لهم أن يتم على يديهم عمل أدبى كبير كالسياسة الأسبوعية فالمازنى والعقاد وشكرى ودياب وعزمى ، وأن ساهموا بالـكتابة فى الأدب فى أكـثر من صحيفة ، إلا أنهم لم يخرج أحدهم صحيفة ضخمة طويلة العمر ، كالسياسة الأسبوعية .

بقى أن نتعرف على دور هيكل الأديب ، وأثره الفكرى .

كانت قصة « زينب » أكبر آثار هيكل الأدبية ، حتى أخرج كتبه عن تاريخ الصدر الأول للاسلام ، وتراجم حياة الرسول ، والصديق أبى بكر ، والفارق عمر ، ثم كتابه الموسوم «فى منزل الوحى » .

وهى فى حقيقة الأمر ، عمل ذو قيمة كبيرة ، متعددة الجوانب .

أن رواية (زينب) هى بلاجدال أول عمل مصرى ، عبر به صـاحبه عن نفسه ووصف فيه حياته وبيئته .

لم يكن مألوفا فى أدبنا قبل رواية زينب أن يتحدث الـكاتب عن دنيا نفسه حديثاً طويلا . كان الأسلوب المعترف به فى الحـديث عن النفس ، هو الشعر ، وكان هذا الأسلوب ، لايسمح للشاعر أن يطيل الحديث عن خوالجه وعواطفه ، فأقصى ما كانت تتسع له القصيدةهو أبيات متفرقة ،تلمع من خلالها، بوارق خاطفة عن مشاعر الناظم .

لم يكن الفرد موجوداً فى ظل الحـكم العثمانى ، ولا فى ظل حكم عائلة محمد على ، ولا فى ظل حكم الإحتلال البريطانى فى مراحله الأولى ، كانت الشخصية المصرية ، أعدى أعداء الغزاة ، فعملوا على سحقها ، وكانت اللغـــة هى أداة إثبات الوجود لهذه الشخصية ، فقاتلوها عن عمد ، أو عن إحساس مصـــدره

اللاوعى ، فلم يعد هناك من يقول (أنا) ، ولم يعد إنسان يجترىء على أن يطلع غيره عما يختلج فى حنايا نفسه ، أو عما يضطرب فى خفايا عقله .

صحيح أن حديث عيسى بن هشام ، سبق رواية (زينب) وكان عملا قصصياً ناجحاً ، تحرر من قيود المقامة ، ووصف المجتمع فى رشاقة وحرارة ، وفوق إليه سهاماً نافذة وصارمة ، وهزأ من عيوب هذا المجتمع فى إصرار وعناد ، ولكنه لم يكن حديثاً عن نفس ، تشكو وتتألم وتطمع وتحلم ، وتثور وتتمرد ، كان تصويراً خارجيا . لذلك بقى مكان الرواية الذاتية ، شاغراً ومحفوظا لتملأه (زينب) وقد ملأته بجدارة .

والصفة الثانية لهذا العمل الأدبى ، أنه العمل الأدبى الأول الذى اعترف بالريف المصرى ، وبالفلاح ، ولقد بقى له شرف السبق لهذا العمل ، سنين طويلة لم يلحق به أحد إلا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، حينما لم يكن ثمة فضل لأحد ، فقد كان العالم كله قد اهتز من أساسه ، وكانت القيود قد سقطت عن الطبقات المكبلة ، وكانت (الموضة) أن يتكلم الكتاب عن الفلاح والعامل ، ولو لم يؤمنوا بهما ، أو يسلموا بحقهما . ولا يغض من قدر هذا العمل الأدبى الكبير ، أن (هيكل) لم يضع على غلافه اسمه ، مستبدلا بالإسم الصريح ، اسم قلم – فلاح مصرى ، أو مصرى فلاح – ولقد كان هذا التنكر فى ذاته ، خطوة ذات قيمة . فلم يتشرف عمل أدبى من قبل ، بالانتساب إلى مصرى الفلاح ولم يكن يتخيل أحد أن هناك فلاحاً مصريا يكتب فضلا عن أن يؤلف الكتب التى تطبع وتباع .

ولا يهمنا أن نعرف ما الذى حمل هيكل على هذا التنكر ، فسواء أكان ذلك الدافع هو الخشية من جناية الأدب على رزق المحامى وعمله ، فى عهد لم يكن فيه كتابة القصص لاسيما إذا كانت قصصاً تدور حول الحب والغرام ، بين فلاح وفلاحة فى قرية – محلا للاحترام . أم كان ذلك الدافع ، هو

الاستحياء عموماً من كتابة القصص الغرامية ، فى ذلك العهد المبكر من حياتنا الأدبية ، بصرف النظر عما إذا كان الكاتب محامياً يخشى على رزقه ، أو كان فردا من أعيان المجتمع الريفى ، لا يزال يلتزم قواعد معينة من الاحتشام فى النظر إلى الأمور والمظاهر . ففى الحالين ، لقد ظفر المصرى والفلاح ببروز أسميهما على غلاف كتاب ، يدور الحديث فيه عن المصريين والفلاحين ، وكان هذا العمل ، هو الأثر الأدبى الأول ، للدكتور محمد حسين هيكل ، فاستحق أن يسمى بحق أبو القصة المصرية الحديثة .

على أن الإلهام الذى قدح شرارة هذه القصة فى قلب هيكل ، والذى أسال عباراتها ووقائعها على قلمه ، إلهام جـــديـر بالتحية والإجلال ، فقد حدثنا عنه فقال : الحنين هو وحده الذى دفع بى لكتابة هذه القصة ولولا هذا الحنين ، ما خط قلمى فيها حرفا ، ولا رأت هى نور الوجود ، فقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها وكنت ما أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر ، مما تقع عيناى هناك على مثله ، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة لا تخلو من حنان ، ولا تخلو من لوعة » .

على أن قصة زينب ، حينما تقوم بميزان النقد الأدبى ومعايير الرواية التى تستلزم استكمال شرائط معينة ، لتستحق اسم القصة وتظفر بقدر من النجاح غير قليل :

يقول الأستاذ يحيى حقى عن « زينب » (١) :

« من حسن الحظ أن القصة الأولى فى أدبنا الحديث قد ولدت على هيئة ناضجة جميلة ، فأثبتت لنفسها أولا : حقها فى الوجود والبقاء ، واستحقت ثانيا

---

(١) فجر القصة المصرية ص ٣٨

شرف مكانة الأم فى الدنو منها والانتســـاب إليها ، وإلا أين كنا ندارى وجوهنا لو التف القماط على خلقة دميمة مشوهة تجد عذر دمامتها أنها من إنتاج قلم غشيم »

ويقول الدكتور على الراعى [1] عن (زينب) أيضا :

« غير أنه برغم هذه الأشكال غير الروائية ، التى تصطرع فى (زينب) مع فن الرواية، فإن ما يبقى من العمل كاف لإعتباره رواية بالمعنى العلمى المفهوم »

على أننى أستطيع أن أقول فى غير مبالغة أن رواية (زينب) لم تظفر من النقد الأدبى بما تستحقه، فقد شغل النقاد بناؤها الروائى ، وتطور شخصياتها دون أن يلقوا بالا إلى دلالة هذه القصة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، ولم يقفوا أمام ما امتلأت به من أفـكار ، وإرهاصات ثورية بالغة الخطر ، عظيمة القدر .

لو أن ظهور رواية (زينب) قد تأخر ربع قرن من الزمان ، لحق لها على التاريخ الأدبى والسياسى فى بلادنا ، أن يضعها فى الصدارة من الأعمال الثورية فما بالك ، وقد ظهرت فى هذه الفترة التى كانت فيها الأفـكار الاجتماعية هاجعة ، والنظر التقليدى إلى الأمور سائداً ، والفلاح بكل أموره ومشكلاته ، نسياً ، منسياً أو يكاد . فيما عدا ما قاله مصطفى كامل عن الفلاح واهتمام محمد فريد به ، وانشغال باله ، بفقره ومرضه وسوء أحواله ، لم يكن هناك ما يقال عن هذه الأغلبية الضخمة من أهل بلادنا .

ولذلك كان الدكتور هيكل سابقا لزمانه ، ومتفوقاً على ذات نفسه حينما نثر فى قصته هذه العبارات الثائرة المتجددة ، إسمعه يقول عن (ابراهيم) بطل

---

(١) دراسات فى الرواية المصرية ص ٤٦ .

القصة ، حينما جند الجيش ولم يستطع أن يدفع (البدلية) أى البدل النقدى الذى يفتدى به المصريون أنفسهم إذاهم رغبوا عن الانخراط فى سلك الجيش :

« تهيجت نفسه مشمئزة ومتألمة وحنق ألا يجد بدلا نقديا يدفع به العبودية من غير ما معنى ولا ضرورة ، ولا يجد ما يشترى به حريته كما يشتريهاغيره ممن يملكون النقدية (١) » .

ثم اسمعه يقول عن (ابراهيم) وهو مسافر لدخول الجيش (٢) :

« ولو أنه ذهب لغزو وفتح لذهب مسروراً منتظرا أن يرجع أوبة الفاتح المنتصر ويحدث بأعماله ويفتخر بقواد جيشه وضباطه ولكنه والحال أنه ذاهب لصغائر الخدمة تحت أمرة المتحكمين فما أشد ذلك إيلاما له ، وما أقوى وقعه على نفسه »

ثم اسمعه يقول أيضا عن ابراهيم :

« أنه فقير لذلك لا يستطيع أن يمسك بيده حريته ولا يمكن أن يكون مع غيره على بساط من المساواة أو قليل من العدالة . ليست عنده الحرية التى يمسك منها غايته بيده بل هو مسوق شاء أو أبى إلى موقف هو فى أكثر الأمم غزاوت ولكنها فى بعضها صغار وذل . هو فى الأكثر دفاع عن الأمة وحريتها ورفع لمقامها أن تمسه يد ، وفى البعض خضوع لتحكم أجنبى ..»

ثم أنظر إلى إعلان ثورة الفلاح ، وانتظار يوم أن تتوج هذه الثورة بالنجاح :

« عبث إذن آلام ابراهيم وشكواه وليس له إلا أن يصبر تحت تصريف الأقوياء والأغنياء فى حياته ورزقه حتى يجد من بنى طائفته الفقراء والعمال من

---

(١) زينب ٢٩١ الطبعة الأولى

(٢) ٢٩٣

يتعاون معه على دفع بلوى المجموع والأخذ بالثأر فى حكام الجمعية الغاشمين . ليس له إلا أن يبقى ساكنا حتى يأتى اليوم الذى لا تضيع فيه كلمة من غير أن يسمعها أحد بل تسكون حين منطقها ذات رنين يقرع آذان المتحكمين فى رزقه، ورزق أمثاله والقابضين على حريتهم جميعاً ، يقرعها فتفزع لفزعه ، وتتجه نحو الصوت ، لتفهم ما يريد ، وتجيبه إلى ما يطلب » .

كيف غفلت الأعين عن هذه الجمل المتخمة ببذور الثورة ثم كيف غفلت الأعين عن الإقرار بالذنب ، والشعور بالإثم ، التى نضحت به الجملة التالية :

« ولـكنى أقر اليوم وأنا خجل من إقرارى أنه رغما من كل ما وجدته فى الغيط الذى أنا فيه من العيوب الـكبيرة الـكثيرة فإنى لا أزال أنظر للطبقات التى ظلمنا نظرة تعاظم فارغ » .

ولا يتسع المجال لإحصاء كل امتلأت به رواية (زينب) من مثل هذه العبارات المجيدة السابقة لأوانها بكثير ، ولـكن لا نستطيع أن نترك رواية زينب ، قبل أن ننقل منها فقرتين واحدة تصف حال المرأة المصرية ، ويقول فيها :

« هل تظن يا أخى حامد أن معشر البنات سعيدات فى ذلك السجن العتيق . أنـكم تحسبونا دائما راضيات ولـكن الله يعلم علقم ذلك الوجود المر الذى نحتمله مرغمين ثم نعود عليه قليلا قليلا كما يعود المريض على مرضه وفراشه »

أما الفقرة الثانية فيقول فيها عن (حامد) بطل القصة الثانى :

« هو بين اثنين كلاهما شر ، أما أن يبقى فى انتظار ذلك للموت الذى تأتى به لا شك الحياة . . أو يرتمى فى أحضان الفضلات الفاسدة التى التى رميت بها هاته البلاد المسكينة من الغرب السعيد المجرم » .

ورواية (زينب) بعد ذلك تمتاز بخصائص أخرى منها أن مؤلفها قد حشى كلامه فيها بعثات من الألفاظ العامية ، أوردها كأنها عربية صميمة دون أن

يبدو عليه التردد أو التهيب ، أو الرغبة فى التظرف ، أو محاولة إحداث المصالحة بين الفصحى والعامية . ومن أمثلة ذلك :

سلك (ملضوم) - انبرمت - أيام الصفرنة - نكش الأرض - يسوخ إلى أنخاذه - نباتة ابنته - ناشفة - دبروا عليه المبالغ بفايظ - تلدحها الشمس - لا تسمع هسيساً - يحذف إلى الماء - سطحها المبلول - ملأوا الجو بصفارهم - دوخانا - يملس عليها - عائمة درديس الأمر الثانى الذى يستوقف القارىء كثرة الأخطاء النحوية فى الرواية ، ومن ذلك أسبلت عيناها - وعيناها الناعستين - السكة عن جانبيها المصرفين - فى حين يجلس هؤلاء العمال الطيبى القلب - ليس الجيل الحاضر إلا جزء تكميلى - لو أن أبواها - قابلت بعضهن راجعات والآخرون سارحين - أنى أحب أبواى . ولهيكل فى رواية زينب تشبيهات معكرسة ، فهو فيما يريد أن يمدح يذم ، فيقول درر وجناته - السكون الأخرس ، والدنيا الهادئة الهامدة - وهو يصف الظلمة بأنها درديس ، وهو وصف للمرأة العجوز الطاعنة فى السن .

وزينب على بطء الأحداث فيها ، وتكرر وصف مشاهد الطبيعة فى الريف المصرى ، ووصف القمر بالذات ، فى عبارات لا تجديد فيها ، ولا خيال جميل ، تنجح فى أن تنقل إلى نفس قارئها الإحساس بمدى حب مؤلفها لبلاده وللريف ولأهل الريف ، ولقد حاولت أن أتذكر كاتباً آخر حاول أن يصف الريف المصرى فى الأربعين السنة التالية لظهور زينب فلم تسعفنى الذاكرة بشىء .

أما كتبه الإسلامية الثلاثة ابتداء بكتاب (محمد) عليه السلام ، فقد كانت مرحلة من مراحل التفكير فى مصر ، فقد كان كتاب المدرسة الحديثة التى يمثلها هيكل والعقاد وعزمى والمازنى ومنصور فهمى بعيدة عن التراث الإسلامى ، وكان الظن عندها ، وإن لم تقل ذلك صراحة ، أن التجديد فى

التفكير لن يتم ، إلا إذا ما استطاع البعد عن الفكر الإسلامى لأنه يفرض قيودا عليهم ، ولأن ما انتهى إليه هذا التفكير ، أصبح تاريخا ، لا يصلح مادة لإحياء مصر ، ولا لبعث القوة والنشاط فى أوصال حياتها العقلية أو الذهنية . وكانوا أقرب ما يكونون إلى نبذ التفكير الدينى كلية ، ولو كملت لهم الشجاعة يومذاك لدعوا إلى الخروج عليه[1] ، وكان يقوى هذا الاتجاه عندهم ، الإفلاس الذى حل بالأزهر والأزهريين ، والذى قطع بينهم وبين التفكير فى شئون الدين ، وحال بينهم وبين المساهمة فى شئون الدنيا ، فلم يعد الأزهر يخرج كتابا ، ولا بحثاً ، ولم ينشر قديما ولا يضيف جديدا وكان الشعراء والكتاب ، وكان الخطباء والمتحدثون ، من غير أبناء الأزهر ، أو كانوا على أحسن الفروض من أبناء الأزهر الذين لم يتموا تعليمهم فيه ، واتصلوا بالثقافة الحديثة ، كالمنفلوطى وحفنى ناصف وغيرهم .

ولكن هذه الموجة من التفكر للتفكير الإسلامى وللتراث القديم ، لم تلبث أن انحسرت[2] ، وحل محلها شعور جاء فى تدرج ، أكد للمدرسة الحديثة أن بناء الأمم الجديدة لا يكون بنزع أصولها من تربتها القديمة التى نشأت فيها وإنما يكون بتلقيح الأشجار العتيقة وتطعيمها بأشجار أكثر شبابا وأصغر عمراً .

ولقد أحس هيكل بهذا الإحساس ، حينما رأى الدعوة إلى التبشير المسيحى تقوى ، وحينما رأى الجامعة الأمريكية هى مركز هذه الدعوة ، وحينما تبين أن إدارة الأمن العام الأوروبية ليست بعيدة عن هذه الدعوة فبدا له فى وضوح أن التبشير بالمسيحية ليس الغاية وإنما الغاية هو بلبلة خواطر المصريين ، وأضعاف حركتهم الوطنية ، وهنا دفعه شعوره الوطنى إلى البحث عن مصادر غربية للتاريخ الإسلامى وتاريخ الرسول ، وهو رد فعل عجيب ، ولكنه كان يألف الرجوع

(١) ، (٢) ثورة الأدب ص ٢٣٦ فقد قال هيكل : الذين فتنوا بالأدب الغربى خيل إليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب واعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى .

إلى المصادر المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية ، وكان يعتقد أن نشر تاريخ الرسول مستندا إلى المؤرخين الأوروبيين ، يزيد من ثقة المسلمين بأنفسهم ودينهم ، وقد كان فانه لم يكد يقرأ (درمنجيم) عن محمد ، حتى انفتحت شهيته لقراءة كتاب سيرة ابن هشام ، وكتاب السيرة الحلبية ، وغيره من كتب السيرة ، وقد أسلمته هذه الكتب لغيرها ، كما أسلمته ترجمة حياة محمد إلى ترجمة حياة الصديق أبى بكر ، ثم الفاروق عمر ، وفى خلال هذا سافر إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج ، وليضع كتابه الفريد فى منزل الوحى .

إن ظهور التراجم الثلاثة محمد والصديق والفاروق ، كانت ظاهرة قومية أكثر منها ظاهرة دينية ، فقد كانت الكتب الثلاث إيذانا بعودة المصريين إلى أصولهم الحضارية ، وإلى العدول عن سياسة رفض الماضى بكل ما فيه من خير وشر ، وسياسة الاتجاه إلى الغرب الحديث واستمداد الوحى منه ، واصطناع أساليبه ، والاستسلام لروحه .

ولذلك قد لا نجد فى كتب هذه التراجم شيئاً جديداً لا نجده فى كتب السيرة القديمة ، ومع ذلك فقد كان لهذه الكتب ولا سيما الأول منها ، أثر كبير عند الناشئة ، وعند الذين سبقوهم إلى الحياة . فقد رأوا فيه صورة ماضيهم ، يمكنهم أن يتأملوا ملامحها ، بعد أن حلت القطيعة بينهم وبين الكتب القديمة الصفراء التى بانت أشبه شىء بالحفريات التى لا يقوى على كشف ألغازها ، وحل أحاجيها ، إلا من أتى الصبر والعزم .

وقد أثمرت هذه الكتب ثمرتها فتوالت كتب كبار الكتاب فى مصر وخارجها عن صدر الإسلام بخاصة ، وعن كبار القادة المسلمين بعامة ، ولاشك أن كتب العبقريات للعقاد ، وكتاب محمد للحكيم ، كانت كرجع الصدى من كتاب هيكل ولقد استمر كبار الكتاب فى هذا الإتجاه ، الذى سبقهم إليه ،

هيكل ، حتى أخرج العقاد إسلامياته المتعددة مثل كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومه والفلسفة القرآنية ، وحتى أخرج طه حسين مرآة الإسلام بعد كتاب على هامش السيرة .

أما كتابه (فى منزل الوحى) فقد كان جهداً ضخماً لم يشق فقط فى أدائه، وهو يخبط فى مجاهل الكتب القديمة ، التى تحتاج إلى زاد ضخم من الصبر ، وقدرة كبيرة على إستخلاص القليل بعد قراءة الكثير ، بل شق أيضاً وهو يطوف فى مواقع فجر التاريخ الإسلامى ، موقعاً بعد موقع ، صاعداً هابطاً ، متلمساً طريقه فى حذر وإشفاق ، فى شعاب الجبال ، ليرى بنفسه ، وليشهد بعينيه أين عاش الرسول وكيف تخفى ، وفى أى الأماكن لقى أعداءه ، وأى الطرق سلك ، ناجياً بنفسه وبدعوته من كيد خصوم فكرته وعقيدته.ولقد كانت هذه الجولة وحدها فوق المسرح الأول للتاريخ الإسلامى ، بعثاً لروح هذا التاريخ، ولآثاره الروحية والعقلية فى نفوس الألوف الذين قرأوا الكتاب ، ثم أعادوا قراءته ، وهو جهد لم يسبق هيكل أحد إليه ، بل لم يشاركه فيه من معاصريه وأنداده مشارك ، بل أن أحداً منهم ، لم يساوره أن يجرب التجربة نفسها ، ليخرج بجديد يضيفه إلى ما استخلصه وأثبته هيكل .

وقد قدم هيكل لكتابه هذا :

« ثلاثمائة مليون من المسلمين أو يزيدون تهفو قلوبهم جميعاً إلى منزل الوحى ويهزم الحنين إليه ويولون وجوههم شطره خمس مرات فى اليوم أينما أقاموا الصلاة ، وإلى البيت العتيق تهوى أفئدتهم رغبة فى إداء فريضة الحج وإلى قبر الرسول النبى العربى يحثهم الشوق إبتغاء زيارته .. بلاد ذلك مبلغها من عناية العالم جديرة بأن تتعلق بها أفئدة الكتاب والشعراء والمؤرخين والعلماء . لكننى شعرت آخر الأمر أنه سيظل ينقصنى جوهر ما أبحث عنه إذا أنا لم

أذهب إلى بلاد النبى العربى بنفسى ، ولم أقف فى أدق مامر به أثناء حياته . لذلك رأيت من الخير أن أطالع القراء بكتاب مستقل يتناول مارأيت ويتناول ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعاً إلى عهد الرسول .. وكان حديث الآثار التى وقفت عندها كل البلاغة فى التعبير عما تدل وتوجه إلى النفس من آى الجلال والعظمة . فجبل حراء ، والغار فى قمته ، ومسجد عداس بالطائف ومسجد العقبة وجمرتها وجبل ثور ومختبأ رسول الله وأبى بكر ... والطريق الذى سلكه النبى إلى المدينة حين هجرته من مكة . ومسجد قباء والمسجد النبوى والآثار الكثيرة المختلفة بالمدينة ، وميدان بدر وقفته الأولى بين قريش والمسلمين هذه المواقع وما إليها كانت تثير أمام ذهنى ذكريات مليئة بالحياة كأنما حدثت بالأمس ... ولقد كان ما أوحته هذه الأماكن مما حاولت تصويره فى هـذا الكتاب — أبلغ من كل ما استطاع قلمى أن يصفه أضعافا مضاعفة . »

وقد قال الدكتور عبد الوهاب عزام عن كتاب منزل الوحى :

« ذهب (الدكتور هيكل) إلى الحجاز فلم يقنع بالأعمار والزيارة ولم يكتف بمافى مكة والمدينة من المشاهد وماحولهما من معالم التاريخ الإسلامى ، ومشاهد السيرة النبوية بل جشم نفسه الإسفار إلى المنازل البعيدة جهد الطاقة فذهب إلى الطائف وإلى بدر وغيرهما واستلهم هذه المعاهد، فألهمته ، واستوحاها فأوحت إليه فكتب (فى منزل الوحى) فياضاً مسهباً يبين عما فى عقلـه من تشوق إلى المعرفة ، وطموح إلى إ كتناه حقائق التاريخ ، ومافى عاطفته من حب وإجلال وما فى قلبه من إيمان .. »

ولازالت أرى أن كتاب (منزل الوحى) هو حلقة فى التاريخ ،وأنه يمكن أن يكون نواة لكتاب ، يخلو من التفاصيل ، ويتحرر من جهامة التدقيق ، ليكون كتاب أدب ، يروى تاريخ هذه المواقع والمواطن، ومادار فيها ، وماتقرر

من مصائر الإنسانية عليها ، فيوحى ويلهم ، ويحرك الوجدان ..

هذه هى الكتب الكبرى التى خلفها الدكتور محمد حسين هيكل يصغر إلى جانبها كتابه « ثورة الأدب » ، وعشرة أيام (فى السودان) ، و (فى أوقات الفراغ) ، وقصته الأخيرة (هكذا خلقت) وإن كان لكل من هذه الكتب ، ولتلك القصة مكانه المرموق فى تاريخ نهضتنا الأدبية الحديثة ، وإن كان لترجمة لكتاب جان جاك روسو مزية الطليمة فى عمل الكاتب ، وهو بعد يبحث عن نفسه وعن مصادر إلهامه ومزية الدراسة الكاملة فى عهد كانت فيه دراسات كتابنا عملا سريعاً عصبياً ، وهو كتاب ليس ثمة أطرف من تعليق شفيق غربال عليه .

«أما روسو فقد سحر هيكل حقاً ، كما سحر غيره من قبل ، ومن بعد ، أبقى فعل السحر ؟ لا أظن فالعمل فى السياسة ، والوصول لمناصب الحكم كفيلان تماماً بإبطال أى سحر وأى ساحر . ويدلنى على صحة ماذهبت إليه أن هيكل لم يلق بالا فيما بعد ، لكتابه روسو بجزأيه فبقى الكتاب بورقه الرخيص وطبعه السقيم وغلطه المطبعى الفاحش ولم يصدر هيكل الجزء الثالث على الرغم من أنه أجل لذلك الجزء بحث العقد الإجتماعى ، ورسائل الجيل والإعترافات هذا مع العلم بأن ذلك الكتاب مما يستحق أن يفخر به أى مؤلف ، فقد قرأ مؤلفات روسو بكل عناية ، كما قرأ أهم ما كتبه النقاد عن روسو . »

ألا أن الدكتور محمد حسين هيكل بقى إلى آخر اللحظة من حياته يكتب ، ويخطب ، ويعمل فى المجمع اللغوى ، ويدعى إلى الخارج فيسافر ، وتتاح له فى كل هذا فرص يترك فيها آثاراً أعظم من الكتب والخطب ، فما من أحد ينسى موقفه أمام محكمة الثورة حينما دعى ليشهد فى قضية فؤاد سراج الدين الذى تهدده وهيكل فى كرسى رئيس مجلس الشيوخ ، وفؤاد سراج الدين فى منصب

الوزير بقوله : إنى أرى كرسى الرياسة يهتز » وفضلا عدل المرسوم الذى عين بمقتضاه الدكتور هيكل عضواً فى مجلس الشيوخ ، وعزل من العضوية والرياسة معاً ، نسى هيكل كل هذا ، وأدى الشهادة لله ، فى إستقامة وشجاعة ، فكان موقفاً جديراً به ، وجديراً بالسادة من أهل الفكر .

الفصل الحادى عشر

أحمد أمين

هذا كاتب أحببته ، قبل أن أقرأ له كتاباً ، أو أرى له رسماً ، ولهذا الحب قصة تدعو إلى الإبتسام . كان خالى ، وزوج أختى، يدرسان فى مدرسة الحقوق كان أولهما طالباً منتظماً فيها ، وكان ثانيهما طالباً منتسباً ، أتم علومه فى مدرسة المعلمين العليا ، ولكن حبه للعلم والدرس ، دفعه إلى الانتساب إلى مدرسة الحقوق . وكنت كذلك أسمع فى بيتى منهما إسم أحمد أمين ، فقد كان أستاذا كبيراً بين أساتذة القانون ، وكان كتابه فى شرح قانون العقوبات من عمد المراجع القانونية ، وكان الثناء على وضوح أسلوبه ، ونقاء لغته ، وعمق مادته ، على لسان صهرى وخالى ، وألسنة من يتردد عليهما من الصحب والأصدقاء .

وكنت آنذاك فى السنة الثالثة أو الرابعة فى مدرسة محمد على الابتدائية ، بدأت أقرأ الكتب والصحف ، وكنت أحب أن أتشبه بمن يكبرونني فى السن بقراءة بعض ما يقرأون ، ولذلك كان سرورى عظيما حينما وقع فى يدى كتاب قرأت على غلافه أنه من تأليف أحمد أمين ، ففتحت صفحته الأولى ، وقرأت فإذا الكلام مفهوم ، وإذ أنا قادر على أن أتم الصفحة ، فجلست على مقعد قريب من المنضدة التى يطالع فيها صهرى ، ورحت أقرأ ، مؤملا أن يسألنى فيم أقرأ لأقول له : كتاب لأحمد أمين . ولما لم يسألنى ، اغتظت ، وقلت : لكم حق ، أحمد أمين يكتب حسنا. ففتح صهرى عينيه الواسعتين وقال : وأنت أيضاً تقرأ له ، أرنى هذا الكتاب . ومددت له الكتاب ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وعلى وجهى كل علامات التحدى الواثق المطمئن . وقرأ بسرعة الإسم على الغلاف وهز رأسه وقال : آه .. هذا أحمد أمين الثانى !

وفجعت بهذا الرد، ولم أتهم صبرى بتعليق تجاوز به الحقيقة ، فقد كان جادا لا يعرف المزح : أهناك اثنان يحملان نفس الاسم . فقال ، وهو يستأنف القراءة : هو ذاك ..

وعدت إلى مطالعة الكتاب أقل نشاطاً ، وأضأل حماسة ، ومع ذلك لم أنصرف عنه ، وكأنى أقول لنفسى : لهم أحمد أمين - ولى أحمد أمين ، ومن يدرى فلعل أحمد أمين الذى أقرأ له أفضل من هذا الذى يقرأون له .

ومضت سنون كثيرة ، وعرفت الإثنين ، عرفت أحمد أمين القانون من كتبه وأحببته ، وأجللت قدره ، وعرفت أحمد أمين الأدب وتاريخ الأدب ، عن قرب ، فقد كنا متجاورين نسكن بيتين متجاورين فى مصر الجديدة ، ومن عجب أننى بقيت أحفظ عنوان منزله بها (٤ شارع الرمل) سنين متعاقبة يأبى أن يسقط من ذاكرتى ، شأنه شأن أشياء كثيرة أخرى تعلق بالذاكرة وحدها وتسقط أشياء مثلها لغير علة ظاهرة ولا سبب مفهوم .

ولما كنا متجاورين فقد كنت أراه فى (المترو) ، وكان يومها وسيلة مواصلات ممتازة تزهو بها ضاحية مصر الجديدة على غيرها من ضواحى القاهرة كانت عرباتها واسعة نظيفة ، وكانت مقاعدها أنيقة مريحة ، وكانت لذلك تضم عدداً من كبار سكان تلك الضاحية ، فكثيراً ما تقابلت فى المترو ، فى الصباح والمساء ، بعباس العقاد وصبرى أبو علم المحامى ووزير العدل فيما بعد ، وأحمد شفيق باشا نائب رئيس الوزراء ووزير الأشغال الأسبق ، ومحمد على علوبة باشا وزير المعارف الأسبق وسعيد لطفى مدير الإذاعة وشقيق لطفى السيد، وكانت عربة المترو لهذا تنقلب ندوة أدب لفترة الرحلة من مصر الجديدة إلى القاهرة ، أو العكس . وفى السنين الأولى لسكناى بمصر الجديدة ، لم يكن أحمد أمين قد اشترى سيارة بعد ، فكنت أراه ، وأسمعه ، وأتحدث إليه .

وأحاول الآن أن أستعيد صورته - هو طويل قمحى اللون ، يلبس نظارات سميكة على عينيه ، يخيل إليك وهو يسير ، أنه يسير فى جبه وقفطان ، مع أننى لم أره إلا مرتديا بذلة أفرنجية . لم يكن أنيقا ولكنه لم يكن من طراز الأدباء الذين يهملون ثيابهم . قليل الكلام طويل الصمت ، مهذب مؤدب ، ولكنه ليس من الطراز الذى تحس بحرارة استقباله ، إذا استقبلك، أو حرارة توديعه إذا ودعك ، ولا تشعر أنه مقبل عليك إذا تكلمت ، كما لا تشعر أنه منصرف عنك . يدخن كثيراً ، فلا أذكر أنى رأيته بغير سيجارة بين أصابعه . فى لسانه لثغه فى حرف الراء ، لا أذكر أنه قال يوماً كلاما علـــق فى ذهنى ، أو استوقف سمعى .

لما ذهبت إلى كلية الحقوق ، وقضيت سنة فى كلية الآداب ، عملا بالنظام الذى كان متبعاً فى أيامنا ، لم يقع نظرى على أحمد أمين ، ولم أسمعه يحاضر ، مع أنى سمعت طه حسين ومنصور فهمى وأمين الخولى ، وتأخرت صلتى به سنوات حتى فكرت فى الدعوة لمؤتمر الطلبة الشرقيين ، وعرضت عليه أن يكون عضواً فى اللجنة التحضيرية الداعية لهذا المؤتمر ، فقبل وكتب إسمه مع السنهورى وعزام ومنصور فهمى، ولا أظن أنه اهتم كثيراً بهذه الفكرة، أو منحها شيئاً من عنايته ، وهى على كل حال لم يطل بها العهد ، فقد عاجلها الموت ، حينما أصدر حلمى عيسى وزير المعارف قراراً بفض لجنتها ، لأننى كتبت فى بيان من بيانات اللجنة أننا ندعو لزعامة مصر فى البلاد العربية ، فصرف الوزير زعامة مصر إلى زعامة النحاس ، وهو لا يدرى أننى من غير الداعين لهذه الزعامة الأخيرة . وفى ذات يوم كنت فى دار الكتب هابطاً سلالم الدار إلى الخارج ، وكان أحمد أمين صاعداً إلى الدار فتلاقينا على درجة من درجات هذه الدار الطويلة العريضة ، استوقفنى وقال كالغاضب لا .. لا .. أنا لا أحب العمل بهذا الأسلوب . أنا لا أرضى عن نشر كل شىء فى الصحف .. وكان هذا تعليقا منه على بيان نشرت

فيه بعض ما اتفقنا عليه فى إحدى اجتماعات اللجنة التحضيرية ، ولم يكن فيما نشر شىء من قبيل إفشاء مداولة ذات خطر ، ولا من قبيل الدعاية الرخيصة ، ولكن أحمد أمين كان يتشدد فى البعد عن النشر ، ولم أغضب منه يومها ، فقد كنت أقدر هذا الإتجاه منه ، ولا أضيق به .

وفى هذه الفترة رأيت مولد مجلة الرسالة ، فقد كان الأستاذ أحمد حسن الزيات أستاذاً فيما أذكر بدار المعلمين ببغداد وعاد إلى مصر ، واعتزم أن يصدر مجلة الرسالة ، فقصد إخوانه أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ليعينوه فى تحرير هذه المجلة ، وكانت دار اللجنة فى ذلك الوقت ، بشارع الساحة بنفس العمارة التى شغل مكتبى فيها شقة ، يوم أن اشتغلت بالمحاماه . وإنى أذكر إلى اليوم هذا الإجتماع ، وكان من بين الحاضرين أحمد أمين ومنصور فهمى وربما محمد عوض ، ثم الزيات ، والظاهر أنهم كانوا قد فرغوا من الحديث فى شأن مجلة الرسالة وحجمها وعدد صفحاتها فقد كان فى يد الزيات ورق فى مثل حجم الرسالة . ولما بدأت أتحدث عن مؤتمر الطلبة الشرقيين قلت أننا ندعو إلى رسالة فابتسم أحد الحاضرين فقال : رسالة زى رسالتك .. ولم أفهم يومها المقصود ، حتى ظهرت الرسالة وعرفت لأى شىء كان يشير .

وقصة حياة أحمد أمين ، وثيقة تؤرخ للحقبة التى عاش فيها ما بين اليوم الأول من أكتوبر سنة ١٨٨٦ حتى توفاه الله فى سنة ١٩٥٥ . لأنه بدأ حياته تلك فى حى للنشية قريباً من القلعة بعد الإحتلال البريطانى بأربع سنوات فشهد فى صباه مصر ، وهى لم تفق بعد من هول صدمة هزيمة الثورة العرابية ، والإحتلال الأخير وغلبة اليأس على الناس ثم صاحب بلاده حتى دوى فيها صوت مصطفى كامل ، ثم حتى قامت ثورة سنة ١٩١٩ إلى بقية أحداث السياسة وتطوراتها . وقد فتح عينيه فى حى مصرى قح ، كأنما يعيش فى القرون الوسطى ، فالبيوت فى الحى كله لا تعرف من الحضارة الحديثة شيئاً . المياه تنقل إلى تلك البيوت فى قرب على

ظهر سقاء ، يصعد درجات السلم القديمة المتآكلة ، وهو يردد « ياساتر » ثم يخرج إلى الشوارع ، ينادى على بضاعته . وأهل الحى يستضيئون فى الليل بلمبات الجاز . ويهيئون طعامهم فى أفران ، ثم يتقدمون خطوة فيستعملون مواقد فحم (الكوك)، ثم يخطون خطوة ثانية فيستعملون مواقد البترول التى يسمى كل منها « وابور » وأشهر هذه الوابورات ، ماصنــــع فى السويد ، وما حمل ماركة (بريموس) ، وقد عرف أحمد أمين التعليم فى صوره البدائية وفى المدرسة المنظمة وفى الأزهر حتى انتقل به الأمر إلى أن يكون أستاذاً فى الجامعة وعميداً لإحدى كلياتها فأول ما تلقاه من علم كان فى (كتاب) مع صبية مثله يجلسون أمام الشيخ صفوفا ، وهم يرتدون جلابيبهم ، وإذا حفظوا شيئاً، أو سمعوه ، كان لابد لهم أن يهزوا رءوسهم وأجسامهم هزاً كأن العلم لا يدخل إلى عقولهم إلا بعملية الهز هذه ، مع رفع الصوت ، وكأنهم يتغنون. فإذا جاء وقت الظهيرة، دفع كل منهم إلى سيدنا ، نصف قرش ، أو جزء منه، ومما يتجمع من هذه الملاليم وأنصاف القرش يشترى به فول نابت مع مرقته ، وطرشى مع مرقته ، ثم يتحلق الأطفال ومعلمهم وأكبر صبى فيهم ويسمى (العريف) حول طبقين كبيرين عميقين ، يوضع فى أحدهما الفول ، ويوضع فى الثانى الطرشى ، ثم يمدون أيديهم الصغيرة إلى هذا الطبق مرة ، وإلى ذاك مرة ، باحثين عن حبات الفول ، وعن قطع المخلل ، ثم يقتطعون من رغيف جاف يحملونه فى الصباح تحت آباطهم من منازلهم، كسرة بعد كسرة، ليكملوا وجبتهم الفقيرة التى لاتتغير على مر الأيام . وليس فى الكتاب من أثاث سوى حصيرة ، ثم (فلقة) وحلقة فى مسمار على الحائط ، و (الفلقة) هى شعار (الكتاب) ورمز النظام فيه ، وأداة سيدنا فى إشاعة الرعب فى قلوب التلاميذ الصغار ، ليحفظوا ، وليلزموا السكون .

فإذا اخطأ أحدهم ، تولى (العريف) مد الصبى الذى أبى عليه حظه إلا أن يقع تحت طائلة العقاب .(والمد) هو اصلاح معروف فى عالم الكتاتيب معناه

ظهر سقاء ، يصعد درجات السلم القديمة المتآكلة ، وهو يردد « ياساتر » ثم يخرج إلى الشوارع ، ينادى على بضاعته . وأهل الحى يستضيئون فى الليل بلمبات الجاز . ويهيئون طعامهم فى أفران، ثم يتقدمون خطوة فيستعملون مواقد فحم (الكوك)، ثم يخطون خطوة ثانية فيستعملون مواقد البترول التى يسمى كل منها « وابور » وأشهر هذه الوابورات ، ماصنع فى السويد ، وما حمل ماركة (بريموس) ، وقد عرف أحمد أمين التعليم فى صوره البدائية وفى المدرسة المنظمة وفى الأزهر حتى انتقل به الأمر إلى أن يكون أستاذاً فى الجامعة وعميداً لإحدى كلياتها فأول ما تلقاه من علم كان فى (كتاب) مع صبية مثله يجلسون أمام الشيخ صفوفا ، وهم يرتدون جلابيبهم ، وإذا حفظوا شيئاً ، أو سمعوه ، كان لابد لهم أن يهزوا رءوسهم وأجسامهم هزاً كأن العلم لا يدخل إلى عقولهم إلا بعملية الهز هذه ، مع رفع الصوت ، وكأنهم يتغنون. فإذا جاء وقت الظهيرة، دفع كل منهم إلى سيدنا ، نصف قرش ، أو جزء منه، ومما يتجمع من هذه الملاليم وأنصاف القرش يشترى به فول نابت مع مرقته ، وطرشى مع مرقته ، ثم يتحلق الأطفال ومعلمهم وأكبر صبى فيهم ويسمى (العريف) حول طبقين كبيرين عميقين ، يوضع فى أحدهما الفول ، ويوضع فى الثانى الطرشى ، ثم يمدون أيديهم الصغيرة إلى هذا الطبق مرة ، وإلى ذاك مرة ، باحثين عن حبات الفول ، وعن قطع المخلل ، ثم يقتطعون من رغيف جاف يحملونه فى الصباح تحت آباطهم من منازلهم، كسرة بعد كسرة، ليكملوا وجبتهم الفقيرة التى لاتتغير على مر الأيام . وليس فى الكتاب من أثاث سوى حصيرة ، ثم (فلقة) وحلقة فى مسمار على الحائط ، و (الفلقة) هى شعار (الكتاب) ورمز النظام فيه ، وأداة سيدنا فى إشاعة الرعب فى قلوب التلاميذ الصغار ، ليحفظوا ، وليلزموا السكون .

فإذا اخطأ أحدهم ، تولى (العريف) مد الصبى الذى أبى عليه حظه إلا أن يقع تحت طائلة العقاب .(والمد) هو اصلاح معروف فى عالم الكتاتيب معناه

وضع قدمى الصغير الخاطىء فى حبل الفلقة ، لأنها مكونة من عصا ، ثقبت من طرفيها ، وركب حبل عليها ، أدخل طرفاه فى الثقبين فإذا جاءت ساعة العقاب، لف العريف الحبل على قدمى الطفل ورفعهما لأعلى فلا يتحركان ، وأهوى سيدنا بعصاه على القدمين المرة بعد المرة ، والطفل يصرخ ، والمعلم يشتد ، وقد لا تنتهى عملية التعذيب هذه إلا إذا بض الدم من القدمين ، أو جرحا . وقد عرف أحمد أمين هذه التجربة فى أحد الكتاتيب الأربعة التى تنقل بينها فمنعه أبوه من العودة إليه .

ولكنه آخر الأمر ، خرج من جولته فى هذه الكتاتيب بحفظه للقرآن ، ومعرفته للقراءة والكتابة ، وهذه نتيجة ليست بالشىء القليل .

وكانت الحارة التى ولد فيها أحمد أمين ، هى حارة (العيادية) ، وكان لها باب يقفل عليها فى المساء ، وكانت الحارة مجتمعا قائماً بذاته ، على رأس الحارة منزل لرجل غنى ، كان نائباً للمحكمة العليا الشرعية ، يملك عربة ويهابه الناس، فإذا عاد من عمله، أمسكت النسوة عن الشجار والسباب ، وعمليات الشجار للفضلة طول النهار ، ينفسن بها عن حيوية متدفقة لا تجد فى الدنيا الضيقة داخل البيوت التى أغلقت عليهن أبوابها ، مايستهلكها أو يخفف عنها . وكان الرجل فى البيت الكبير مع سيدة تركية وجوارى من أهل افريقيا ، اشتراهن ، يوم أن كان من الممكن شراء العبيد من الرجال والجوارى من النساء ، كما تشترى البهائم ، وكان أهل الحارة ، يقولون أن الشيخ يملك ذهباً كثيراً وأنه يضعه فى صرر ، ويضع الصرر فى خزائن حديدية ، وأن له يوما معلوماً فى السنة ، يخرج الذهب من خزائنه ، ثم يغسله فى طشت بالماء والصابون ، ويعيده إلى صرره وخزائنه من جديد .

ولكن إلى جانب الشيخ بقصره ، وذهبه ، والبغلة التى كان يركبها

لحضور للناسبات الرسمية، وعليه ثوب مطرز بالقصب يسمى (فراجيه) ، كان فى الحارة سكان من الطبقة المتوسطة الصغيرة منهم والد أحمد أمين الذى كان إماما فى مسجد ، ومدرساً ، وكان من هذه الطبقة موظفون فى وزارات الحكومة ودواوينها ، وأصحاب أملاك صغيرة تدر عليهم بعض المال ، ولم يكن فى هؤلاء من يزيد دخله عن اثنى عشر جنيها فى الشهر ، وكان أفقرهم يعيش على دخل قدره سبعة جنيهات ، ولكن الجنيه كان أيامها ذهبا ، وكانت تكاليف المعيشة خفيفة ، فالبيضة بمليم أو أقل ، ورطل اللحمة بثلاثة قروش ، وكان دخل والد أحمد أمين اثنى عشر جنيها ، ومع ذلك استطاع أن يدخر منها وأن يبنى المنزل الذى ولد فيه أحمد أمين ، وكان من ثلاثة أدوار .

وبالجملة كانت هذه القرية الصغيرة ، المكونة من بيوت حارة العيادية التى تبلغ ثلاثين بيتاً ، سعيدة ، وقد كانت آية هذه السعادة أنه كان لكل بيت (منظرة) ، والمنظرة هى حجرة فى الدور الأرضى من المنزل تخصص لاستقبال الضيوف من الرجال ، يجتمع فيها صاحب المنزل مع أصحابه فى المساء ، يتبادلون الأخبار ، ويسمرون ويزجون وقت الفراغ بعد العمل كل على هواه وحسب مزاجه ، وكان فى الحارة اثنان من موظفى وزارة الأوقاف أحدهما يحب سماع القرآن فيدعو لذلك مقرئاً جميل الصوت ، يستمعون إليه ، ثم يقص بعضهم على بعض قصصاً فكاهية ، أما الثانى فكان من هواة الموسيقى ، يؤلف من نفسه ومن أصحابه فرقة موسيقية يستمع إلى عزفها من شاء من أهل الحى وغيرهم من الأصدقاء ، ثم إلى سماع الأغانى ، وأحياناً تخرج الفرقة عن حدود الإقليمية فتقيم الحفلات خارج الحى . وكان الصبى « أحمد » يسمع القرآن فى البيت الأول ، ويسمع الموسيقى والغناء فى البيت الثانى ، وكان يقارن بين صاحب البيت الأول المتدين المحب لآى الله العظيم ، وصاحب البيت الثانى ، السكير الذى لا يفيق من خمر ، مع أن أباه هو إمام الحى .

ولم تخل حياة أحمد أمين فى هذه الفترة من حياته من بعض المغامرات التى انطبعت فى ذاكرته فلم ينسها ، ذهب يوماً مع أبيه إلى المسجد ، فقاده أبوه إلى حيث (الميضأه) وهى خزان واسع عميق من الماء يتوضأ فيه المصلون ، يغترفون الماء فى حفنات أيديهم ويسيلونها على وجوههم وأذرعهم وأقدامهم لتعود إلى الخزان ثم ليغتسل منها بعدهم غيرهم ، لا فرق بين عليل أو صحيح ، ولا بين نظيف أو قذر ، ولا بين ريفى أو حضرى . المخزن يملأ من بئر ، وللبئر دلو ينزل إلى الماء ، ويصعد به ، بفضل حلقه من حديد ، ركب عليها حبل ، يتصل بالدلو ، وقد كانت مشاهدة هذا الخزان ، وذلك البئر شيئاً ممتعا للصبى الصغير ، ولكن حب الفضول قاده إلى الماء ، فسقط فيه ، وأخذ يخبط بذراعيه وهو يكاد يختنق ، ولولا أن انتبه إليه أبوه ، فأخرجه وهو يلقف أنفاسه .وقبل ذلك خرج من داره فوجد أمامه بابا مفتوحا ، فدخل منه فوجد أمامه حصانا يدير حلقة تدير بدورها حجر طاحون ضخم ، يطحن حجراً آخر ، فيحيله إلى دقيق هو الجبس فقد كان هذا المكان « جباسة . » وقد استغرق الطفل التأمل فى هذا المنظر ، فنسى نفسه ومر الوقت ، وقلق أهله عليه ، فبحثوا عنه فى كل مكان ، حتى قادتهم المصادفة المحضة إليه ، فوجدوه مأخوذ اللب بما يرى ، غير شاعر كم كلف أهله من ألم القلق طوال هذه المدة . وفى مرة ثالثة ، مر على داره مغن يتسول بغنائه ، فتبعه حتى خرج من حدود الحارة إلى حارة غيرها ، حتى خرج من الحى كله ، فلما عاد كانت الشمس قد غربت ، فاستقبله أبوه بالعصا ، فذهبت أوجاع العصا بلذة المشاهدة الفنية.

وقد كان أبوه رجلا شديدا ، يفرض سلطة الأبوه على البيت كله ، وينفرد بنفسه فى الدور الثالث ، يصلى ويتعبد ، ويذاكر ويطلع ، ويأكل وينام ، لا يشاركه فى الدور أحد . وقد كان أبوه شديد الوطأة فى معاملة أمة ، فعاشت

حياتها كسيرة الخاطر ، لم ينس أحمد أمين طوال حياته ما كابدته من زوجها فقال فى آخر عمره عنها ، عندما اختارها الله لجواره :

«كانت أمى طيبة القلب أقرب إلى السذاجة ، وكانت كأكثر النساء وقتها ، أمية لاتقرأ ولا تكتب ، كانت محبوبة من أهل حارتها لطيبة قلبها ، وكنت شديد الحب لها والإشفاق عليها ، لأنها تألمت كثيرا فى حياتها ، فقد مات ثلاثة من أولادها وهم فى شبابهم ، وعاملها أبى معاملة شديدة قاسية ، سلبها كل سلطتها وكبت شخصيتها ، وحرمها دائرة نفوذها ، وطغى بشخصيتها على شخصيته ، فعاشت كسيرة القلب ، منقبضة النفس لا يحملها على البقاء فى البيت إلا حبها لأولادها فكانت تحتمل ذلك كله وتطيل الاحتمال ، وتصبر وتطيل الصبر ، وتحن علينا ، وإذا غضب علينا أبونا احتمينا بحنوها وأنسنا بعطفها . ولهذا لما كان لى من الأمر شىء جهدت أن أريحها وأسعدها ، وأقضى بعض دينها ، وكم كنت أتمنى أن تعيش معى بعد وفاة أبى لأطالع وجهها وأتلقى دعواتها صباح مساء ، ولكن صممت أن تكون فى حيها بين جيرانها ، وخشيت أن ينالها أذى ولو قليل من العداء الطبيعى بين الزوجة والأم ، فجاريتها على رأيها وخضعت لمشورتها » .

ثم قال :

وكانت تبشرنى من صغرى بأنى سأكون أسعد أولادها ، لأنها رأت ليلة فى منامها أنى كنت أسير معها ، فدخلنا بيتا فتح لنا فيه كنز ، وإذا غرف مملوءة بالذهب فأمرتنى أن أملأ حجرى منه على عجل — فقال لها الملك الموكل بالكنز : لا تعجلى فكل هذا لإبنك هذا ، ففرحت بهذا الحلم واعتقدت واستبشرت به ، وصارت تعيده على فى كل مناسبة ، وفى جميع أدوار عمرى إلى أن ماتت .

وقال عن أبيه عندما مات

« انتهت حياة حافلة شاقة ملئت بالكد الدائب والسعى المتواصل فى طلب العلم وطلب الرزق فقل أن يفارقه كتاب يقرؤه أو يكتبه ، ورزقه متصل بعلمه من درس يدرسه أو كتاب يصححه أو نحو ذلك ، لا يمنعه من ذلك مرضه أو كارثة نزلت به ، متدين أشد التدين ، يكثر من الصلاة ومن قراءة القرآن والحديث ، ويزكى ويصرف زكاته على الفقراء من أقاربه ؛ ويصوم ويحج ويتهجد بالليل ، ويبتهل إلى الله . وإذا صدرت منه سيئة أوما يظنها سيئة أكثر من الندم والاستغفار والتوبة ، زاهد فى الدنيا ، زاهد عن السعى فى طلب الرزق إلا بمقدار ما تحتاج إليه أسرته ، فإن زاد شيئا فبمقدار ما يدخره ليوم الحاجة ، يكثر من ذكر الموت ، ويتبع ذلك بأحاديث يحفظها فى تفاهة الدنيا وحقارة شأنها وهوانها على الله ، ويبتنى مقبرة له يذهب إليها ، ويتلو عندها القرآن يرجو بذلك أن تكون منزلا مباركا له عند وفاته . . رأيته مرة يلبس كسوة تشريف ليذهب إلى حفلة المحمل ، ثم يقف فى الغرفة قليلا مترددا ثم يخلعها ويرميها بيده إلى أحد أركان الغرفة ويقول : إنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة ، ويجلس بعد ذلك يتلو القرآن » .

وقد قسم أحمد أمين صفاته وخصائصه على أبويه ، فأخذ من أبيه الجلد والإرادة ، ومن أمه السذاجة ، والطيبة فقال :

فإن كان لى شىء من عناد وقوة أرادة وجلد على العمل وصبر على الدرس وسرعة غضب وميل إلى الحزن وكثرة تفكير فى العواقب ، فذلك كله من أبى رحمه الله .

وإن كان فى شىء من سذاجة وعدم حرص على مال ، وحزن على أبى حزين ، وحسن ظن بالناس فيما يقولون ويفعلون وندم على سرعة غضبه

وتحول من غضب إلى هدوء، ومن سخط إلى رضـا، فذلك كله من أمى، رحمها الله ».

وقد حدثنا أحمد أمين عن أمه وأبيه، ولكنه لم يحدثنا قط عن أخوته وأخواته، وكل الذى علمنا من أمر باقى أفراد أسرته أنه كان له أخ وأخت يكبرانه، وأخ وأخت يصغرانه. وان إحدى أخواته حاولت أن تصنع فنجان قهوة، فاشتعلت النار برأسها، ثم بكل جسمها، فلم تدعها حتى ماتت، فحزنت الأم أشد الحزن، وكان أحمد امين فى ذلك الحين جنينا فى بطن امه، فتغذى كما يقول دم ام حزينة، ورضع لبن والدة ثكلى، فورث الحزن، ولم يستطع أن يفرح، ولا أن يضحك، من كل قلبه، حتى آخر يومه.

ونكبت امه وابوه بعد ذلك بفاجعتين، فقد مات الأخ الأصغر لأحمد أمين بعد اصابته بحمى التفوئيد وكان شابا مرحا ذكيا مملوءا بالحياة، وكان كثيرا مايتمرد على تقاليد البيت التى وضعها والده، فينهره ويشتد عليه ثم يضربه والصبى لا يغير من أسلوبه وفى ذات يوم كان أحمد أمين فى رحلة مع صاحب له، إلى شبين الكوم فلما عاد وجد أخاه قد بسط له فراش فى وسط الغرفة، وقد فقد وعيه أو كاد من شدة الحمى، فلما استدعى الطبيب أعلن أن الأمل فى نجاته ضعيف وتحقق ما تكهن به الطبيب، فقد أنهت الحمى حياته وهو بعد شاب فى مطالع حياته، وكان الطبيب قد نصح بنقله إلى المستشفى التى كان يسميها العامة وقتذاك (بالاشلاء) فصعب على ابيه أن يبتعد عنه ابنه، وهو فى هذه الحال من شدة المرض، وكانت الاشلاء يومذاك، رمزاً للهلاك والموت لا للشفاء وحسن العلاج، ولما فارق المريض الشاب الدنيا، سدت السبل فى وجه أحمد أمين، فلم يعد يطيق البقاء فى المنزل، كما لم يعد يطيق البقاء خارجه، فلم يعد يعرف ماذا يفعل ولا أين يذهب، أما أمه فكانت تلطم وجهها حتى تقع مغشيا عليها، وفى كل خميس يجتمع عندها النساء يولولن

ويشققن الجيوب . أما أبوه فقد وجد خير ما يعبر به عن ألمه لوفاة ابنه ، بعد ابنته التى احترقت ، هو أن يقوم بغسل جثة ابنه بنفسه ، ثم يكفنها بيديه ويتولى دفنها دون الآخرين كأنه يجد فى هذا التعذيب ما يخفف المه ، وعكف بعد ذلك على نسخ كتاب للسيوطى عنوانه « فضل الجلد عند فقد الولد » ، أما أحمد أمين نفسه فيقول « أما أنا فقد وضع هذا الحادث على عينى منظار أسود ، فلا أرى فى الدنيا إلا السواد ، ولا أحب أن أسمع من الأصوات إلا صوت البكاء » .

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل، حتى أصيب أخوه الأكبر بالشلل وكان قد عاد فى ليلة أواخر شهر رمضان ، فصلى العشاء ثم التراويح ، ثم خرج وعاد يقرأ القرآن ثم تناول سحوره ونام ، ولم يتقدم الليل طويلا حتى سمع صراخ زوجته فأسرعوا إليها ، فإذا زوجها ممدد على الأرض لايعى . وعالجه الأطباء نخفت الإصابة بالشلل ، ثم انتكس بعد شهرين ، إلى أسوأ مما كان ، ولم يطل عمره بعد ذلك فلحق بأخيه ، ولم يجد الوالدان المنكوبان سبيلا لالتماس العزاء إلا بالحج ، وزيارة الرسول .

* * *

هذه عائلة أحمد أمين ، وحارته ، وقد عرفنا الكتاب الذى تلقى فيه أول المعرفة ، وقد انتهى طوافه فى كتاتيب أربعة ، إلى مدرسة هى مدرسة (أم عباس) ، أنشأتها والدة عباس باشا الأول الخديو الذى جاء مباشرة بعد محمد على وابنه إبراهيم - وأحمد أمين يثنى عليها وعلى بنائها ويقول عنها أنها مدرسة نموذجية ، بنيت على أفخم طراز ، وأهم ما فيها أن تلاميذها يلبسون البذلات الأفرنجية ، بدل الجلباب ، فلبس هو أيضاً البذلة ووجد فى المدرسة أبناء الطبقات جميعاً . أبناء الأغنياء ، والمتوسطين والفقراء . ولما كانت المدرسة قد أقيمت من ريع أعيان وقفتها والدة الخديو ، فقد وجب على التلاميذ الذين ينتفعون من خير هذه

الحسنة أن يذهبوا كل عام مرتين إلى دائرة وقفها لتوزع عليهم بذلة فى الصيف، وأخرى للشتاء ، وفى الأعياد وجب أن يذهبوا إلى مدفن هذه الواقفة الكريمة، ليقرأوا لها الفاتحة ويطلبوا لروحها الرحمة . وكأن هذه المدرسة مصر كلها ، فقد مرت عليها ثلاثة أطوار ، هى الأطوار التى مرت على مصر بأسرها . كان التعليم فيها مقصوراً على القرآن واللغة العربية والتركية يوم أن كانت الثقافة ببلادنا دينية ، ويوم أن كانت اللغة التركية لغة الدولة الرسمية . ولما تطلعت مصر إلى النهضة ، والتمست أسباب هذه النهضة من أوروبا ، انكمش قسم تحفيظ القرآن ، وطغى عليه قسم يعلم اللغة الفرنسية ويعلم معها التاريخ والجغرافيا والحساب . ثم غزت اللغة الإنجليزية المدرسة ، فطردت منها اللغة الفرنسية ، حينما عقد لواء النصر للانجليز فى بلادنا. أما أحمد أمين وأبوه فكانا يمثلان الجيل الذى دفع ثمن الحيرة بين الثقافات والدراسات ، ولذلك كان أحمد يتلقى من العلم ألوانا متضاربة ، بجرعات كثيرة فوق ما يستطيع أن يهضم . فكان أبوه يوقظه فى الفجر ليصلى معه ، ثم يقرأ جزء من القرآن، ويحفظ متناً من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك . والمتن هو أصل الكتاب ، يأتى من يشرحه على هامشه ، ثم يأتى من يعلق على الأصل والشرح ، فيسمى تعليقه بالحاشية . فإذا طبع الكتاب بعد ذلك أصبح فيه المتن والشرح والحاشية . فإذا فرغ أحمد أمين وهو بعد فى حدود السادسة عشرة من عمره من هذا الدرس أفطر ، ولبس ثيابه ، وذهب إلى المدرسة حتى الظهر . وفى فسحة الظهر ، بعد أن يتناول غداءه على عجل يذهب إلى كتاب قريب من المدرسة ، ليسمع لفقيه فى هذا الكتاب جزءمن القرآن،فإذا دق جرس المدرسة، أسرع إليها ليتلقى العلم الحديث حتى العصر . فإذا خرج التلاميذ إلى بيوتهم يلعبون ويمرحون ، خرج هو ليرتدى الجلباب ليكون فى صحبة أبيه من قبيل المغرب حتى ما بعد الصلاة العشاء ، فى المسجد الذى يعمل فيه الوالد إماماً ليصلى وراءه ويسمع الدرس

بعد آخر صلاة . فإذا عاد الرجل والصبى ، أخذ الرجل يسمع إبنه بيتا أو بيتين من الشعر ، يلقنهما إياه ليحفظهما ، ولكن قبل أن يحفظهما وجب أن يعربهما، ليعرف فيهما الفاعل والمفعول ، والمستثنى والمحذوف ، والجار والمجرور . ثم يتعشى الصبى وينام . . وأغلب الظن أنه كان يحلم بعصا الفقيه ، أو بأسماء كان أو أخوات إن ، أو بشىء من الحساب ..

فأجازة هذا الصبى الصغير كانت نصف نهار فى يوم الخميس ، وبعض يوم الجمعة لأن على الغلام أن يصلى الجمعة ، جماعة ، ويؤدى الواجبات المدرسية المطلوبة .

هذا هو الجيل الذى صنع ثقافة مصر ، وساهم فى بنائها على الصورة التى كانت تتضح معالمها بعد ثورة سنة ١٩١٩ شيئاً فشيئاً .فهى خليط من كل شىء، وليس فى هـذا الخليط شىء عميق يصل إلى غايته . وليس فيه أصل يحتل الصدارة وفرع أو فروع تـكمله وتأخذ عنه . بل كل شىء فيه أصل ، أو كل شىء فرع لأصل مجهول فالثقافة القديمة تزاحم الحديثة ، ويأبى أيهما أن يقدم عليه غيره .

ولم يسهل على الصبى أحمد أمين أن يستسلم لهذا الضغط الخانق ، فسولت له نفسه أن يثور مرة أو مرتين فعالج والده هذه الثورة بالقمع والضرب ، ولما أرادت أمه أن تمد له يد المعونة ، تحول إليها الضرب أو كاد فنفضت يدها من هذه المحاولة العقيمة ، ونفض الثائر يده من هذه الثورة التى لم تتجمع لها أسباب النجاح .

ولـكن ليت أحمد أمين قد ترك فى هذه المدرسة فقد ألفها وكانت على أية حال أحسن بكثير من الـكتاب ، وكان المدرسون فيها أرفق بالصبيان من شيوخ الـكتاتيب ، على الأقل لم يكن فى المدرسة فلقة ، ولم يكن الأكل من

ماجورين فيهما نابت ومخلل، ولكن أحمد أمين وأبوه كانا كما قلت «مصر» وكانت مصر فى ذلك الحين لا تعرف طريقها فى التربية والتعليم . كانت تحن إلى الماضى وتراه ثروتها وذخيرتها ، وسبيلها إلى استعادة المجد المندثر ، والدين المنكسر ، وكانت تتطلع إلى الحاضر ، وترى فى لغة الغرب ، وعلومه الحديثة الطريق إلى البأس والسلاح والقوة . فإلى أى طريق تسير ، وفى أى اتجاه تمضى ؟؟

هكذا كان والد أحمد ، لم يكن وجدانه يطاوعه أن يترك (أحمد) فى المدرسة الحديثة، ولم يكن عقله يود أن يجازف بمستقبله إذا هو نقله إلى الأزهر المعهد القديم . ولذلك راح يستشير الأصدقاء ، ويطلب عندهم النصيحة ، فمن كان منهم من علماء الأزهر وشيوخه أشاروا عليه أن ينزعه من المدرسة ويدفع به إلى الأزهر ، ومن كان من موظفى الحكومة نهاه عن ذلك ، وحذره من سوء المغبة . ولما كان هو بحكم نشأته وبيئته ، أميل إلى الأزهر ، فقد نزع أحمد من المدرسة وذهب به إلى الأزهر ، فكانت مرحلة جديدة من مراحل حياة هذا الصبى ، أضافت إلى تجاربه تجارب جديدة ، وعرفته من الدنيا وجهاً أخافه وأفزعه ، ثم ألفه واطمأن إليه ، وكان عنصراً ساهم فى خلق شخصيته وتكوين عقله .

خلع البذلة ولبس العمامة والجبة والقفطان ، واستعمل المركوب . وكان أهل الحى ، وزملاء الصبى قد ألفوا منظره وهو فى البذلة ، فلما لبس هذا الزى الذى لايتفق مع صبى صغير ، خيل إليهم أنه يلبسه من قبيل العبث ، ولما استمر يظهر عليهم به ، لم يملكوا أنفسهم من التغامز على هذا الشيخ الصغير ، وانقطعت صلته بزملائه فى المدرسة الذين كانوا يلعبون معه ، ويتحدثون إليه ، فقد أوهمهم هذا الزى ، بأنه استحال إلى مخلوق من طراز آخر ، ينتمى إلى

عالم غير عالمهم .أما هو فقد كان يتعثر فى خطاه ، حتى يكاد ينكفىء على وجهه. واشتدت هذه الحال على الصبى ، فأخذ يتوسل إلى أبيه أن يعيده إلى المدرسة ، فأصم الوالد أذنيه ، وصمم على أن يبقى الولد فى هذا الزى ، الذى خنق صباه ، فلم يستطع بعد أن امتحن به أن يجرى كما يجرى الصبيان ، ولا أن يضحك كما يضحكون . ولم يكن الدخول إلى الأزهر ، مجرد تغير فى الزى ، مع ما يتبع هذا التغيير من قيد على الحركة ، وبعد عن الخفة ، بل كان نقلة من دنيا إلى دنيا كان أشبه شىء بانسلاخ الإنسان من جلده .

فقد كان الأزهر بعيداً عن منزل أحمد أمين فى القلعة ، وكانت الطرق التى يجب عليه أن يسلكها إليه ، شوارع لا عهد له بها كانت طويلة ومتعرجة ومليئة بالحركة والضجيج . ولما وصل إلى الأزهر مع أبيه فى أول يوم ، ورأى بناء كبيراً ، سمع أباه يقول هذا هو (الأزهر) . ولم يستطع الصبى أن يتبين أثر هذه الكلمة فى نفسه . فإن الأزهر كان كلمة غامضة لا يدرى كنهها . وسمع وهو بعد على باب الأزهر ، صوتاً غريباً كدوى النحل ، لم يستوضح منه لفظاً ، فأخذته الرهبة من كل جانب ، ثم رأى أباه يخلع نعليه ، ففعل مثله ، ثم يسير إلى جانبه فى ممشى قصير ، يدخل منه إلى إيوان كبير ، فرش كله بالحصير . وامتدت أعمدته صفوفاً ، كل عمود وضع بجانبه كرسى عال مجنح قد شد إلى عمود بسلسلة من حديد ، وجلس على كل كرسى شيخ معمم ، بيده أوراق صفراء تسمى ملازم ، وأمامه حلقة من تلاميذ ، يلبس أكثرهم معطفاً أو قباء أبيض أو جلباباً أبيض عليه عباءة سوداء ، وأمامه وبجانبه مركوب ويمسك بيده كما يمسك الشيخ ملزمة من كتاب .

والشيخ يقرأ ويفسر والطلبة ينصتون ويجادلون . وبين العمود والعمود بعض الطلبة يجتمعون فيأكلون أو يذاكرون ، ثم يخرج الصبى وأبوه إلى فناء

الأزهر أو صحنه فيراه سماوياً غير مسقوف، ومبلطاً غير مفروش، وهنا وهناك فرشت ملاءة بيضاء أو عباءة سوداء صفف عليها خبز ريفي وعرض في الشمس ليجف وسأل أباه عن هذا وعن السر الذي جعل في الأزهر معرضاً أو مخزناً للخبز الجاف أو الخبز الذي يراد تجفيفه فقال له أبوه هذا هو الزاد الذي يحضره التلاميذ معهم من الريف ، أو يرسله الآباء إليهم فهم يشمسونه ويختزنونه في بيوتهم .

وكان هـذا هو الأزهر كما رأى أحمد أمين لأول مرة . وقد عرف في هذه المرة أيضاً أن الباب الذي دخل منه كان باب الصعايدة ، وأن الباب الذي خرج منه ، هو باب المزينين ، لأنه يفتح على حارة ، احتلها الحلاقون بحوانيتهم. ورأى أيضاً أحمد أمين ، تلاميذ الأزهر وهم يعرضون أرغفة للعيش للبيع فسأل لماذا يفعلون ذلك ، ففهم من أبيه أنه حينما يتقدم طالب الأزهر في التعليم يمنح ثلاثة أو أربعة أرغفة في اليوم إعانة له ، فيفضل بعض هؤلاء التلاميذ أن يبيع هذا الخبز ، لينتفع بثمنه ، اكتفاء بالخبز الذي يأتيه من الريف . أما العلماء فيمنحون عشرة أرغفة ، يبيعونها يومياً .

ويمكننا أن نتصور الهم الذي غرق فيه الصبي أحمد أمين وهو يقارن بين مقاعد المدرسة وحصير الأزهر ، وبين فناء المدرسة وصحن الأزهر ، وبين مدرس المدرسة ، وشيوخ الأزهر . ولكنه يقول أن الزمن بلسم الهموم . ولو لم يمر أحمد أمين بالأزهر ، ولو لم تقع له صدمة حينما عرف الأزهر ، افزعه وأخافه ، ثم حينما ألفه وذهبت عنه حالة الاختناق ، التي تصيبنا حينما توالى علينا صور لا نستطيع أن نحيط بها ، أو ندرك مداها لما كان أحمد أمين الذي نعرفه ، والذي كتب لنا قصة حياته بهذه البساطة والصدق .

امتحن أحد الشيوخ الصبي أحمد في القرآن فنجح الصبي في الامتحان ،

فقيد فى الأزهر . ولكنه حينما قيدفى الأزهر كان أشبه شىء بمن ألقى به فى الماء ، وهو بعد لا يعرف قاعدة من قواعد السباحة ، فالأزهر كالمحيط المتلاطم ، لاتهدأ أمواجه . فقدكان هذا المعهد الجليل محتفظاً بكل أنظمته التى جعلت منه منذ ولد معهداً جامعياً بكل ما فى كلمة الجامعة من معنى الحرية . فليس هناك من يسأل الطلاب حضروا أم غابوا ، استذكروا الدرس أم لعبوا ، استمعوا إلى المدرسين أو تمددوا فى الشمس ، وناموا ملء الأجفان . بل ليس هناك امتحان يدخله التلاميذ آخر العام ، ليثبتوا أنهم درسوا وفهموا وكان ذلك فى البداية شيئاً جليلا ولكنه تدهور وفقد معناه حتى وصل الحال إلى ما يقول عنه أحمد أمين :

« فإن احتاج الطالب فى شأن من الشئون أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب الفلانية على المشايخ الفلانية فما عليه إلا أن يكتب الورقة كما يشاء ، وبالكتب التى يشاء ، وبالمدرسين الذين يشاء ، ثم يمر عليهم فيوقعون عليها فى سهولة ويسر ، ولو كانت هذه أول نظرة من المدرسين للطالب ، ولو كانت سنه لا تتفق ، وهذه الكتب العويصة التى يستخرج الشهادة بسماعها فأى ضرر فى ذلك « وبارك الله فيمن نفع » .

ولكن أحمد أمين لم يكن وحده فقد كان له مرشد ، عرف السباحة فى هذا البحر الطامى ،ذلك هو والده الذى أعدله برنامجاً يحضر بمقتضاه درساً فى فقه الحنفى ، لأن القضاة فى مصر ، لا بد أن يكونوا من علماء الحنفية ، ثم يجود القرآن على شيخ فى الضحى ، وأن يحضر درساً فى النحو ظهراً ، ودرساً فى العلوم العصرية عصراً وبهذا ينتهى اليوم . ولم تكن الدروس تعين بالساعات ، بل بمواقيت الصلاة ، فدروس بعد الفجر ودرس قبل صلاة الظهر ، وبعد صلاة العصر ، ودروس بعد صلاة المغرب ، وهو منهج لا يملأ عقل الصبى بعلم نافع ، بل يربى

فيه ملكات لا تقدر بثمن أهمها الجلد وضبط النفس وتحمل المشاق والشعور بالمسئولية فهو يستيقظ قبل الفجر مهما كانت الشتاء بارداً ، ثم يخرج مع أبيه ، «والدنيا نائمة والأصوات هادئة ، إلا صوت الديك يؤذن وصوت الكلب ينبح».

ويبدو من قصة حياة أحمد أمين أنه سرعان ما استطاع أن يستنبط منها ما يخفف من شدتها فهو فى طريقه إلى المنزل يمر على محطات لتناول الطعام على أنواعه المختلفة يأكل منها حسب ما فى جيبه من قروش أو ملاليم ، ففى هذا الطريق بائع « البليلة » يشترى منه بربع قرش ملء طبق يرش على وجهه السكر ، فإن كان الحال ميسوراً ، اشترى من بائع الفطير فطيرة ، يصنعها البائع أمامه من قطعة عجين مكورة لا تلبث بفضل مهارة البائع الماهر حتى تستحيل إلى فطيرة رقيقة ثم يضعها فى صحن بعد أن يرش عليها بيده شيئا من السمن ، ويدخلها الفرن دقيقتين أو ثلاثة والصبى ينتظرها وهو يتحلب من فرط الاشتهاء ، فإذا أكلها لم يغسل يديه فى ماء ، بل دسهما فى مقطف به نخالة الدقيق ، ومسح بأطراف أنامله على فمه ، لتكمل له النظافة ، فإذا كان اليوم وسطا لا هو فقير ولا غنى ، قنع بقطعة من (البسبوسة) ، وإذا رضى عند البائع اختار هذه القطعة من منطقة فوقها لوزة ..

كان يدرس الفقه بعد الفجر ، وكان الدرس الأول فى الوضوء ، ففهم الصبى ما بدأ به الشيخ الدروس ، ولكنه لم يلبث حتى أخذ يقيم الاعتراضات ويرد عليها ، ويقيم الاعتراضات على الردود ويرد عليها ، فلم يدر الصبى فى هذا كله أين رأسه من رجليه ، ولم يكن أسعد حظا من مدرس النحو منه مع مدرس الفقه ، وفترت همته عن ملاحقة هؤلاء الشيوخ الذين يأبون إلا أن يدوروا فى حلقات من الكلام السريع الغامض المتشابك ، وكأنهم يلفون حول تلاميذهم خيوطا يوقعونهم فيها وفى هذه الفترة لفت نظره شابان متأنقان عرف أنهما ولدا

لشيخ من شيوخ الأزهر ، ولـكنهما مدللان فتعلق بهما، فعلماه كيف يهرب من الدرس فهرب ، وكيف يلعب معهما القمار فلعب ، واستمر على ذلك شهوراً حتى ثاب إلى الصواب فانقطع عنهما ليتلقفه زميل آخر من شبين الكوم ، مستدير الوجه أبيض اللون ، أغراه أن يحضر معه دروس الشيخ محمد عبده التي يلقيها بعد صلاة المغرب حتى العشاء ، فتردد ثم ذهب فأعجبه شكل الشيخ وصوته ، وحضر عليه درسين كانا آخر ما ألقاه الشيخ إذ توفاه الله إلى رحمته .

وقرأ أحمد أمين أن مدارس الجمعية الخيرية فى حاجة إلى مدرسين للغة العربية فى مدارسها فتقدم إلى الامتحان ،فكان ثالث الناجحين وكانت الجمعية فى حاجة إلى أربعة فوقع عليه الاختيار ، ولـكنه عين فى طنطا ، فلما سمع أبوه بهذا اضطرب وتحير ، ولـكن علمه بسوء مستقبل طلاب الأزهر حمله على قبول فكرة توظف ابنه وسفره إلى طنطا . فلما حان يوم السفر ، حمل معه متاعه وكان فيه (مرتبة) ووسادة ولحاف ، كما جمع كتبه ، وبكى كثيرا وركب القطار لأول مرة ، فاشفق من هذه التجربة ، وكأنه سيطير فى الفضاء بلا جناح. ولما وصل إلى طنطا لم يدر ماذا يفعل وكان لا يعرف أن هناك فنادق يمكن للغرباء أن ينزلوا فيها ، فلم يفتح الله عليه بأكثر من أن يضع متاعه فى عربة ، وأن يقول للسائق « إلى الجمعية الخيرية الإسلامية! » ولما وصل إليها ، دخل إلى الناظر ومن خلفه متاعه ، ولابد أن يكون الناظر قد ابتسم حينما رأى المدرس الجديد ، ومعه المرتبة واللحاف والمخدة ، وحينما سمع من هذا المدرس أنه يطلب حجرة فى المدرسة لينام ، وكان الناظر طيبا أثرت فيه هذه السذاجة وأجاب طلب الشاب ، فأعطاه حجرة وبدأ حياته الوظيفية المبكرة . ولم ترض سذاجة أحمد أمين أن تفارقه فإنه لما بحث عن حجرة خارج المدرسة لم يوفق إلا إلى مسكن فى حى المومسات بطنطا ، ولم يتبين سوء اختياره مع أنه كان يرى فى الذهاب والإياب ، نسوة متبرجات يجلسن على أبواب حوانيت ومنازل .

وتوالت المناسبات التى تكشف عن مزيد من قلة خبرة أحمد أمين ، فقد حضر إلى الناظر ولى أمر تلميذ يريد أن يلحق ابنه بالمدرسة فطلب الناظر إلى احمد أن يكتب لوالد التلميذ الطلب ، فأمسك بالقلم ونظر إلى الورق وهو لايدرى ماذا يكتب ، فلما بدأ يكتب وجه الخطاب إلى الناظر مبتدئا بسعادتلو الناظر وهى تساوى الآن صاحب السعادة ، فهز الناظر رأسه سراراً وهو يقول: صاحب السعادة ، وأنا مجرد أفندى! » وضاق أحمد بالحياة فى طنطا ، فحاول أن ينقل إلى القاهرة فلم يوفق ، فاستقال وعاد إلى أهله ، ثم عاد إلى الأزهر ، وهو لايكاد يجد للعلم الأزهرى مذاقا طيبا ، لولا أن اعانه ابوه بدروس يلقيها عليه فى منزله ، فتقدم فى هذا العلم وأصبح مدرسا لزملائه ، فقد كان ابوه اوسع افقاً من زملائه الشيوخ فقد درس فى مدارس نظامية ، ودرس لأولاد وزير الحربية (ناظرها) ولسفير امريكا فى القاهرة دروسا فى العربية ، فعرف من الدنيا، ما لم يعرف الأزهريون الذين لا يتجاوزن حدود الأزهر ، وسمع احمد امين عن دار العلوم ، وكان اللحاق بها سهلا عليه لأنه يشترط للقبول فيها النجاح فى امتحان القرآن ، وفى ألفية ابن مالك ، ولكنه رسب فى امتحان النظر لضعف عينيه . ثم سمع عن وظيفة مدرس للغة العربية فى اسكندرية بمرتب قدره أربعة جنيهات فتقدم لها ونجح ، وسافر إلى الإسكندرية وهو أكثر اطمئنانا وأعظم ثقة ، فقد ركب القطار مرتين من قبل .

وكان اسم الأسكندرية مألوفاً للأسماع ورأى البحر هناك فسحره منظره، وقرأ على شاطئه نهج البلاغة و بعض كتب الغزالى ، وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم . واستأجر حجرة على مقربة من مسجد البوصيرى وضع فيها كل متاعه ، فلما عاد يوماً إليها،وجدها قاعا صفصفا ، سطا عليها لص ، ولم يرحم غربة الشاب الفقير ، ولا قلة ماله فاستأجر شقة مع زميل له ، كان يحمل تحت أبعله

كتاب « شذا العرف » وقد بقى هذا الكتاب مع زميله لا يفرغ من قراءته ولا يتركه قط خلال سنين مع أن أحمد أمين كان يمكن أن يقرأه فى يومين . ولكن الله عوض الشاب أحمد عن هذا الزميل الذى كان منصرفا عن الدنيا ، يتوضأ ويصلى ويقرأ الأوراد والأذكار بزميل يكبره فى السن كثيرا ، هو الشيخ عبد الحكيم بن محمد الذى كان طويلا معتدل الجسم، جميل الوجه ذا لحية سوداء ، أنيق المظهر ، نظيف الملبس . كان احمد أمين فى الثامنة عشرة وكان الشيخ عبد الحكيم فى الثانية والأربعين ، ومع ذلك نجح هذا الشيخ فى أن يكسب حب الشاب لأنه عامله معاملة الصديق ، وحدثه فى شئون الدنيا ، لا بما فى الكتب وحدها ، وكان الشاب يرى فيه ترفعا وحرية وصدق قول وسعة فكر . وكان تلاميذه لذلك يسمونه للأسف — بالشيخ الإنجليزى — لأنهم كانوا يومذاك يعتقدون أن فى الفرد الإنجليزى كل هذه الفضائل . وقد عرفه الشيخ عبد الحكيم بمقهى فى رأس التين يملكه (عم أحمد الشربتلى)، وكان رجلا فريداً بين الناس فقد كان يصنع شراب الليمون كأحسن ما يكون شراب الليمون وكان محله آية فى النظافة والأناقة ، وكان هو ذواقه يحب الشعر ، ويرحب بالأدباء من زبائنه ، ويقرأ لهم ما ينظمه من الشعر، وإذا استثقل أحدا لم يمكنه من جلوسه فى محله ، وقد حدثنا عن الشيخ أحمد الشربتلى عبد الرحمن الرافعى ، فقال أنه كان يقرأ عنـــده جريدة اللواء ، فعرف منه مصطفى كامل وأحبه .

وكان الشيخ عبد الحكيم يحدث أحمد أمين ، عن أساتذته فى دار العلوم كالشيخ حسين المرصفى والشيخ حسن الطويل والشيخ حمزة فتح الله . ويعود أحمد أمين فيقول عن هذا الشيخ .

« وعلى الجملة فلئن كان أبى هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم

الثانى ، انتقلت بفضله نقلة جديدة وشعرت أنى كنت خاملا فأيقظنى ، وأعمى فأبصرنى ، وعبداً للتقاليد فحررنى ، وضيق النفس فوسعنى ، وظلت صداقتنا سنين ، ينتقل من الإسكندرية فتتجدد صداقتنا وتزيد » .

ويبدو أن احمد أمين المدرس طابت نفسه بالإقامة فى الإسكندرية وبالعمل فيها ، فقد عين مدرساً للغة العربية فى السنة الرابعة وكان التدريس فى السنة الأخيرة موكولا لخير أساتذة المادة وأقدرهم . ولكن دراسته الطويلة للنحو على يد أبيه ، ثم فى المدرسة ثم فى الأزهر قد خلقت منه مدرساً متمكناً ، وقد حمله شعوره بذلك على أن يخطىء بعض ماجاء فى كتب الوزارة المقررة أما تلاميذه فكانوا فى مثل سنه، فنشأت بينه وبينهم مودة وحب ، فأصبح يتحدث إليهم فى الشئون العامة ، ويروى لهم نوادر أدبية ، ويعيد عليهم ماسمعه من أستاذه الشيخ عبد الحكم بن محمد فإذا غاب عنهم اشتاق إليهم ، وإذا عاد إليهم فرح بلقائهم . وفى هذه الفترة ذاتها بدأ يقرأ الجرائد التى لم تكن تدخل إلى بيته فى القاهرة ، والتى لم يكن والده يطالعها أو يفكر فى مطالعتها . وكان من أول الأمر لايحترم المقطم لأنها جريدة المستعمرين ، ولا يستجيب للواء لأن أستاذه الشيخ عبد الحكم من العقليين الذين يتوهمون أن التعليم والإصلاح سيخرجان الإنجليز من مصر ، وأن هؤلاء سيتركون المصريين يعلمون أنفسهم ويصلحون شئونهم حتى يخرجوهم إلى آخر هذه الأوهام ، فكان يقرأ لذلك المؤيد التى يحررها على يوسف . ولكنه لم يلتفت إلى هذا المؤيد إلا بسبب الدعوة الشرعية التى رفعت ضد الشيخ على للتفريق بينه وبين زوجه بنت السادات على أساس عدم توافر الكفاءة بينهما لأنها شريفة وهو من عامة الناس ، ثم حدثت مجزرة دنشواى ، ونفذ حكم الإعدام فى أربعة ، وسيق إلى الأشغال الشاقة سبعة ، وجلد ثمانية ووصفت الجرائد هذه الفظائع الوحشية، فنفض أحمد أمين عن نفسه كل أوهام العقليين من أمثال لطفى السيد والشيخ عبده ، وأصبح وطنياً من

أنصار مصطفى كامل فبرىء من الوهم ، وثاب إلى الطريق الصحيح .

وسعى أبوه سعيه حتى نقله إلى مدرسة والدة عباس باشا الأول التى كان تلميذاً فيها منذ سنين قليلة ، فلما عاد إليها ، كان شعوره كشعور الطائر الذى عاد إلى عشه ، رأى بعض زملائه فيها ، وبعض أساتذته الذين علموه لايزالون بها ، ورأى أبنيتها قد إتسعت ، وزاد فيها كل شىء : التلاميذ والأساتذة والموظفين . وكما كان احمد أمين متفوقا فى قواعد اللغة فى الإسكندرية،فقدظهر تفوقه فيها فى مصر ، ولكن ناظر المدرسة كشف فى المدرس الشاب أحمد أمين أنه يحسن الإنشاء أيضاً عندما كلفه كتابة خطاب إلى الوزارة فأحسن إنشاءه وتنسيقه . ومرض أحمد بالتيفوئيد ، فلم يدع له أهله طبيباً وكان أبوه يكتفى بالجلوس إلى جانبه ، ثم يضع يده على جبهته قبل أن ينصرف إلى عمله ثم يقول : حصنتك بالحى القيوم الذى لايموت أبداً ، ودفعت عنك السوء بألف ألف لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ، ثم ينفث فى وجهه ، ويفعل ذلك فى المساء عند عودته من العمل ، ولكن الله يقضى للمريض بالشفاء ، فنجا من المرض بلا علاج إلا الحمية والراحة .

ولم يطل عهد أحمد أمين بالمدرسة الإبتدائية إذ أعلن عن فتح مدرسة القضاء الشرعى ، وقد جاءت الفكرة فى إنشائها ، فى أعقاب تقرير كتبه الشيخ محمد عبده لإصلاح المحاكم الشرعية وحال القضاة الشرعيين ، وقد احتضن سعد زغلول هذه الفكرة ، وكان الخديو كارها لسعد وللشيخ ، لاعتقاده بقوة علاقتهما بدار الوكالة البريطانية ، وأن الإنجليز يدفعانهما إلى الإصطدام بالخديو، بدعوى حماية حقوق الشعب من استبداد هذا الخديو ، فكره لذلك فكرة المدرسة ، ولما عرض أمرها على مجلس الوزراء المنعقد برياسته فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٧ ، عارضها الخديو وطلب تأجيل النظر فيها فدافع عنها سعد زغلول دفاعا حاراً ، ولما كان جميع الوزراء يعلمون أن الإنجليز ترضى عن هذا المشروع

وتحبذه ، وأن سعدا لا يقوى على الوقوف أمام الخديو بهذه الشدة إلا لأن من خلفه من يشد أزره فقد أيدوا (سعد) جميعاً ، وولدت هذه المدرسة ، وآلى الخديو على نفسه ألا يرأس مجلس الوزراء مرة أخرى .

ولما أعلن عن الدخول فى هذه المدرسة قدم أحمد أمين طلبا إليها ، وهو يخشى أن يكون حظه فيها كحظه فى دار العلوم بسبب ضعف بصره ، ولكن عاطف بركات ابن أخت سعد زغلول الذى اختير ناظرا لهذه المدرسة لاحظ أن أكثر الناجحين فى الإمتحان من الراسبين فى الكشف الطبى ، فأجاز دخول الناجحين وكانوا خمسة وكان أحمد أمين ثالثهم ، فدخل إلى المدرسة التى تمنى أن تنقذه من التعليم الأزهرى ، وأن تزيد من علمه أكثر مما حصل . أنقذه الحظ السعيد الذى تخلى عنه من قبل فلم ينفع وقتذاك ما كان أعده ودبره للنجاح فى الكشف الطبى بحفظ علامات كشف النظر سطرا سطرا فقد كان قادرا على أن يعرف العلامة دون أن يراها ، ولكن الطبيب أشار بعصاه إلى علامة ، فلم ير العصا لأنها لم تدخل فى برنامج ما حفظ .

وفى المدرسة أحب عاطف بركات ناظرها ، وتأثر به تأثرا شديدا ، ولازمه حتى وفاته ، وقد بادله عاطف بركات حبا بحب ، ومنحه ثقته وبذل له تشجيعه وتأييده إذ عينه عندما أتم تعليمه فى المدرسة فى وظيفة تعادل وظيفة المعيد فى الجامعات الآن ، إذ جعله مساعدا له فى تدريس علم الأخلاق ، ثم تركه فيما بعد يدرس هذا العلم وحده .

وقد أعجب أحمد أمين من عاطف بركات ، صرامته فى الحرص على النظام ، وشدته فى إقامة العدل ، وكراهته للمحاباة ، وعزوفه عن المجاملة . وإن كان يأخذ عليه أنه يبالغ فى هذه الفضائل حتى يخرج بها إلى مايشبه العنف والغلظة . أما مواهبه العقلية ، فكان يسره منها سعة اطلاعه ، وصبره على الجدل ، وقدرته

على تشقيق المعانى وتفريعها دون أن يلحقه ملل، ولا تعب. وكان إلى جانب عاطف فى مدرسة القضاء الشرعى عدد من خيرة الأساتذة فى العلوم الدينية والحديثة، من تاريخ وجغرافيا وقانون، وكان من أساتذته الذين يذكرهم بالخير، الشيخ المهدى، والذى كان يلقى دروساً فى أدب اللغة، والشيخ الخضرى الذى كان يدرس الفقه ثم التاريخ الإسلامى، وأحمد فهمى العمروسى الذى كان يعلم الطبيعة والكيمياء بعد أن تعلم فى فرنسا، أو على فوزى الذى كان يعلم تاريخ الرومان واليونان حيناً، وتاريخ أوروبا الحديثة حيناً.

وكان من فضائل عاطف بركات أنه كان يخلق المناسبات ليناقش الطلبة ويجادلهم، ويفتح أمامهم موضوعات لم يفكروا فيها، ليجيلوا عقولهم، ويتأملوا.

وفى هذه الفترة تعرف أحمد أمين على الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان بيته غير بعيد من المدرسة، وهو بيت يفتح أبوابه لزواره من أهل العلم والأدب، ويمد لهم موائد الطعام غداء وعشاء، وتقام فى حجراته ندوات السمر، ويحلو بها السهر.

ويبدو أن هذه المجالات الجديدة، حركت فى أحمد أمين، روح المغامرة النائمة، فجمع ليلة كل عزمه وذهب إلى إحدى صالات الغناء ليسمع السيدة توحيده، ويقول أنه فعل كل ماوسعه ليتخفى وهو يقوم بهذه المغامرة ولسنا ندرى ما الذى صنعه فى هذا التنكر، ألبس منظاراً أسود، أم ارتدى بذلة؟ وجاء يوم الامتحان، فاعتصره المتحنون فى العلوم الدينية اعتصارا، إذ أبقوه المتحنون بين مخالبهم — وكانوا ستة — ست ساعات، جالسا على الأرض، لا يتحرك، ولا يشرب كوبة ماء، ولا يمد رجليه، ولا يحرك عنقه، وهم يشربون أكواب الليمون، وفناجين القهوة، ويستريحون ويخرجون من قاعة الإمتحان. ولكنه نجح، وإن جاء ترتيبه السادس بين الناجحين، وكان عادة الثانى أو الأول.

وبدأت ثقة أحمد أمين بقدرته القلمية تنمو مع الأيام ، فقد كان يعتقد فى نفسه التفوق فى النحو والقواعد وتخلفه فى الإنشاء ، حتى كان يقول أن بعض تلاميذه فى مدرسة الإسكندرية كانوا يفوقونه فيها ، ولكنه فى مدرسة القضاء الشرعى ، بعد أن توطدت علاقته بالشيخ عبد الحكم ، فسمع منه فى شئون الدنيا ما لم يكن يسمع ، وقرأ من كتب الأدب والتاريخ مالم يكن يقرأ ، وطالع من الصحف على اختلاف مذاهبها ما لم يكن يطالع ، وتلقى من علوم القانون الحديث ، وتاريخ أوروبا والرومان واليونان ، ودروس الأخلاق مترجمة إلى العربية على يد أستاذه عاطف وجاشت نفسه بالأفكار والخواطر ، وأحس بالميل إلى التعبير عن نفسه ، والتحدث بما يعتمل فيها . وهذا هو السبيل الصحيح لتكوين الأديب . فليس الأدب حفظاً للألفاظ ، وإنما تأثرا بما فى الحياة ، واستجابة لما فى الكتب ، وانفعالا بما يجرى فى المجتمع . فى هذا الجو الجديد ، ولد الأديب أحمد أمين ، وخرج من اهاب اللغوى النحوى ، شاب يفكر فيما يرى ، ويعبر عما يحس . وقد كان ميلاده الأدبى ، قفزة فسيحة ، مقرونة بما يشبه (الفرقعة)، إذ أنه ألقى محاضرة فى مدرسة القضاء على تلاميذه وزملائه فتطرف فى بيان أسباب ضعف المسلمين ، ورد هذا الضعف إلى فساد الحكم فى بلاد المسلمين ، واستبداد حكامهم ، ومسايرة علماء دينهم لهؤلاء ، وتبرير ظلمهم ، وإشاعة الرضاء بالقضاء والقدر ، بلا سعى ولا جهد ، فلما أتم خطبته دعاه عاطف إلى جنبه وقال : هل جننت ؟ وتوقع الناظر أن يبلغ أمر المحاضرة للمسئولين ، ويطلبون معاقبة المحاضر ، وأعلن تلميذه أنهم لو فعلوا لما استطاع أن يدافع عنه ، لأنهم يضمرون الشر للمدرسة ، ويتلمسون الأسباب لإلغائها ، فلا سبيل للابقاء على المدرسة إلا بتضحية واحد من مدرسيها .

ولكن لم يحدث شىء مما توقعه عاطف ، وبقى أحمد أمين فى مدرسته آمنا لم يصبه سوء . ولكن كان لإنقاذه ثمنا فقد أوعز عاطف إلى الشيخ الخضرى

أن يعقب على المحاضرة بكلمة فقال أن المحاضر لم يقصد حكومة مصر ، وإنما قصد حكومات الدول الغابرة ، فكان لابد من درس فى النفاق ، من مدرس للاخلاق يصفه أحمد أمين بأنه لا يدارى ولا يجارى ، ويأبى إلا أن يقيم العدل والحق ، بلا سياسة ولا كياسة .

واتصل أحمد أمين الكاتب الأديب ، بأحمد أمين القانونى الفقيه ، فقد كان الأستاذ أحمد أمين المدرس وقتذاك بمدرسة الحقوق الخديوية منتدبا لإلقاء بعض دروس القانون فى مدرسة القضاء ، فتتلمذ على يد أحمد أمين ثم زامله فى التدريس ، وقد ربطت بينهما الزمالة ، ثم استحالت إلى صداقة ، وقد أفاد منها أحمد أمين الشاب فائدة كبيرة ، فقد قرآ معا كتاب الموافقات للشاطبى ، ليقارنا بين أصول الفقه وأصول التشريع الحديث ، ثم اقترح عليه الأستاذ أحمد أمين اقتراحا غريبا ، ولكنه نافع غاية النفع ذلك هو مطالعة كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ، وهو كتاب يصف شوارع القاهرة وما فيها من آثار باقية من مساجد وأسبلة وتكايا. وكانا يقصدان عصر كل يوم شارعا من شوارع القاهرة ويطبقان ما فى الكتاب على ما فى الشارع من آثار ، فيقرآن تاريخه ، وما عليه من لوحات رخامية تدل عليه ، ولم يفرغا من هذه المهمة إلا بعد ثلاثة أشهر أحاطا فيها بالقاهرة وما بها من آثار .

* * *

عين أحمد أمين مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى ، ولكنه لم يكن قد نجح فى الكشف الطبى ، ومن لم ينجح فى هذا الكشف من الموظفين يبقى فى طائفة (الظهورات) وهم جماعة الموظفين غير المثبتين فى الوظيفة فيجوز دائما فصلهم بلا حاجة إلى إحالتهم إلى مجلس تأديب ، ولا إلى استصدار قرار من مجلس الوزراء فهم طائفة قلقة هينة الأمر على الحكومة . ولما كان عاطف بركات

حريصا على مستقبل تلميذه أحمد أمين فقد نصحه أن يعين فى وظيفة قاض بالمحاكم الشرعية ، لأن وظائف القضاء يتم التعيين فيها بمرسوم من الخديوى ، والموظفون المعينون بمراسيم لا يكشف عليهم ، أو لا يشترط نجاحهم فى هذا الكشف .

وعين أحمد أمين قاضيا ولكن فى الواحات الخارجة ، لأن مدير المحاكم الشرعية كان يشترط فيمن يراد تعيينه فى وظيفة قاض جديدة ، أن يقضى بعض الوقت فى تلك الواحات النائية لأن القضاة القدامى يرفضون السفر إليها فتبقى بلا قاض ، وقد سافر القاضى الجديد أحمد أمين إليها ، وكأنه يقوم برحلة إلى القطب الشمالى ، فقد كان لابد له من أن يسافر إليها من مدينة أسيوط ، ثم يأخذ من أسيوط قطاراً آخر يوصله إلى بداية خط الواحات وفى يوم ٢٣ من ابريل سنة ١٩١٣ ذهب إلى محطة مصر ، فودعه عليها زملاؤه وتلاميذه ، أجمل وداع ، فقد أخذت حرارة الموقف بعضهم ، فجروا والقطار يتحرك ، وهم يلوحون بالأيدى ، فدمعت عينا القاضى الجديد ، وذكر أباه وأمه ، وحزن إذ تركهما بلا عائل .

ثم أخذ قطار أسيوط فى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ، فوصل به إلى بداية خط الواحات فى الساعة السابعة مساء ثم استقل قطار الواحات فوصلها بعد تسع ساعات كان يسير فيها القطار زحفا فى صحراء جدباء لايقع فيها نظره إلا على رمال لايحدها بصر ، وقد مر القطار فيما يسمى غيط البطيخ ، وهو سهل رملى ، تكسوه أحجار فى شكل البطيخ . وكان جدب الطريق ، وطوله ، وبعد الواحات ، وتركه لأهله وأصحابه ومدرسته ، جديرة بأن تسلمه للحزن والبكاء ، لولا أنه رأى عند مدخل الخارجة موظفين بريطانيين يشتغلون لحساب شركة بريطانية ، يقفون فى الشمس ويعملون فى همة ، فأخجله أن يكون هذا حاله وهو فى بلده وأولئك أجانب يعملون فى مرح. وقد بقى فى الواحات ثلاثة شهور زار خلالها واحة قريبة منها اسمها (باريس) تبعد عن الخارجة بنحو ١٢٠ كيلو . ذهب إليها على ظهر الإبل ، وكاد يضل فى الصحراء فى الطريق

ليتشقق حلقه من العطش . ولم يجد القاضى الجديد عملا فلم تكن هناك قضايا تشغل وقته ، ولا شىء آخر يذهب عنه الملل ، فأخذ يقرأ الكتب ، وأطرف ذكريات هذه الرحلة أنه رأى صبيا من أهل الواحات قد حفظ القرآن كله وحفظ معه آخر ما جاء فى المصحف ، وهو عبارة « طبع هذا المصحف فى مطبعة كذا ، وفرغ من طبعه فى يوم كذاسنة كذا » وكان الصبى يحسب أن هذه العبارة هى آية من آيات القرآن .

وفى يوم ذهب ليسمع خطبة الجمعة ، ويؤدى صلاتها ، فقام الخطيب يتلو خطبة مطبوعة ، يدعو فيها المصلين ألا يسافروا إلى أوربا ، ويندد بالسفر إليها ، كما يوصيهم بالبعد عن البذخ وبالتزام التقشف . وكاد أحمد أمين ينفجر من الضحك ، فالمصلون من أفقر الناس ، لا يستطيعون أن يسافروا إلى أسيوط ، ولم يكن أحدهم يعرف ما هى أوروبا ، وكانوا من سوء المعيشة وشدة الفقر ، بحيث لا تخفى حالهم على الأعمى .

وقد لاحظ أحمد أمين أن موظفى الحكومة كانوا يمارسون نوعا من زواج المتعة ، إذ كان الواحد منهم يتزوج واحدة يستجملها من أهل الواحات ، لمدة إقامته بها ، وقد لا تطول ، فإذا نقل ترك الزوجة ، وترك لها أولادها وسافر وكأنها لم تكن رفيقة حياته ، ولا أم أولاده .

ولما انتهت مدة العمل فى الواحات عين أحمد أمين قاضيا شرعيا فى شبين الكوم ثم فى الأزبكية ، ولم يكن سعيداً بعمله فى القضاء إذ لم تكن تعرض عليه إلا دعاوى نفقات ترفعها الزوجات على أزواجهم ودعاوى طلاق يرى فيها صورا من تهدم العائلة ، أو دعاوى طاعة يرفعها الزوج على زوجته الناشز ولم يكن عقله يطاوعه على إصدار مثل تلك الأحكام لأنه لم يكن مؤمنا بأن الحياة الزوجية يمكن أن تستقيم بين زوجين يستعين أحدهما على الآخر بالبوليس

والدولة ولكنه كان مضطراً أن يصدر أحكاما .

وفى ذات يوم ، دق التليفون فى منزل الشيخ أحمد أمين ، وإذا المتكلم الدكتور طه حسين الذى لم يقل لنا ما هى صلته به من قبل ولا كيف تعرف عليه — وعرض عليه أن يشتغل مدرسا فى كلية الآداب ، وكانت قد انشئت حديثا فرحب بذلك أحمد أمين أعظم ترحيب ، فقد كان برما بعمله فى القضاء كارها له ، بقدر حبه للدراسة ، وللتدريس ، وبذلك بدأ الفصل الأكبر فى حياته .

* * *

لكن بين محكمة الأزبكية وكلية الآداب ، رحلة غير قصيرة ، مر فيها أحمد أمين بأكثر من محطة ، تزود عندها بزاد غير قليل .

أراد أن يتعلم لغة أجنبية فبدأ بالفرنسية التى كان قد ألم بطرف منها وهو تلميذ فى مدرسة أم عباس ، ولكن القدر ساق إليه مدرساً لا يحفظ موعدا ولا يهتم بتلميذ ، فأضاع على أحمد أمين ما أنفقه فى شراء الكتب ، من مال ، وما ضيعه فى الانتظار من وقت ، وانتقل بعد ذلك إلى الإنجليزية فوقع فى يد سيدة انجليزية كانت تؤجر حجرات من شقتها إلى الغير استعانة بما تكسبه من ذلك على ضرورات الحياة ، وكانت سيدة سخية سمينة ، كثيرة الكلام ، دأبت على أن تذكره دائما بأنه شاب ، وهى تدعوه إلى أن يخرج عن تزمته وحزنه ويفتح عينيه للحياة ، ولكنها كانت تتكلم أكثر مما تسمح له هو بأن يتكلم فلم يفد منها ومن دروسها كثيرا ، ثم استغرقتها بحوث روحية ، واستحضار للأرواح حتى أصاب عقلها خبل ، فأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية ، ثم أعادوها إلى بلادها ، وهناك كتبت له تقول أنها تماثلت للشفاء .

ثم خرج من هذه التجربة ، إلى تجربة أحسن نتيجة من كل ناحية ،

فقد أخبره صديق بأنه تعرف على عائلة مكونة من انجليزى وزوجته ، وأنهما يعطيانه دروساً فى الإنجليزية ، بينما يعلم الزوج العربية ، فكانت الزوجة هى التى تحتاج إلى مدرس واقترح عليه أن يتولى تدريس العربية لهـا على أن تعلمه الإنجليزية. وقبل أحمد أمين الاقتراح ، ولما نفذه لم يجد نفسه أمام تلميذة فحسب، بل وجد فى التلميذة ملهمته ، فقد كانت لها كما يقول (عينان تبعثان فى النفس معنى الصفاء والطهارة والثقة ، تعيش مع زوجها الإنجليزى المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة ارستقراطية فخمة) . وبعد أن أخفى عنا طويلا أنه أحب هذه السيدة ، حبا يائساً ، لأنه لم يستطع أن يعبر عنه ، ولا أن يمد له فى الأمل ، اعترف بذلك فقال : أحببت وأنا فى نحو الخامسة عشر ابنة جار لنـا والتهبت عاطفتى فأرقت كثيرا وبكيت طويلا ، وكل ما كان من وصـال أن أجلس أنا وهى على كرسيين أمام دارها نتحدث فى غير الغرام ، فلما وسوس الشيطان لأبيها حجبها عنى وشقيت زمناً بذلك ثم سلوت ثم أحببت المدرسة الإنجليزية الشابة حباً ضنيت به ولم تشعر به ، وكلما سعدت به ساعات الدرس أتحدث إليها، وتتحدث إلىَّ وتنظر إلىَّ بعينيها الصافيتين الأمينتين ولـكنه كان حباً يائساً فهى متزوجة مخلصة لزوجها سعيدة بزواجها » .

وكانت المحطة الثانية ، التى وقف عندها وتزود ، هى محطة زواجه ، بعد أن بلغ التاسعة والعشرين من عمره وكان متردداً فى الزواج ، فلما صح عزمـه عليه أخذ يعرض نفسه على من يعرفهم من العائلات ، والبنات يرفضن لأنه صاحب عمامة وجبة وقفطان، وقد استعان فى التأثير على من يتقدم إليهم طالباً يد ابنتهم ، بحمل الـكتب الانجليزية فى يده وهـو يزورهم ليفهمـوا أنه شيخ متحضر ، يعرف اللغات الأجنبية ويتـكلم بها ، ووفق آخر الأمر إلى زوجة لم يرها حتى زفت إليه ،وكان كل ما يصل إلى سمعه عنها أوصاف أمه وأخته لها ، فـكان يتصورها بعد كل زيارة تقومان بها للعروسة على صورة حتى رآها

(نحمد الله على ما وهب) كما يقول ، واختلفا فى سياسة الأولاد ، فكان من دعاة تحديد النسل ، وكانت من دعاة اطلاقه عملا بالمثل المتداول بين نساء المصريين : (اتقى ريشه ، أحسن يطير) ، وهن يقصدن أن الزوج الذى تقل عياله ، تكثر فى يده النقود ، فيسهل عليه أن يتزوج فوق زوجته . وعملا بهذه السياسة رزق بثمانية أطفال : بنتان وستة ذكور .

وعندما عقد قرانه ذهب إلى مصور فصوره وكتب على ظهر الصورة كلاما طويلا يحتفل فيه بهذه المناسبة وقد ذكر فى هذا الكلام عن نفسه كل شىء حتى مرتبه قال عنه أنه يتقاضى ١٣٢٠ قرشاً وأنه يفضل التدريس على القضاء .

والمحطة الرابعة كانت إنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بعد أن تعرف على عدد من الشبان الذين أتموا تعليمهم فى بدء الحرب العالمية الأولى فى مدرسة المعلمين العليا فألهمهم تعليمهم ، التفكير فى شئون الدنيا ، وفى التماس مزيد من الثقافة فى صحف الغرب وكتبه وقصصه ، فلما انضم إليهم بعض طلبة مدرسة الحقوق ، دخل عنصر التفكير القومى الوطنى فى هذه الجماعة فاتجهوا إلى إنشاء الهيئات التى ترفع من شأن مصر ، وتعينها فى جهادها ، فكان التفكير فى لجنة لترجمة الكتب وتأليفها ، وطبعها ونشرها وقد نجحت هذه اللجنة ، حتى طبعت أكثر من مائتى كتاب فى حياة أحمد أمين ، واجتمع لها فى حسابها بالمصارف ألوف الجنيهات .

وكانت المحطة الرابعة ، مساهمة أحمد أمين فى ثورة سنة ١٩١٩ عند اندلاعها ، وقد ذكر فى قصة حياته مقدمات الثورة ثم قال : إن مدرسة القضاء كانت تغلى بسبب الأمور التى مهدت للثورة ، لأن زعيم الثورة هو سعد زغلول ، ومدرسة القضاء هى ثمرة من ثماره ، وناظر المدرسة قريب من أقربائه ، ولذلك

سام هو فى الناحية السياسية — كما يقول — وظهرت المساهمة منذ تكوين الوفد واعتقل سعد .

ولما بدأ يتكون الوفد ، كان أحمد أمين وإخوانه ، ومنهم محمد حسين هيكل يصدرون مجلة (السفور) وكان اشتراكهم فى تحرير هذه المجلة ، قد أوجد بينهم رابطة جعلتهم يحسون أنهم هيئة من هيئات الوطن ، فأوفدوا عنهم من طلب باسمهم أن يمثلوا فى الوفد ، وتوسط لهم لطفى السيد فى ذلك لدى الوفد ، فقبل سعد الفكرة بعد أن سأل من يكونون فقالوا نحن فريق المقليين ، ووقع الاختيار على مصطفى عبد الرازق ليكون مندوب هذه الجماعة فى الوفد ، وهذا كلام يختلف تماماً مع ما أورده هيكل فى مذكراته ، فقد كان مصطفى عبد الرازق ، فى تلك الآونة عضواً فى الحزب الديموقراطى ، وكان الحزب الديموقراطى قد سعى لأن يضم عنه إلى الوفد واحداً يمثله ، فرفض سعد ذلك .

على أن أحمد أمين يقول أن أسرة عبد الرازق أوعزت إلى الشيخ مصطفى ألا يقبل هذه الفكرة — فكرة الانضمام للوفد — ممثلا للعقليين . ولم يقل لنا أحمد أمين ما الذى حفز عائلة عبد الرازق على اتخاذ هذا القرار وهى عائلة مشتغلة بالسياسة ، وأعيان الصعيد والمنيا بالذات كانوا مشتركين فى الوفد عند بداية تكوينه .

ويقول لنا أحمد أمين أنه عندما اشتعلت الثورة ، كان من المتصلين بعبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفد ، الذى كان يضم إليه جماعة من الشبان يوزع عليهم أعمالا مختلفة ، وأن الدور الذى اختاره أحمد أمين هو إلقاء الخطب بعد صلاة الجمعة وتوزيع الخطباء على المساجد وتحديد موضوعات الخطب ثم كتابة المنشورات ويذكر أن من بين المنشورات التى أعدها ما كتبه بمناسبة

قيام بعض السيدات بمظاهرة فى ١٦ مارس سنة ١٩١٩ ، لأول مرة فى تاريخ المرأة المصرية ويقول أحمد أمين أنه نجا من السجن فى هذه المرة لأن الكشف الذى كان فيه اسمه مع آخرين من الشبان كان مودعاً فى مكتب عبد الرحمن فهمى ، فلما اعتقل وختم بابه بالشمع الأحمر ، ذهب بعض الوطنيين إلى المكتب فأزالوا أختامه ، ونقلوا ما كان فيه من أوراق ، فضاع الدليل الذى كان يمكن أن يسوق أحمد أمين إلى السجن فاستمر يخدم الحركة الوطنية بعد الإفراج عن سعد زغلول من مالطة ، إذ كان يرسل إلى سكرتير سعد باشا فى باريس تقارير عن الحالة فى مصر ، أثناء غياب سعد وزملائه عنها ، وكان الوفد يتراسل مع ممثلين فى مصر (بشفرة) ، ولما كان مفتاح الشفرة يتغير ، كان يرسل المفتاح الجديد إلى أحمد أمين ، لأنه لم يكن ظاهراً فى العمل السياسى ، ولأنه كان قاضياً شرعياً ، والظن أن الموظفين عموماً والقضاء خصوصاً بعيدون عن العمل السياسى ، ولما انقسم المصريون إلى سعديين وعدليين كان أحمد أمين مع السعديين »

ولكنه لم يكن - على حد روايته - يذهب مذهب سعد فى كل شىء ، ويذكر أنه ناقش سعداً يوماً فيما صرح به عدلى يكن فى خطبة من خطبه ، وحاول سعد أن يقنعه ، فلم يقتنع فضاق سعد به وقال : إنك اليوم سىء المنطق .

ومع الأيام زاد انغماس أحمد أمين فى السياسة ، حتى كان يسير فى المظاهرات ، ويركب فى بعض الأحيان عربة ومعه قسيس ، ويحملان سوياً العلم المصرى ، وقد وضع الصليب فيه وسط الهلال عنواناً على وحدة الأمة .

وكان عاطف بك يضبط الحركة السياسية فى مدرسة القضاء ولا يسمح

بمظاهرة ولا إضراب — وهو أمر غريب من رجل كان فيما بعد من المنفيين إلى سيشل مع سعد — ولكن أفلت الزمام من يده يوماً على الرغم منه ، إذ تظاهر الطلبة وهتفوا بسقوط رئيس الوزارة وكان يومها توفيق نسيم ، وكان مجلس إدارة المدرسة منعقداً فى ذلك اليوم برئاسة وزير المعارف توفيق رفعت فاتهم الوزير ناظر المدرسة بأنه مدبر هذه المظاهرة لصلته بسعد ، وللخصومة التى كانت قائمة وقتذاك بين سعد ونسيم باشا .

وعزل عاطف من نظارة المدرسة التى قام على بنائها ، فحزن أحمد أمين حزناً لم يسمح له بأن يستقبل الناظر الجديد ، كما استقبله غيره من زملائه المدرسين ، بالتحية والترحاب ، وإن لم ينسوا فضل عاطف بركات ، ولم يتنكروا له ، أما هو فكان يرى أن الوفاء يقتضيهم أكثر من ذلك ، ويفرض عليهم أن يضربوا عن التعاون مع الناظر الجديد ، لذلك كره هذا الناظر الجديد أحمد أمين وتربص به حتى حرض يوماً الطلبة والمدرسين على الإضراب احتجاجاً على تصرف من الوزارة لم يعجبه ، فذهب إلى الوزير فوراً ، فأعلن له أنه لا يستطيع التعاون معه ، فنقل أحمد أمين إلى القضاء ، فعمل معه أربع سنوات بين قويسنا والأزبكية على ما روينا .

* * *

قلنا أن جرس التليفون دق فى منزل أحمد أمين ، فى سنة ١٩٢٦ ، وهو اض بمحكمة الأزبكية ، وإذا المتكلم صديقه طه حسين يطلب إليه مقابلته ، لما ذهب لمقابلته عرض عليه أن يكون مدرساً بكلية الآداب فتردد قليلا ثم بل ، من أين عرف طه حسين ؟ إنه لم يقل ، ولا ندرى لماذا لم يقل ، إلا أن كون الجفوة التى وقعت بينهما فيما بعد ، ففرقت أحدهما عن الآخر ، هى ى زهدت أحمد أمين فى الإشارة إلى طه حسين ، والتحدث عنه مذكراته .

وأغلب الظن عندى أن أحمد أمين تعرف على طه حسين فى منزل مصطفى عبد الرازق ، فطه ومصطفى أبناء مديرية واحدة ، وكانت صلة طه ببيت عبد الرازق وثيقة ، وقد كان طه وهيكل وأحمد أمين من كتاب السفور .

لماذا تردد أحمد أمين فى الذهاب إلى كلية الآداب ؟ لعله تهيب اقتحام هذا العالم الذى كان وقتذاك أقرب إلى الغرب منه إلى الشرق ، فقد كان جل الأساتذة من الأجانب ، وكان كل مساعديهم من المصريين الذين تعلموا فى أوربا ، وأتقنوا لغاتها ، وكان أحمد أمين ضعيفاً فى الإنجليزية ، فهل هذا ما حبب إليه الإعتذار لحظة ، ثم غلبه حبه الانتساب إلى الجامعة المصرية ، فقبل ؟

وصف لنا كلية الآداب فقال .

« ذهبت إلى الكلية حيث قصر الزعفران الآن ، فوجدت شيئاً جديداً علىّ ، لا هو كالأزهر ولا كمدرسة القضاء . أساتذة كأنهم عصبة أمم ، هذا انجليزى ، وهذا فرنسى ، وهذا بلجيكى وهذا ألمانى ، وقليل من الأساتذة المصريين ، وليس فيهم معمم إلا أنا ، وعميد الكلية بلجيكى ، والطلبة أحرار يحضرون الكلية أو لا يحضرون ، ويحضرون الدرس أو لا يحضرون ، وأقسام الكلية متشعبة قسم للفلسفة يتزعمه الفرنسيون ، وقسم للانجليزية يتزعمه الإنجليز وقسم للغات القديمة ... الطلبة موزعون على الأقسام ، ومن الطلبة عدد كبير يقضى سنة فى كلية الآداب إعدادا لكلية الحقوق ، وقد قضيت زمنا حتى أفهم كل ذلك ، وأحسست أن الجو مبعثر ، ليس هناك ارتباط وثيق بين الطلبة وبعضهم ولا الأساتذة وبعضهم ، لا كالذى كنت أرى فى مدرسة القضاء ، وإن الدراسة كالحرب المائعة فتبعثر الأقسام فى الدراسة ، وتبعثر الأساتذة فى الجنسية

جعل نسيج الكبة مهلهلا ، وأقرب معنى حدث فى نفسى أننى أزهرى بقبعة .»

ورأى ثلاث بنات يتعلمن فى كلية الآداب فعرف أنهن بنات مصرى ولكن أمهن أجنبية ، فتساءل هل يرى بنات مصريات صميمات فى الكلية ، وقبل أن ينقضى على السؤال سنتان أو ثلاثة امتلأت الكلية بالبنات .

وفى هذه الفترة أقنعه صديقه الدكتور عبد الرزاق السنهورى بأن يخلع العمامة ويلبس البذلة والطربوش وفعل ، وعاد يتعثر من جديد فى زيه الجديد ، وكأنه كتب عليه أن ينتقل من حال إلى حال ، وأن تتقاذفه الحضارتان الغربية والشرقية ، أو القديم والجديد ، فهو طالب فى مدرسة حديثة ثم طالب أزهرى يلبس الجبة بعد البذلة ، فيتعثر فى مشيته ويتحامى أنظار الناس ثم هو طالب فى مدرسة القضاء ، أزهرى حديث ثم هو قاض فى جبة وقفطان وعمامة رجل دين ، ثم هو مدرس فى كلية حديثة بعمة ، ثم هو مدرس فيها ببذلة . وحينما يلبس البذلة ، تتحرك ذكريات العمامة الأليمة ، حينما كان المجتمع يقدم عليه دائماً المطربشين ، ويؤخره عنهم ، وحينما كان أصحاب الملاهى والفنادق يرفضون قبوله بين نزلائهم وعملائهم ، كما ترفض الفنادق والملاهى فى أمريكا الزنوج .

ولعل أكبر أعمال أحمد أمين فى الجامعة هو المشروع التى اتفق عليه مع زميليه طه حسين والعبادى ، ليضعوا تاريخاً للإسلام منذ بدأ حتى يومنا هذا ، فيتناول فيه طه بالحياة الأدبية والعبادى بالحياة السياسية التى يقول عنها أحمد أمين (التاريخية) ، وأحمد أمين بالحياة القبلية . وقد تخلف زميلاه عن إداء سهمهما فى هذا المشروع الجليل ، بينما مضى أحمد أمين يؤلف عن فجر الإسلام ثم عن ضحى الإسلام فى ثلاثة أجزاء ثم ظهر الإسلام فى ستة أجزاء وفى سنة ١٩٢٥ أتيح له أن يسافر إلى تركيا مع صديقه العبادى فى مهمة علمية لحساب الأمير يوسف كمال . وكان هدف هذه المهمة البحث عن كتب جغرافية قديمة

فى استانبول ، وخاصة كتاب بطليموس فى الجغرافيا وقد رشحهما لهذه المهمة لطفى السيد ، فرحب أحمد أمين بالرحلة ، وكانت أول أسفاره إلى الخارج ، وأول مرة يركب فيها البحر ، وكان الانقلاب الكمالى لا يزال فى بدايته ، فأراد أن يدرس آثاره وأن يفهم فلسفته ، وقد خرج من هذا الدرس ، بالعطف على الحركة الكمالية ، التى ألغت الخلافة وأعلنت سفور النساء ، وجعلت وظائف الدين قاصرة على العلماء وحدهم ، وقصرت الزى الدينى على هؤلاء ، وفصلت الدين عن الدولة ، وجعلت يوم الجمعة عطلة اجبارية لجميع سكان تركيا من أجانب وأتراك .

وقد قابل أحمد أمين هناك أستاذه على فوزى الذى كان يدرس له التاريخ فى مدرسة القضاء الشرعى فسأله عن رأيه فى هذا الإنقلاب فكان ثناء وتأييداً على طول الخط فالسفور أفاد الأمة التركية من حيث إصلاح الزواج ، ثم مكن المرأة من معرفة كثير من شئون الدنيا ، وقال له إن السفور فى صالح الرجل أكثر منه فى صالح المرأة لأن الحجاب كان يسبغ على المرأة هالات من الخيال ، تجعلها أجمل من حقيقتها أما القبعة فهى أفضل من الطربوش لأنها تحمى الرأس والعين ، وقال أن كثيراً من الأوربيين نقموا على هذا الانقلاب لسببين فبعضهم كرهه لأنه كان يعد الأتراك فى ملبسهم وعاداتهم متحفا يستمتعون بمشاهدته ، وكثيرون آخرون منهم كرهه لأنه سلبهم امتيازاتهم التى كانوا يتمتعون بها فى العهد السابق .

ويبدو أن حياة أحمد أمين فى الجامعة كانت هادئة ، إلى الحد الذى لم يجد فيها ما يسجله عنها فى قصة حياته سوى رحلتين قام بهما على رأس مجموعة من الطلاب واحدة إلى دمشق والثانية إلى بغداد ، وكانت الرحلة الثانية مثيرة نوعا لأن آراءه فى الشيعة والإمام على ، أغضبت شيعة العراق ، وانتهز الأستاذ كاظم الكاظمى ، وهو من علماء الشيعة فرصة حفلة أقيمت للضيوف المصريين فى الكرخ ضاحية بغداد ، وأخذ يشير إلى آراء أحمد أمين فيهتاج شعور الحاضرين وأكثرهم شيعة ، ثم لا يلبث حتى يهدئهم بالاستشهاد بكلام قاله أحمد أمين فى صالح

الشيعة فى موضع آخر من كتبه ، وهكذا دواليك ، يثير الناس ثم يهدئهم ، وأحمد أمين لا يدرى اتكتب له النجاة فى تلك الليلة ، أم أن الجمهور سيبطش به ، وهو يعلم ما فى أهل العراق من ضراوة عند الغضب ، خصوصاً إذا مس عقيدتهم أو شعورهم ماس . وقد عمل آخر الأمر بنصيحة مرافقيه من العراقيين فتسلل هو وصحبه من باب خلفى .

وفى تلك الفترة تلقى دعوة من جمعية الشبان المسيحية بالقدس لإلقاء محاضرتين فلبى الدعوة ، ولكنه بعد ذلك تلقى برقيات عديدة من جمعيات الشبان المسلمين فى القدس ويافا وحيفا تحذره من السفر إلى القدس وإلقاء المحاضرة ، دون أن تذكر سبباً لهذا التحذير فلم يعبأ به وسافر إلى القدس فلم يجد على المحطة من يستقبله إلا مندوب جمعية الشبان المسيحية ، وأستاذ فى القدس كان من تلاميذه ، وسأل عن سر المقاطعة فعلم أن جمعية الشبان المسيحية ، كانت مركز حركة تبشير مسيحى ودعوة للاستعمار البريطانى ، وقد أثبتت بعض الأحداث صحة هذه التهمة ضدها فقاطعها المسلمون . وعجب أحمد أمين أن زعماء العرب الذى يعرفون ذلك لم يكتبوا إليه به ، مكتفين ببرقيات تجهل الأمر ولا تشرح وقد طلبوا منه وهو فى القدس أن يلقى المحاضرة فلم يقبل بعد أن ارتبط ، كما عرضوا عليه أن يلقيها نفسها فى جمعية إسلامية أخرى فرفض لأن موضوع المحاضرين أصبح ملكاً للداعى إليهما .

وانتهى الأمر إلى أن يلقى محاضرة فى جمعية إسلامية قبل المحاضرتين اللتين اتفق عليهما مع جمعية الشبان المسيحية . فقد لاحظ أحمد أمين وهو فى طريقه إلى المحاضرتين وقوف بعض الشبان على مفارق الطرق ليمنعوا من يتصورون أنه ذاهب إلى مركز الشبان المسيحية ليسمعها . ولكن الإقبال على سماع المحاضرتين مع ذلك كان كبيراً ، وهو أمر طبيعى بعد ما أحيطت هاتان

المحاضرتان بما أحيطتا به من الاهتمام جعلهما موضوع جدل فى الصحف وجعل الأنصار أشد تحمساً للحضور .

وفى صيف سنة ١٩٣٢ سافر أحمد أمين إلى فرنسا بصحبة صديقه عبد الرزاق السنهورى، فوضع له برنامجاً مرهقاً مليئاً بزيارة المتاحف والمعارض، والأماكن الأثرية، والمسارح، والمكاتب، والضواحى فأصبح وكأنه يزدرد هذه المشاهد والمتع ازدراداً، لا يمنح الفرصة ليتمهل ويتذوق ويمضغ ويهضم. إنما هى أطعمة شهية، توضع بعضها فوق بعض، على عجل وبسرعة، وأحمد أمين يجر رجليه إعياء من كثرة التجوال والطواف، والصعود والنزول والسماع والمشاهدة وسافر فى نفس الصيف إلى بريطانيا، فنعم برحلة أكثر هدوء، وببرنامج أقل ازدحاماً فكانت الرحلة أشبه ما تكون بأخلاق وعادات الإنجليز، الذين يميلون إلى الهدوء فى حياتهم البيتية، وفى مدنهم. وقد رتب له صديقه الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية فى لندن رحلة إلى ريف لندن فى سيارته التى تولى قيادتها فى هذه الرحلة مدير مكتب البعثات المصرى آنذاك. وقد استمرت إقامة أحمد أمين فى انجلترا أربعين يوماً استمتع بها، وأفاد منها، وإن عكرها آخر الأمر، أنه أخطر بأن مؤتمر المستشرقين الذى جاء إلى أوروبا أصلا ليشهده ويلقى أمامه محاضرة، لا يسمع من المحاضرات إلا ما كان بالإنجليزية، فأضاع وقتاً طويلا فى ترجمة البحث الذى كان قد أعده إلى الإنجليزية ولكن هذا العناء كان يهون إذا قورن بما لقيه وهو يلقى لأول مرة فى حياته، بحثاً بالإنجليزية ولم يكن المؤتمر منعقداً فى بريطانيا وإنما فى ليدن بهولندا، فلما حل موعده سافر إليها فلم تعجبه لجهامتها، فآثر أن يقيم فى لاهاى ويسافر كل يوم إلى لندن .

وعاد إلى مصر عن طريق فرنسا مرة أخرى، فشاهد ما لم يشاهد فى الرحلة

الأولى ، فى صحبة صديق أخذه بالرفق ، ولم يشتد عليه اشتداد الأستاذ على تلميذه الذى فاته الكثير ، ووجب عليه أن يعوض عليه مافاته .

وسافر إلى أوروبا مرة أخرى فى سنة ١٩٣٨ ليحضر مؤتمر المستشرقين فى بروكسل ، فزار فى طريقه إليها إيطاليا وفرنسا ، كما زار سويسرا ، ثم إلى بروكسل حيث ألقى محاضرة عن (أبو حيان التوحيدى وكتاب الأمتاع والمؤانسة) وفى بروكسل أراد أن يقص شعره فدخل إلى صاحب صالون لا يعرف إلا الفرنسية ، التى كان يجهلها أحمد أمين ، فلذلك اقتصرت المحادثة بينهما على كلمة وى We من الحلاق ، وكلمة Yes من أحمد أمين ، فلما انتهت الحلاقة ، لم يتبين فى رأسه إلا شعرات قليلة باقية ،فنظم فى ذلك الحادث الخطير الدكتور عبد الوهاب عزام قصيدة قال فيها :

ونظر الأستاذ فى المراية فلم يجد فى رأسه شعراية

* * *

رقى بعد قليل الأستاذ أحمد أمين إلى وظيفة أستاذ مساعد فأصبح من حقه أن يحضر مجلس إدارة الكلية وقد عبر عن تجربته فى هذا المجلس بقوله :

«أمكننى أن أكون عضوا فى مجلس إدارة الكلية ، أتصل فيه بالأساتذة المصريين والفرنسيين والإنجليز ، وأرى فى كل جلسة كيف تعرض الأمور وكيف ينظر إليها وكيف تدخل النزعات والأغراض فى تكوين الآراء ، لقد تعلمت أن المنطق آخر أدوات الحكم على الأشياء » .

ثم وصف المجلس فقال :

« كان المجلس كبرج بابل يتكلم بالعربية وآخر بالفرنسية وثالث بالإنجليزية وإذا حزب الأمر ترجمت كل لغة إلى الأخريين ، وأحيانا فى الأمور العامة

تلعب السياسة لعبها من وراء ستار ، فالفرنسيون مثلا يريدون أن يسيطروا على قسم الفلسفة والانجليز يريدون أن يتدخلوا فيه ، وأن يسيطروا على الكلية بواسطة عميدها، وأكبر مايتجلى هذا عند خلو كرسى من كراسى الأساتذة أو عند خلو مكان العميد » .

وقد شهد أحمد أمين التطورات التى شملت الكلية بعد ذلك فرأى الأساتذة المصريين وقد أصبحوا أكثرية بعد أن كانوا أقلية ، رأى أمر الكلية يجتمع فى أيديهم ، بعد أن كان الأمر كله أو أكثره فى أيدى الأساتذة الأجانب، ثم شهد الصراع بين الجامعة والحكومة . الجامعة تريد أن تصون استقلالها ، والحكومة تريد أن تتدخل فى شئون الجامعة فارضة نزعاتها الحزبية ، أو قل نزواتها وأهواءها ، وقد كانت أكبر معركة من معارك هذا الصراع تلك التى دارت بسبب نقل طه حسين من الكلية إلى وظيفة من وظائف وزارة المعارف ، وقد وقف أحمد أمين مع طه ، فأوذى إيذاء شديدا ، حتى فكروا فى نقله هو أيضا من الجامعة .

وخلا كرسى أستاذ بالكلية وأراد أحمد أمين أن يرقى إليه ، ولكن لائحة الجامعة كانت تشترط فيمن يعين أستاذاً أن يكون حاصلا على شهادة الدكتوراه ، ولم يكن أحمد أمين حاصلا على هذه الشهادة ، فاقترح أن يقدم كتبه فجر الإسلام وضحى الإسلام ، كرسالة دكتوراه ، وأن تمتحنه فيها لجنة من أساتذة الكلية ، كما يمتحنون الطلاب الراغبون فى الحصول على شهادة الدكتوراه ، فاعترض على هذا الاقتراح بأن أساتذة الكلية زملاؤه ، وقد يجاملونه فاقترح أن تكون لجنة الامتحان من المستشرقين الأجانب ، فرفض هذا الاقتراح كذلك بدون إبداء أسباب الإعتراض ، وأراد بعض أساتذة الجامعة ، وأعضاء لجنة التأليف أن يردوا على هذا الموقف المتعنت من وزارة المعارف فأقاموا لأحمد أمين فى سنة ١٩٣٥ حفلة تكريم كبيرة ، دعى إليها

عدد من رجالات مصر فى مقدمتهم لطفى السيد مدير الجامعة ، وأحمد ماهر ، والدكتور على ابراهيم ، وابراهيم الهلباوى ، ومحمد مصطفى المراغى ، وخطب فى هذه الحفلة كثيرون ، كان منهم نللينو المستشرق الكبير الذى بدأ خطبته بقوله : إن عند الرومانيين قولة مشهورة : أنه يحق لكل إنسان أن يجن مرة ، وأريد أن أجن هذه المرة فأخطبكم باللغة العربية » ولم يخف أحمد أمين سروره بهذه الحفلة ، وعدها تعويضاً له عن حرمانه من لقب دكتور .

ولكن لم ينته موضوع الدكتوراه إذ أن الجامعة أرادت أن ترق إلى كرسى الأستاذية بعض غير الحاصلين على الدكتوراه مع حرمان أحمد أمين من ذلك ، لوقوفه فى صف المدافعين عن استقلال الجامعة فى وجه تدخل الحكومة ، وجدد طلبه فى أن تؤلف لجنة لبحث مؤلفاته فأحيلت هـــذه المؤلفات على لجنة من أستاذين أجنبيين هما (شادة) و (مستراشر) فأثنيا على المؤلفات ، وقررا أن مؤلفهما يستحق عليهما لقب الأستاذية ، فعطلت الوزارة هذا التقرير أولا بإخفائه زمناً ، ثم حينما أرسلته إلى الجامعة ، لم يجد فيها من يعتنى به ، فتأخر منح أحمد أمين لقب أستاذ فترة أخرى . ولما منح هذا اللقب أصبح يمثل الكلية فى مجلس الجامعة ، فتهيأت له فرصة أوسع لمعرفة النفوس ، والسياسة تعبث بهذه النفوس ولرؤية ذوى الأسماء الشهيرة ، والمناصب الخطيرة ، عن كثب ، لرؤية الهالات التى تحيط بهم ، وهى تنحسر ، فيبدون على حقيقتهم ، بلا بهرج ولا زينة ، كما رأى الناس وهم يسايرون العظماء ، ويؤيدونهم فيما يذهب إليه هؤلاء ، ولو كان باطلا . كما رأى كيف أن قولة الحق ، وإن لم تصدر عن كبير ، كفيلة برد المبطلين إلى طريق الصواب ، لو قالها مؤمن لا يحسب حساب مصلحته الشخصية ، ولا يخشى سطوة ذوى الأغراض من أصحاب السلطة والنفوذ . كما لاحظ أن أكثر الناس يضيق بالمعارض ، ولكنه حينما يثبت له أن معارضته لاتصدر عن غرض ، ولا تساق فى عبارة مجافية مؤذية للشعور ، يتقبلها فى رضاء

ويعدل عن رأيه . ورأى مجلس الجامعة ، وهو يضم الأساتذة والوزراء يميل مع الهوى ، ومن ذلك أن هذا المجلس قرر إرسال خطاب شكر إلى لطفى السيد عن استقالته من منصب المدير ، ولكن الحكومة كانت غاضبة عليه فلم يرسل الخطاب ، فلما تغيرت وحلت محلها حكومة راضية عن لطفى السيد أرسل الخطاب فوقف أحمد أمين فى المجلس ، يتكلم وصوته يتهدج استهجانا لهذا المسلك ولما عارض يوما فى منح بعض الأساتذة الأجانب ، درجة فخرية ، لأنه لم يتبين وجه النفع ولا الخير فى هذا المنح غضبت عليه الحكومة وفكرت فى إخراجه من مجلس الجامعة ، بل فى إخراجه من الجامعة كلها .

وفى أول ابريل سنة ١٩٣٩ عين أحمد أمين عميداً لكلية الآداب إذ وقع عليه اختيار وزير المعارف محمود النقراشى ، وكان من حق الوزير أن يعين واحدا من ثلاثة يرشحهم مجلس الكلية ، وقد كان أحمد أمين أحد هؤلاء المرشحين ويعلق هو على تعيينه هذا فى قصة حياته بقوله إنه هذا التعيين أدهشه لأنه رجل دخيل على الحياة الجامعية فقد كان أزهريا تعلم فى الأزهر ، وفى مدرسة القضاء الشرعى التى هى أقرب المدارس إلى الأزهر ، ولم يتعلم لغة أجنبية إلا ما علمه لنفسه منها بعد عناء وفى قدر محدود ، فكيف يسوغ له أن يرأس غيره من الأساتذة الذين نشأوا فى الجامعة وأتقنوا اللغات . ولكن ليس فى هذا كله ما يدعو إلى الاستغراب فقد كانت كلية الآداب كلها معهدا حديثاً ، وقد صاحبها أحمد أمين منذ ولدت تقريباً ، وقد أصبح واحداً من أساتذتها ، فإذا ساغ له أن يكون أستاذا فيها ، ساغ له أن يكون عميداً لأن العميد لا يرأس الأساتذة إذ لا يوجههم ولا يعلمهم ولا يحاسبهم . ولكن هذه النغمة منه وإن اظهرت تواضعا إلا أنها نمت عن سرور بوصوله إلى هذا المنصب ، وكأنه يقول : إنى وإن كنت أزهريا إلا أنى استطعت أن أصل إلى هذا المنصب ، وأن أرأس سواى من المصريين والأجانب على السواء ، وإن كانوا جامعيين منذ البداية .

وقد استنفدت الأعمال الإدارية أكثر وقته وعاقته عن الإنتاج الأدبى ، فلما وقع الخلاف بينه وبين وزير المعارف بعد سنتين ، وكانت مدة عمادته ثلاث سنوات ، استقال وصمم على الإستقالة ، وعاد يتم سلسلة فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، فأخرج الجزء الأول من ظهر الإسلام وهو يقول : إننى أصغر من أستاذ ، وأكبر من عميد » . والحق انه لا شىء يجنى على الأستاذ المنتج ، من انشغاله بالشئون الإدارية فى كليته ، ولكن لا مفر من أن يكون العميد أستاذا من أساتذة الكلية ، وأن يدفع ضريبة المساهمة فى الأعمال الإدارية إلى حين ، ليعود إلى بحثه ودرسه وإنتاجه .

ويقول أحمد أمين أنه حاول أثناء عمادته أن يشمل نشاط الكلية ، فوق الدرس والمحاضرة ، تنظيم الحياة الاجتماعية للكلية ، فأعد نادى الكلية وزوده بما يجعله أداة صالحة لإثراء حيـــاة الطلبة الاجتماعية ، ودعى بعض الأساتذة ليلقوا محاضرات على تلاميذهم فى أنظمة الجامعات الأجنبية ، كما حاول أن يكل إلى كل أستاذ عددا من تلاميذه ، يكون منهم بمثابة الأب ينظر « فى مشكلات حياتهم المالية والنفسية والاجتماعية » هذا إلى محاولة إقناع الأساتذة بالعدول عن طريقة إملاء الدروس على الطلاب وتوزيع المذكرات المختصرة لإعتقاده أن وظيفة أستاذ الجامعة أن يرشد الطلبة إلى مراجع المـــادة ، وإلقاء المحاضرة ، ودعم جهد الطالب الشخصى ، وتقوية اعتماده على نفسه فى تحضير المادة ، ويقول أنه لم ينجح فيما حاوله فى هذه الأمور الثلاثة النجاح الذى كان يتوق إليه ويتمناه .

ثم انتخب عضوا فى المجمع اللغوى ، فوجد مجتمعاً محافظا كارها للثورة وللتجديد ، ولكنه أفاد من الانضمام إليه الوقوف على كثير من مشكلات اللغة والأدب ، ومن الاطلاع على كثير من آراء الباحثين — ثم يحدثنا عن

صديقه الذى أفقدته إياه عمادته للكلية وهو لم يصرح باسم هذا الصديق ، ولكن واقع الحال ، يدل على أنه يقصد به طه حسين ، وصفه فقال :

هو أقرب إلى المثالية ، وأنا أقرب إلى الواقعية ، وهو فنان يحكمه الفن ، وأنا عالم يحكمه المنطق ، وهو يحب المجد ، ويحب الدوى ، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، وهو مغال إذا أحب أو كره ، وأنا معتدل إذا أحببت أو كرهت ، وهو نشيط فى الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء ، وأنا بطىء ، وهو عنيف إذا صادق أو عادى وأنا هادىء إذا صادقت أو عاديت وهو واسع النفس أمام الأحداث وأنا قلق مضطرب غضوب ضيق النفس ، وهو ماهر فى الحديث إلى الناس فيجذب الكثير ، وليست عندى هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل ، وهو فى الحياة مغامر يكسب الكثير فى لعبه ، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلا فى بطء ، وإن خسرت خسرت قليلا فى بطء ، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة ، وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة . ولعل هذا الخلاف بيننا فى المزاج هو الذى ألف بيننا ، فأشعره أنه يكمل بى نقصه وأشعرنى أنى أكمل به نقصى . جاءت العمادة مفسدة لهذه الصداقة — لأنه بحكم طبيعته — أراد أن يسيطر ، وأنا بحكم طبيعتى أردت أن أعمل ما أرى لأنى مسئول عما أعمل ، ثم ولى منصبا يستطيع منه أن يسيطر على عملى ، فأراد السيطرة وأبيتها ، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسى ، فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسى فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه الصداقة لحزن لما أصابها ، حزنت وبكى عليها وبكيت » .

وقد حدثنا الدكتور محمد مندور ، وكان تلميذاً لطه حسين تولاه برعايته ، وعمل إلى إرساله مبعوثاً للجامعة ، فى فرنسا ، عن أثر الخلاف الذى نشب بين طه وأحمد أمين ، فى مستقبله هو فقال : (١)

---

(١) مجلة المجلة العدد ٩٦ السنة الثامنة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ، حديث مع فؤاد دواره.

« وكان الدكتور أحمد أمين فى تلك الفترة يلح علىّ فى أن اجتهد فى كتابة رسالة الدكتوراه وأن أفرغ منها بأسرع ما أستطيع لتصحيح وضعى فى الجامعة وكان مدفوعا فى ذلك بعدالة القاضى ونزاهـــة العالم وعطف الأستاذ المحب لتلميذه ، واقترح على موضوع تيارات النقد العربى فى القرن الرابع الهجرى ، فوافقت على الفور ، وقام الدكتور أحمد أمين بإجراءات التسجيل والإشراف على هذا البحث ، وتفرغت أنا للعمل الجاد فانتهيت من كتابة الرسالة فى مـدة تسعة أشهر ، وهى نفسها كتابى الكبير الذى أعيد طبعه عدة مرات ...

ويظهر أن تحضيرى الدكتوراه بإشراف أحمد أمين قد أسخط علىّ أستاذى الدكتور طه حسين فأعلن أكثر من مرة أنه لن يعترف بهذه الدكتوراه ، ورفض أن يشترك فى اللجنة التى ناقشتنى فى الرسالة .

غير أنى وجدت فى رعاية الدكتور أحمد أمين لى بعض ما عوضنى عن اعراض الدكتور طه حسين عنى .. »

* * *

ترك أحمد أمين العمادة ، فانفض عنه طلاب الحاجات ،وانقطع سؤال الذين كانوا يسألون فى التليفون ، والذين كانوا يحضرون إلى البيت للزيارة ، وقل عدد المهنئين فى الأعياد ، بل أن بعض تلاميذه طعنوا فيه ، وخرجوا عليـه ، فامتلأت نفسه بالمرارة وقال :

« لم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق ، ولا أركن إليهم كما كنت أركن ، فكنت إذا حدثت فصول من هذا القبيل أقول تكسرت النصال على النصول :

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلى أنه بعض الأنام

وعاد إلى كتبه ومكتبه ، يفعل خير مايستطيع أن يفعل ، وهو أن يمضى لإتمام أجزاء سلسلة تاريخ الإسلام ، فيظهر له الجزء الأول من كتاب ظهر

الإسلام ، والإشتراك فى نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة، لأبى حيان التوحيدى، ثم يضع خطة لإصدار كتاب عن الفلسفة اليونانية ، ثم الفلسفة الحديثة مع الأستاذ زكى نجيب محمود . ثم لما صدرت مجلة الرسالة سنة ١٩٣٣ ، اشترك فى تحريرها، وأخذ ينشر مقالاته فيها التى جمع منها فيما بعد كتاباً بعنوان (فيض الخاطر) فى سبعة أجزاء وقد انتدبه صديقه الأستاذ السنهورى -- وزير المعارف -- فى سنة ١٩٤٥ ، ليرأس إدارة الثقافة العامة ، فألفاها إدارة ، لا يعرف لها رأساً من ذنب ، ولا يدرى ماذا يدخل فى إختصاصها ، وماذا يخرج عنه ، فهى بهذه الصفة تمكن لمن يحب الكسل أن يكسل ، وتفسح لمن يحب العمل ميادين العمل، وقد تفتق ذهن أحمد أمين وهو على رأس هذه الإدارة عن فكرة الجامعة الشعبية وهى جامعة، تهيء فرصة التزود بالثقافة ، خارج ساعات العمل ، وبعد ساعات التدريس فى المدارس ، وبعيداً عن أبنية هذه المدارس ، على ألا تكون سبل تزويد الناس بالثقافة هى الكتاب حتما ، بل أن الجامعة الشعبية تتذرع فى تثقيف الناس ، بالأشرطة السينمائية ، وبالمحاضرة وبالإسطوانات الموسيقية ، ثم أنه لاشروط ولا قيود على الإلتحاق بهذه الجامعة ، مما تشترط المدارس .

ويبدو أن فى حياة كل إنسان فترة يصاحبه فيها التوفيق فتضطرد خطواته إلى النجاح فى كل إتجاه ، ففى هذه المرحلة من عمره التى كان فيها صديقه الحميم وزيراً للمعارف ، والعهد موال لأحمد أمين ـ ذهب يوما إلى بولكلى مقر الحكومة الصيفى فى الاسكندرية ليزور أحد أصدقائه وكان ذلك ـ فى صيف سنة ١٩٤٦ فإذا بسيارة تفتح أبوابها فى فناء هذا المقر ، ويدعى إلى الركوب فيها ، فيرى نفسه أمام وزير الخارجية لطفى السيد ، فيركب معه ، وفيما تسير بهما السيارة يعرض عليه الوزير أن يصحب وفد مصر إلى لندن حيث ينعقد مؤتمر فلسطين الذى دعت إليه الحكومة البريطانية مندوبى الدول العربية . فاعتذر أحمد أمين بأنه عالم لا شأن له بالسياسة ، ولا علم له بقضية فلسطين ،

ويرد لطفى السيد على هذا الإعتذار ردا جميلا بأن وجود العالم إلى جانب سياسى نافع ومفيد، وهو قول صحيح، والحكومات الكبرى تحرص عليه وتستفيد أعظم الفائدة من علمائها فى دراساتها وبحوثها السياسية، بل أنها تسخر للأسف فى أحيان كثيرة علماءها، ليرتادوا لها مناطق تفكر فى استعمارها أو استثمار أموالها فيها، أو غزوها، أو إشاعة الفتنة بين أهليها، توطئة لتغيير حكومة غير موالية بها. ولكن لايختار العلماء إعتباطاً بل يختار العلماء المتصلون بالعمل السياسى الذى تكون الحكومة بسبيله. وإلا كان انضمام العالم إلى الوفد السياسى مجرد حلية. ولم يكن أحمد أمين حينما وقع إختيار وزير الخارجية عليه ليكون عضوا فى وفد مصر الخاص بقضية فلسطين، قد قرأ قراءة الدارس العالم هذه القضية وأدوارها، ولم يكن يعرف خفاياها، الأمر الذى يبرر سفره، ويجعل وجوده فى الوفد أكثر نفعاً من وجود موظف آخر فى وزارة الخارجية. ولكن الرجل درس وقرأ، وفهم قضية فلسطين وأفاد هو شخصياً من الرحلة إذا زاد معرفة ببريطانيا ولندن، كما زاد تمرسا باللغة الإنجليزية وحسب هذه الرحلة أنها أتاحت لأحمد أمين أن يقول فى قصة حياته :

« كما أعجبنى فى الشعب (الانجليزى) ديموقراطيته الحقة» ، فكل إنسان ينظر إليه على أنه إنسان، كبيراً أو صغيراً، ولا يحق « للوزير أن ينال شيئاً يمتاز به الصانع الصغير، هذا وزير خارجية انجلترا يلبس قميصاً بليت ياقته، وهذا وزير المستعمرات. يقول فى بعض أحاديثه معنا أنه لم يشتر بدلة جديدة منذ نشبت الحرب. وهذا الوزير الكبير يذهب بطبقه وسكينه وشوكته وفنجانه ليأخذ الشاى وبعض الكعك بيده كما يفعل سائر الناس فى المحل المعد لأخذ الشاى، وهذا وكيل وزارة يشهر بزوجته لأنها أخذت قنطاراً من الفحم زائداً عن سائر الناس وإن كانت فى حاجة إليه لأنها تسكن بيت كان مهجوراً مرطوبا يحتاج إلى

نار أكثر لتذهب برطوبته» ويبدو أن رحلة أحمد أمين إلى لندن فى وفد سياسى جعلته أقرب إلى رجال السياسة ففى سنة ١٩٤٦ بعد أن أحيل إلى المعاش، عرض عليه النقراشى أن يكون رئيساً لتحرير جريدة (الأساس) التى اعتزمت الهيئة السعدية إصدارها كلسان حال لها، فلما اعتذر على الفور، رجاه النقراشى أن يتريث فى إصدار الحكم فلما أعاد النظر فى قراره لم ير ما يدعوه إلى تغييره. ولكن الجامعة العربية عرضت عليه أن يرأس إدارتها الثقافية فقبل، وحاول أن يجمع المخطوطات العربية ويصورها فى جميع أمكانها، حيثما وجدت، كما فكر فى أن ينشىء متحفاً للثقافة العربية، وأن يوثق علاقة الإدارة الثقافية فى الجامعة، باليونسكو وهى الإدارة المماثلة فى الأمم المتحدة.

كانت الأمور تسير فى حياة أحمد أمين رخاء، حتى بعد إحالته على المعاش ولكن كما يقول الإنجليز، تهطل الأمطار مدراراً من سماء مصحية. ففى ذات يوم كان يطالع، فإذا به يرى نقطة سوداء فى منظاره، فيحسبها نقطة ماء، ويحاول مسحها بمنديله، فإذا هى ثابتة لا تزول، وإذا الطبيب بعد أن يستشار، يقرر أن الأمر أمر انفصال شبكى، ويدور على العديد من الأطباء، فيؤيدون التشخيص الأول ويصبح لا مفر من إجراء العملية، فيجريها، وتكون محنة كبرى، يصفها فى قصة حياته، وصفاً حاراً نابضاً بكل ما تناوله خلالها من انفعالات، وكل ما تجمع فى نفسه من أوهام وهواجس وبكل ما تقاذفه من آمال ومخاوف، قال يصف ليلة إبان المحنة:

« يستولى علىّ الفزع والهلع، وأرهب ما يكون إذا تقدم الليل، وانقطع الزوار، وانصرف الأهل، وقام الناس، واعترانى القلق، وشعرت بالوحدة، واستولت على الأفكار المظلمة على ظلام الليل، وظلام النفس.

أستجدى النوم فلا يجدى ، وأفزع إلى الأفكار المطمئنة فلا تضعف ، وأعد ساعة الجامعة بالقرب منى ربعاً فربعاً تغفو عينى غفوة فأظن أن الليل انقضى ببؤسه وشقائه — ثم أتسمع إلى حركة الشارع لعلى أتبين منها قرب النهار ، فأسمع حركة عربات وسيارات ومارة ، فأتساءل هل الناس عائدون من آخر سهراتهم أو هم مستقبلون لبدء نهارهم .

« وأعزى النفس بأن حولى فى الحجر المجاورة فى المستشفى مرضى يتألمون ولا أتألم ، ويستغيثون ولا أستغيث ، وأن بهم جروحاً ، ولا جروح بى ، ولكن سرعان ماتذهب هذه التعزية لأن الآلام متنوعة ، وقد يكون ألم النفس أشد وقعاً من ألم الجسم » .

وقرأ كتاب اعترافات لتولستوى ، فأدخل إلى قلبه شيئاً من الطمأنينة ، لأنه كان يصور حالة تولستوى ، حينما فقدت الحياة معناه عنده ، فلم يعد يطيق مرور الأيام ، ولا يحتمل أن يشارك فيما يعمله الناس فى حياتهم الرتيبة من أكل وشرب ونوم ، لأنه لم يعد يفهم لكل ذلك مبرراً . حتى أضاءت له موعظة السيد المسيح على الجبل ظلامه المحدق به الآخذ بخناقه ، فعرف أن سر الحياة وهدفها ، هو الحب المطلق الذى لاقيد عليه ، ولا شرط له. ويصف أحمد أمين زواره فيقول :

« وتكاثر الزوار وكانوا موضع الملاحظة والنقد والتقدير : هذا زائر يحدثك الحديث فهو بلسم هموم ، وموضع الماء من ذى الغلة الصادى ليؤنسك ويسليك ، ويقول ما يحسن أن يقال ، وهذا زائر قد عدم الذوق ، فهو يرانى فى هذه الحال فيطلب إلىّ إذا زارنى صديقى فلان أن أرجوه أن يمنحه الدرجة الرابعة ، ويشكو إلىّ تأخره عن زملائه ووقوع الظلم عليه ، ثم هذا زائر كريم قد أنساه ماأنا فيه ، من خصومات عارضة فداس هذه الخصومات بقدميه ،

وكان وفياً كريماً ، قد نسى الحديث التافه فى الخصومة ، وذكر القديم القويم من الصداقة ، وزأر يحز المنظر فى نفسه فتكاد دموعه تسيل على خديه لولا أنه يجاهدها ، وآخر متجلد يتصنع الثبات فإذا خرج سمعت نشيجه ، إلى مالا يحصى من مسموعات ، وكل هـــذا يحز فى النفس طول النهار تستعيده الذاكرة طول الليل » .

ويرفع الطبيب الأربطة على العين الذى جرت فيها العملية ، ويفحص العين وبعد طول التدقيق يعلن أن العين قد بدأ التحامها فيهوى عليه أحمد أمين يقبله ، ولـكن الطبيب نفسه ينصح بمزيد من الأيام يقضيها المريض فى سريره بلا حراك ، كالأيام السابقة فيصعب عليه أن يسمع هذه الأوامر ، وتزداد نفسه ضعفاً ، فاصغر الأمور يزعجه . أنه أصيب بزكام فلماذا يصاب ؟ وابن آخر دخل الدور الثانى للامتحان فهل نجح ؟ وثالث تخرج من الدراسة ولـكنه لم يوظف بعد ، فلماذا تتأخر عليه الوظيفة ؟ وأصبحت الدنيا أوهاماً وهواجس .

وترفع الضمادات بعد طول الانتظار ، فإذا الفرحة لا تتم لأن العين التى أصيبت بالانفصال وشفيت منه ، اتضح أنها مصابة بالمـــــــاء الأبيض أى (الكاتراكت) وأنه لا سبيل إلى معالجتها إلا بعد فترة طويلة من الزمن ، حتى يتجمد الماء ، وتسهل إزالته ولا تسهل إزالته إلا بعد أن تفقد العين إبصارها كله . وضعفت قدرة أحمد أمين على القراءة والـكتابة ، واضطر إلى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب ، واعتاد الإملاء بعض الشىء ولم يكن يحسنه فى البداية ، وقد أخبرنى أحد أبنائه ، أن هذه الحال ثقلت عليه ، وأنه أصبح سريع الغضب شديد الملل ، ولـكن الله منحه شيئاً من العزاء ، إذ قرر مجلس جامعة القاهرة إهداء لقب الدكتوراه الفخرية له وجائزة فؤاد الأول فى الآداب ، فقال :

« كان من الطبيعي أن أبتهج بهاتين المنحتين العظيمتين اللتين منحتا لى

فى يوم واحد تتويجاً لجهودى فى الجامعة وجهودى فى الإنتاج الأدبى ، ولكن جاءتا عقب العملية الجراحية فى عينى وما أصابنى من ذلك فى نفسى فلم يهتز لها قلبى كما ينبغى ولا ابتهجت لها نفسى كما يجب » ، وتولت حكومة النقراشى والسنهورى تكريم أحمد أمين فعين أستاذاً غير متفرغ فى كلية الآداب ، حينما أنشىء هذا النظام فى الجامعة . فعاد أستاذاً كما كان يلقى كل أسبوع محاضرتين : واحدة فى الأدب وكيف ينبغى أن يدرس . والثانية فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه .

* * *

هذا هو أحمد أمين الذى ينتسب جده إلى قرية سمخراط فى البحيرة ، وقد هاجر منها بولديه ، والد أحمد ، وعمه ، تاركا خلفه نحو اثنى عشر فداناً ، نجاة بنفسه من عسف جامعى الضرائب الذين كانوا لا يكتفون باعتصار الفلاح المسكين ، بل كانوا فوق ذلك — إذا لم يجدوا عنده المال المطلوب ، ولا أقول المستحق — ضربوه وجلدوه ، وانتزعوا ماشيته . جاء إلى القاهرة ، وأقام فى حى بولاق ، واشتغل عم أحمد صانعاً فأدر عليه ذلك أخلاف الرزق ، فأعفى أخاه من العمل ، ودفعه إلى التعليم ، فكان إمام مسجد ، محباً للعلم ، جمع فى بيته كتباً كثيرة أحبها ، وعلم ابنه أحمد ، كيف يحبها ، فنشأ فى جوها ، وألف صحبتها ، وعرف كيف يستخرج منها ما ينفع الناس .

كانت حياته بسيطة وهادئة ، خلت تقريباً من المثير ، كأكثر الذين تصدروا حياتنا الأدبية ، ففيما عدا ما أصاب عينيه فى آخر أيامه ، وشىء من النزاع بينه وبين أصحاب السلطة أثناء عمادته لكلية الآداب ، لم يكابد مايدعو إلى القلق .

وبعد ، فإن حياة أحمد أمين ، تكاد تكون أفضل النماذج لتمثيل (المصرى) فى الحقبة التى نؤرخ لها . فقد ولد فى سمخراط ، وكابد جده مظالم العهد ، ففر من القرية ، وترك وراءه اثنى عشر فدانا كانت بالنسبة لفلاح ، ثروة لا يستهان بها ، ولجأ إلى القاهرة ، فى حى يضم نماذج بشرية كل منها يعتبر عنوانا على طائفة من أهل القاهرة ، واشتغل أبوه ، بالوظائف الدينية ، واشتغل عمه بإحدى الحرف اليدوية ، وطاف على مدارس ذلك العهد ، فكان تلميذاً فى أربعة كتاتيب ، وفى مدرســـة حديثة ، وفى الأزهر ، وفى القضاء الشرعى ، ثم اشتغل بالتدريس وبالقضاء فى الواحات وفى القاهرة ، ثم قفز إلى الجامعة ، فأصبح مدرساً بها مع الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين . لبس الطاقية والجلباب ، والطربوش والبذلة ثم العمامة والكاكولة ، وهو بعد صبى صغير ، ثم عاد إلى العمامة ولكنه حاول تعلم اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، ثم عاد إلى البذلة والطربوش ، ثم سافر إلى أوروبا ، وخطب فيها ، ثم عاد فسافر إليها وحضر المؤتمرات بها ، وقبل ذلك اشتغل بالوطنية ، واستهدف لمخاطرها ، ومن ناحية أخرى صعد السلم الوظيفى من أدنى درجاته إلى أعلاها ، فقد بدأ مدرساً ، فى طنطا والإسكندرية بقروش ، ثم انتهى إلى وظائف فى درجة وكيل الوزارة ، ولو حرص قليلا ، لأصبح وزيراً .

ما هو عنوان هذه الحياة التى ضمت كل هذا ؟ لا أحسب أن هناك عنوانا يليق بها ، أفضل من عنوان الأخلاق ، . فلم تكن مصادفة محضة أن يتولى تدريس مادة (الأخلاق) فى مدرسة القضاء الشرعى ، فإنه لم يحقق فى الحيـــاة نجاحاً ، ولم يمد إلى بلاده يداً ، إلا فى حدود ما تقضى به الأخلاق الفاضلة . فلم يكن مداوراً ، ولا منافقاً ، ولا ممن يحسنون الجرى وراء ذوى السلطان ، وقد عرض عليه فى أخريات أيامه ، أن يتجر بقلمه فى سوق السياسة فرفض . واقترب من الساسة ، غاية الاقتراب ، ولكنه بقى عالما فاضلا ، يرى ويسمع ، ولا يغريه

دنوه وقربه من حلبة الأحزاب والحزبية ، أن ينزل إليها ، طمعاً فى شهرة أو جاه .

وقد تولى بناء شخصية أحمد أمين ثلاثة أكلوا فيه خصاله الموروثة : تولاه أبوه منذ سن الطفولة،فطبعه على الجد ، والمثابرة، وإنكار الذات والسهر وتحمل المشقة . ثم تلقفته يدا زميله الشيخ عبد الحكيم بن محمد فى الإسكندرية ففتح أمامه آفاق الفكر الجاد ، ثم جمعت الأيام بينه وبين عاطف بركات ، فوجد فيه مثالاً ثالثاً للجد والصرامة والاستقامة والصراحة .

ومن هنا كانت آثار أحمد أمين فى حياتنا جداً خالصاً . وأولى هذه الآثار لجنة التأليف والترجمة النشر ، ثم مجلة الثقافة ، ثم آثاره القلمية ، وفى مقدمتها سلسلة الإسلام ، التى كانت على إيجازها ، البشير بما سيأتى بعدها على يدى تلاميذه وغيرهم .

لقد صنع أحمد أمين نفسه بيده ، فأحسن صنعها ، وكان نموذجاً لعالم فاضل رأس ماله : جد ومعاناة ، لا يشوبها هزل ولا ترخص .

الفصل الثاني عشر

عبد الحميد الديب

لست أذكر متى عرفت عبد الحميد الديب، وما هي أولى المناسبات التي جمعتني به، ولكنه كان على سبيل القطع من رواد دار مصر الفتاة، وليس في الفترة التي نشأت فيها مصر الفتاة شيء مثل دور الأحزاب يجمع كل أنواع الناس، وأصنافهم ودرجاتهم. بمختلف ميولهم، وتعدد صفاتهم. وكان الأفاقون والمتصعلكون، ومحبو التشرد العقلي والاجتماعي، وهواة البطالة، وعشاق سماع الأخبار، والنوادر، هم الفئة الغالبة في كل دار من دور الأحزاب فهؤلاء لم تكن تستغني عنهم وزارة الداخلية بأقلام أبحاثها ومخابراتها لأن هذا الطراز الهائم من البشر، أصلح ما يكون لنقل الأخبار المرموقة، وترويج الإشاعات المطلوبة، ودس الدسائس، والكشف عنها، عن قصد ونية أحيانا، وعن غير قصد ولا نية حيناً. وهؤلاء بدورهم لا يستغنون عن دور الأحزاب، ففيها الزعماء الذين لا تنقطع حاجتهم عن المؤيدين والمروجين، وأصحاب الحاجيات الذين يلتمسون عند كل إنسان أداة لقضائها والأميين الذين يدعون العلم، والمرشحون الذين تعوزهم القدرة على الكتابة والخطابة، أولئك يصبحون هدفا سهلا، لهذه الطائفة من الناس، فيتملقون كبرياء الزعيم: يهتفون له، ويخطبون بين يديه، ويرفعونه فوق الأكتاف، ويلتصقون ببطانته، فيصبحون أقدر من سواهم على تقديم الشفاعات، وقضاء الحاجات ثم يحررون الخطب ويدبجون المقالات، ويؤلفون البلاغات والشكايات لطالبيها من رواد دور الأحزاب، خصوصاً الوافدين من الريف حيث يكثر محبو الوجاهة، والطامعون

فى السلطان ، والمرشحون لعضوية البرلمان ، وللعمديات وغيرها ، وأكثر هؤلاء ينقصهم التعليم ، فيلتمسون العون والمدد من أقلام وألسنة المتأدبين وأدعياء الأدب .

وقد كان فى مصر ، عدد غير قليل من أفراد هذه الطائفة يتفاوت نصيبهم من الذكاء والقدرة الكتابية والخطابية ، كما يتفاوت حظهم من الكرامة والحرص عليها ، أو ابتذالهم أنفسهم ، والحط منها ، من أجل المال والحظوة .

وقد كان على رأس هؤلاء محمد مصطفى حمام ، وهو أوفر الجميع ذكاء ، وأكثرهم نشاطا ، وأغناهم بالموهبة ، وأوسعهم شهرة ، وكان من هؤلاء الشيخ عبد الحميد النحاس ثم عبد الحميد الديب .

وكان عبد الحميد الديب هو الوحيد بين هؤلاء جميعاً الذى عرف بالموهبة الشعرية ، دون أن يفكر فى أن ينافس غيره فى ميدانى الكتابة النثرية أو الخطابية ، ولم يكن ممن يبيعون مواهبهم فى سوق التجارة الحزبية فلم يمدح زعيما قط ابتغاء كسب المال ، ولم ينافق حزبا ، ولم ينتسب إلى جماعة ، بل إن بعض كبار الأحزاب كان ينالهم من عبد الحميد الديب ولسانه ، الشىء الكثير ، إذا لم تعجبه حالهم ، أو إذا تجاوز أحدهم معه الحد السائغ فى المزاح .

والحق أن عبد الحميد الديب كان شاعرا ، وكان خلقه أبعد من أن تشوبه شائبة التجسس لحساب مخابرات ومباحث وزارة الداخلية ، فهو « بوهيمى » يطيب له أن يشرد مع شطحات نفسه الجوالة التى لا تطيق عملا مستقراً ، ولا حياة منتظمة .

وقد كان الديب أميل إلى القصر منه إلى الطول ، وكان لونه أميل إلى

السمرة ، منه إلى البياض ، وكانت عيناه واسعتين ، لمـاعتين ، ضاحكتين ، ولم يكن فى وجهه شىء يستوقف النظر .

ولقد أحببت عبد الحميد الديب ، لأننى لم أجد فيه عاهة من العاهات التى اراها أكثر من غيرها ، رذائل لا تغتفر . فلم يكن بذيئا يعيش من اتقاء الناس لوقاحته ، ولا كان دساساً يسعى بين الناس بالوقيعة والنميمة ، ولا كان فضولياً يحب أن يعرف أسرار الناس وسقطاتهم ، ولا متجراً بفضائح الغير ، ولا متهجماً ، يقتحم حرمات الناس ، ويفرض نفســه عليهم . كانت عيوبه مسلطة عليه ، تسىء إليــه ، ولا تسىء إلى غيره ، وكان رأس رذائله كسله ، وكرهه للعمل، وضيقه بالنظام ، والرتابة، وحبه للتجول: لم يكن يصبر حتى على نظام الشعر ، فـكان شعره مقطوعات قصيرة ، صغيرة ، تدور فى الأغلب الأعم حول خواطر قليلة . فلم ينظم قصائد طويلة إلا قليلا ، ولم يجمع شعره ، ولم يواظب حتى على هذا اللون من النظم ذى النفس القصير .

وقد اهتممت بأمره فـكنت أقضى معه وقتا غـير قصير ، أستمع إليه ، وأداعبه . ولما كنت فى الفترة الأولى لعملى بالمحاماة ، أذهب بعد انقضاء ساعات العمل فى المكتب والحزب ، إلى محل أو اثنين ، يمتازان بقلة روادهما وابتعادهما عن عيوب المقاهى ، فقد أصحب عبد الحميد معى إليهما فأستمع له طويلا وهو يثرثر ويروى ذكرياته وشعره ويعترف بمخاوفه ومغامراته الخيالية .

وقد علمت منه أنه من مواليد سنة ١٨٩٨ ، وأنه من أهالى مديرية المنوفية، وأن والده كان تاجر قطن فقد ثروته فى كارثة من كوارث التجارة ، ثم عرفت فيما بعد أن والده كان جزاراً رقيق الحال ضيق الموارد فى قرية كمشيش التابعة لمركز الباتنون، وقد أرسله أبوه إلى الأزهر أى إلى المعهد الدينى باسكندرية،

وقد كانت حياته أثناء تحصيل العلم ، شظفا ومكابدة لآلام الفقر وحرمانه ، مع بعده عن الأهل ، ثم وفد إلى القاهرة ، فلم تتغير حاله فيها عن حاله فى الإسكندرية فقد لازمه الفقر ، وصاحبته الحاجة ، وبعد أن أتم المرحلة الثانوية فى الأزهر ، لحق بمدرسة دار العلوم ، ثم استسلم لداء تعاطى المخدرات الوبيل ، فأفسد عقله ، وهد عزمه ، وتركه حطاما لا يقوى على عمل ، ولا يصبر على شىء . ولما شفى منها بعد علاج فى الخانكة ، خرج هائما على وجهه ، لا يطيب له إلا التنقل بين الأماكن ، والناس ، والخواطر ، والأفكار ، والأحلام .

وكان قد دخل السجن قبل ذلك ، قاده إليه المخدر الذى قاده إلى مستشفى الخانكة ، وقد كانت تجربة السجن ، وتجربة مستشفى الأمراض العقلية ، خليقتين بأن تزوداه بالكثير من الصور ، والأفكار ، وأن تلهماه بالعميق من الخواطر والتأملات ، ولكن يبدو أن جهازه العصبى كان قد أصابه عطب فلم يعد قادراً على أن يؤدى وظيفته فى جسم عبد الحميد ، كما يؤديه فى جسم غيره من العاديين والطبيعيين من الناس .

وقد حفظ عنه بيتان أو ثلاثة نظمها ، يصف بها زملاءه فى السجن قال :

إخوان سجن قبحت من وجوههم
همومٌ تتوالى دائماً وخطوب
فمنظرهم أضحوكة كلباسهم
ومخبرهم فى الحادثات رهيب
لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحا
أفسر أحلاما لهم وأصيب

ثم تمضى بعد ذلك حياة عبد الحميد الديب مأساة ومهزلة فى وقت واحد . فقد عرف من ألوان الضيق والفقر ، أقصى ما عرفه الفقراء المعدمون ، فى مدينة كبيرة ، وعرف فى الوقت نفسه ، حياة لا تخلو من طرافة ومتعة ، فقد حرص بعض علية القوم من وزراء وأدباء ، على التلطف معه ، وكسب وده ، ومد يد لمساعدة إليه بالقليل ، فكانت له معهم مواقف ، مدحهم وهجاهم ، وتردد على مجالسهم ودورهم ثم هجرهم . وبقى آخر الأمر على حاله من الفقر والخمول ، لم تنشر ، صحيفة كبيرة قصيدة ، ولم يكتب عنه مقال ، ولم يعترف به بين الشعراء لكبار أو الصغار . فكان شعره ينظم ويلقى ، وتتناقله الألسن ، ويبدى معجبون إعجابهم به ، ويظهر القادحون سخطهم عليه فى الشارع ، وعلى قوارع طرق ، وفى المقاهى ، وأندية الصحف ، بين ضحك الضاحكين ، وهزل الهازلين ، كؤوس الخمر تدور ، وأكواب الشاى تشرب ، والقادمون والراحلون ، دون ويرحلون : تشيعهم وتستقبلهم القهقهات والنكات ، وصيحات الترحيب لتوديع . وعبد الحميد الديب ، بين هذا كله ، يتلقى الطعنات ويردها ، ويشعر هانة حينا . وبالسرور والسعادة حينا ، إذا ظفر بكأس ، أو بسيجارة أو كوب ى ، أو بعبارة تشجيع ، أو بمعجب جديد . ثم يخرج بعد ذلك ليستأنف سيره الشوارع باحثاً عن ناد آخر ، تختلف فيه عن سابقه الوجوه ، والمشارب لأذواق ، ولكن لا يختلف هو حظه منه ، فقد يكون الأول للأغنياء ، بينما يضم ى الشبان الذين لا يفضلون الديب كثيرا سعة رزق أو علو مكانة أو شهرة .

وقد حاول الديب أن يجد فى تجواله وتنقله عملا فلم يوفق ، لا لأن الأبواب سدت فى وجهه كما يظن ولا لأن حساده أرادوا الكيد له كما يردد فى شعره ، كن لأنه لا يريد أن يعمل ، ولا يحتمل أن يبقى فى مكان واحد لساعات ، عمل جهداً منتظماً فلا تصدقه حينما يقول مثلا :

حظى ومصرعه فى لين أخلاق … وفيض عطفى على قومى وإشفاقى
ومن حبته الطلا أخلاف نشوتها … عدا على الكأس طوراً أو على الساقى
بين النجوم أناس قد رفعتهمو … إلى السماء فسدوا باب أرزاقى
يا أمــة جهلتنى وهى عالمة … أن الكواكب من نورى وإشراقى
أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن … كعيش منتجع المعروف أفاق
وكنت نوح سفين أرسلت حرما … للعالمين فجازونى بإغـــراق

ولكن لك أن تستمتع بهذه الصور الجميلة التى رسمها لبؤسه وشقائه مثل :

وما تألمت من خطب ضحكت له … كما تألمت من خطبى بعشاقى
أنا على القرب منهم كل متعتهم … وأن نأيت حبونى فيض أشواقى
فمالهم قد أشاعوا كل مخجلة … عنى وأعلنوا بؤسى بأبواق
كصاحب الطير لا ينفك يسجنه … سجنين فى قفص مضن وأطواق
حظى هو الأيكة الخرساء ذابلة … هو النسيم سموماً غير خفاق
هو السحاب جهاما والندى أسنا … هو الضياء به موتى وإحـــراق
كأنه أذرع شــلاء راحتها … أو أنه أعين من غير أحداق
لا تسألونى عن بؤسى وعلته … سلوا به الحظ ميتاً فوق أعناق

وتتوالى هذه الصور البارعة ، المرسومة برشاقة وألمعية ، هى خير شهادة للشاعر وعلو كعبه ، فمنها :

أرى الحوادث آســادا مقذفة … علىّ دون الورى تعدو وتقتتل
فكم تصوح عودى بعد نضرته … وكم خبا فى دياجى عمرى الأمل
وكم دعت لى أمى وهى باكية … وكم دعا لى أبى يقظان يبتهل
وأجلس الليل فى صحبى أسامرهم … وكلهم بمجالى رفقتى خضــل
إذا ســلموا للعود وانصرفوا … سربت جوعان يفرى عزمى الكلل

جوعان يا محنة أربت على جلدى كأن ليلى يوم البعث متصل
كأن حظى رحيق الدهر يشربها بكراً معتقة فالدهر بى ثمل
فإن تطلبت عيشى مت من كمد وإن تطلبت حينى يبعد الأجل

ويتفوق على نفسه فى وصف بؤسه فيقول :

أخلقتنى يارب أم أنا واهم أنا ما خلقت لأننى لا أرزق

ثم يقول :

أفى حجرتى يارب أم أنا فى لحدى ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
وهل أنا حى أم قضيت وهذه إهابة إسرافيل تبعثنى وحدى
لكم كنت أرجو حجرة فأصبتها بناء قديم العهد أضيق من جدى
ترانى بها كل الأثاث فمعطفى فراشى لنومى أو وقاء من البرد
وأما وسادانى بها فجرائد تجدد إذا تبلى على حجر صلد
فأهدأ أنفاسى يكاد يهدها وأيسر لمسى فى بنايتها يردى
تساكننى فيها الأفاعى جريئة وفى جوها الأمراض تفتك أو تعدى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها فأرجله أمضى من الصارم المندى
تحملت فيها صبر أيوب فى الضنا وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

ثم

ياغرفتى ما عشت أحبوك الرضا فلقد حجبت عن الورى أوصابى
فعلى ثراك عفرت جسمى نائما كثرى البقيع لعابد أواب
ووقيتنى فى مدمعى وشكايتى أذن اللئيم ونظرة المرتاب

ثم هذين البيتين اللذين أودعهما خلاصة شكواه من البؤس وقد ذاعا على الألسن وشاعا فى المجالس :

وهام بى البؤس حتى كأنى عبلة والبؤس عنتر
كأنى حائط كتبوا عليه هنا أيها المزنوق طرطر

فمفتاح شخصية الديب هو أنه مطبوع على التجول ، وأنه تأخر عن زمانه فلو أنه ولد فى عهد الخلفاء والسلاطين والأمراء ، فلعله كان يجد واحداً ، يبسط عليه عطفه فيجرى عليه رزقا لا يطلب منه عملا إلا أن يسمعه شعره كلما جاد عليه شيطان الشعر بشىء .

وقد ظن الديب ،أن سابقةدخوله السجن ، والمستشفى ،هما اللتان حالتا دون حصوله على وظيفة، وهو ظن ليس صحيحاً فى جملته، ذلك لأن آخرين حكم عليهم بأكثر مما حكم به على الديب ، ولـكنهم استطاعوا أن ينجحوا فى الحيـاة ، وأن ينسوا الناس ماضيهم، لأنهم كانوا راغبين فى العمل ، وقادرين على تحمل متاعبـه .

ولقد حاولت أن أستعين به فى بعض أعمال مكتبى ، فطلبت إليه أن ينسخ لى ملف قضية كبيرة ، كانت ستنظر أمام مجلس عسكرى تابع لمصلحة الحدود، وذهبت يوماً إلى المصلحة لأرى ماذا يفعل ، وكم قطع فى العمل الموكول له ، فرأيت (جاكتته) التى كان يلبسها ملقاة على الأرض ، ووجدته هو داخـل المـكتب الذى كان ينسخ فيه ، متماسكا مع الموظف المختص ، والدم يسيل من فمه ، فخلت بينهما ، وألبسته (الجاكته) ، وسألته عن الأمر ، فعلمت منه بصعوبة أن الموظفين الذين كانوا فى الحجرة ، كانوا يتبـادلون بعضهم مع بعض نظرات وعبارات الهزء به ، وأنه لم يطق صبراً على هذا ، فرد عليهم بما رآه جزاء وفاقاً ثم وقعت المعركة . فأدركت عدم جدوى هذه المحاولة، وأخذته من يده ، وأنا أطيب خاطره ، حتى انبسطت نفسه ، وضحك ، وعاد إليه صفاؤه ، ونسى من أمر هذه المعركة كل شىء .

وقد روى مؤرخ حياته الدكتور عبد الرحمن عثمان أنه اشتغل بعملين أولهما كان أشبه الأعمال بعبد الحميد الديب نفسه، لأنه كان أقرب إلى العبث منه إلى العمل، وأكثر احتواء لما كسة الناس والسخرية منهم، من احتوائه لفكرة خدمتهم وتيسير أمورهم. فقد روى أن رجلا ممن اعتادوا إصدار تقاويم (نتائج) سنوية، مذيلة بتنبؤات، بوصفه من الفلكيين القادرين على حساب النجوم وبالتالى قراءة الطالع، احتاج إلى عبد الحميد الديب ليعاونه فى استقبال زبائنه الذين يفدون إلى داره باحثين عن المستقبل المحجب، ومتطلعين إلى هذا الغيب المرهوب فكان دور عبد الحميد بذر بذور الإيمان بالشيخ فى نفوس هؤلاء المساكين، وتقوية اعتقادهم فى كراماته، واللعب على مواطن الضعف فيهم، والكشف عن خبايا قلوبهم. وعلى الرغم من أن هذا العمل، كان فيه من التسلية ما فيه، فإن عبد الحميد الديب لم يطل صبره عليه، لأن الشيخ المتنبىء، كان قد منحه مقابل عمله حجرة فى أعلى داره ولعلها الحجرة التى مر بنا وصفها، فقد كانت أقرب إلى الجحر منها إلى الغرفة، ومع ذلك فإن الشيخ لم يكن يسمح للديب بالصعود إليها، إلا حينما ييأس من وفود الزائرين، ولم يكن الشيخ ييأس إلا بعد ساعة متأخرة من الليل، فثقل ذلك عليه، وإن كان هذا العمل فى رأيه أيسر وأخف من عمله مع الدكتور أحمد فريد الرفاعى مؤلف كتاب عصر المأمون، فقد روى الديب أنه كان يعتصره، طوال الأسبوع، إذ لم تزد عطلته إلا نصف يوم فى الأسبوع كل ذلك مقابل ثلاثة جنيهات.

أما العمل الثالث الذى اشتغل به الديب فقد كان وظيفة كتابية فى وزارة الشئون الاجتماعية، عينه فيها الأستاذ عبد الحميد عبد الحق، بعد أن سمع منه قصيدة فى معهد الموسيقى الشرقية، أطربته وأعجبته، وهى قصيدة جيدة فعلا قال فيها:

يا معهد الفن يا أهرام دولة ... ويا سماء بها للفن اسراء
فيك العبادة ألحان مقدسة ... وكل ما تحتوى لله أرضاء
كم ذا تخرج للدنيا ملائكة ... فما لفضلك تقدير وإحصاء
كانت عواطفنا مرضى فكنت لها ... برءا أقام بها واستؤصل الداء
جعلت تربية الأوطان مرهفة ... والفجر يمحى بها ليل وظلماء

ولما عين فى الوظيفة ، اشترى عصا ، وراح يتوكأ عليها فى طريقه إلى (الديوان) ، ويديرها فى الهواء تفاخرا وتعاظما ، ولكن لم يكد ينقضى عليه فى الوظيفة إلا أيام حتى طولب بمسوغات التعيين أى المستندات التى تجيز تعيينه من مثل حصوله على شهادة دراسية ، مع شهادة الميلاد ، وصحيفة سوابقه ، ولما كان قد حكم عليه ، وكان قد استرد اعتباره ، بمحو هذه السابقة من صحيفته ، فقد كان مطمئناً إلى أن تعيينه أصبح ممكناً ، ولكن الظاهر أن خلافا ثار حول هذه النقطة فى ديوان وزارة الشئون الاجتماعية فتأخر تعيينه ، فكتب الديب إلى الوزير يستغيث به :

أبكى وحظى فى حماك يغرد ... وأفنى ولى ذكر إذا شئت يخلد
وأشقى شقاء الروض جانبه الحيا ... وفى مصر اكفاء بعطفك تسعد
أتلبسنى تاج الكرامة لامعا ... وتنزعه أيد لعدلك تجحد
أتشهر فى سيفا على الدهر صارما ... ويوشك من بؤسى يفل ويغمد
أتركبنى فلك النجاة وكلما ... قصدت به شطا يطول ويبعد
لقد هددونى بالمسوغ وانبرى ... يناوئنى منهم وضىء وأربد

ولكن فرح الديب بالوظيفة — كالعادة لم يلبث حتى برد — فقد كان المرتب ضئيلا ، ولم يتحقق أمله فى احتلال مكتب خطير ، ورأى نفسه آخر الأمر مرءوسا

لبطل من أبطال حمل الأثقال ، كان يخشاه فلا يشعر بالطمأنينة وهو يتلقى منه الأوامر فقال :

بالأمس كنت مشرداً أهليا　　　واليوم صرت مشردا رسميا

* * *

وبعد ماذا يساوى الديب .

إنى أرى الديب شاعراً موهوباً ، كان جديراً بأن يثرى ديوان الشعر العربى فوق ما أثراه بألوان فريدة غير مسبوقة ، وبمعان جديدة غير مطروقة ، لو أن الوسط الأدبى ، كان أكثر جداً ، وكانت الحياة العامة أعظم حظاً من الاستقامة والقوة ، ولكن الواقع أن الحياة الأدبية كان يشوبها لون من الهزل ، يمارس على قوارع الطرق والمقاهى ، وحجرات رؤساء تحرير الصحف ، وكان أكثر هذا النشاط مصروفا إلى العبث وحبك المؤامرات الصغيرة التى تسمى (بالمقالب) ، وترديد بعض أبيات من الشعر الخفيف ، والإتجار بالأدب للتقرب إلى الساسة ورؤساء الأحزاب والوزراء ، وإمتاعهم بالفكاهات والنوادر ، وكان هؤلاء المتجرون العابثون ، الذين لم يتم أكثرهم تعليمه ، والذين تقتصر ثقافتهم على قراءة الصحف والخفيف من الكتب ، هم المتصرفون فى الحياة الأدبية والمتصدرون لها ، ولذلك فقد سقط الديب فى أيديهم ، كما تسقط الفريسة فى أيدى الوحوش المتربصة ، فتلهوا به طويلا ، وأكدوا عنده الميل إلى الكسل ، وأفقدوه احترامه لنفسه ، ولم تمتد منهم يد جاد إلى تقويمه ، والارتفاع بموهبته ، فى حدود خصائصه الجسمية والنفسية .

ومع ذلك فقد جاد علينا الديب ، بقطع جميلة ، وضع الديب بها نفسه على رأس معاصريه من الشعراء الذين كانوا فى مستواه .

وإذا كانت الشكوى من الدهر ، والتململ من ضيق الرزق ، والتفوق على

نفسه المرة بعد المرة، فى وصف فقره و بؤسه، وهوانه على الناس، وعدم احتفالهم بشقائه، هو الموضوع المفضل عنده إلا أنه لم يكن الموضوع الوحيد الذى طرقه فقد تناول أموراً كثيرة، منها ما هو وطنى، ومنها ما هو اجتماعى، ومنها ماهو فنى، وكان فيها جميعاً حاراً لماعا، فشعره خلا من نقيصة الفتور أو الغموض أو التردد، فهو يذهب إلى هدفه من البيت، أو من القصيدة كلها، مندفعاً مستوفزاً مستحضراً أدواته فى التعبير والوصف والتحليل والسخرية والمقارنة.

خذ مثلا وصفه لطراد يغرق، ويغرق معها قبطانه، وهو موضوع طرقه غيره من الشعراء فجاء شعر الديب أعلى من شعر سواه، وأجمل وأروع قال الديب:

سرت بين مرهوبين ليل منافق | وبحر مدى الدنا خفى الطرائق
كتائب فلك جندت لكريهة | وحرب بها تبيض سود المفارق
إذا مارست كانت جبال مرادة | وإن أقلعت كانت قلاع تسابق

ثم قال بعد أبيات كثيرة جميلة، لوصف القبطان وهو يغرق معها:

ولم يقض غير القبطان وقد نجا | من الموت ملاحون فوق الزوارق
كذلك أبطال البحار ... وفاءهم | لفلكهمو كالسلسل المتدافق
تبدا على ظهر السفينة واقفا | محاطاً بأعلام لها وبيارق
وهامته فوق الكواكب رفعة | ومن وجهه الوضاح فيض مشارق
فغاص وإياهـا قريراً كأنما | هما توأمان فى رفات ملاصق

ثم خذ وصفه لراقصة رآها فى ناد ليلى:

عربد الحسن فجن السامر | وعرا السمار أنس غامر
رقصت أم زلزلت من رقصها | كل قلب، فهو ناء حاضر
ذلك الرقص صلاة وهدى | ودعاء مستجاب طاهر
ويد تستلهم الله التقى | وفؤاد بالأمانى عامر

ثم تأمل هذه اللمحة الروحية :

كل ما فى الكون حتى تربه　　سبح الديان تسبيحاً خفيا
رنة التكبير فى أذنى محت　　رنة الكأس وأودت بالحيا
والمصلون لدى تسبيحهم　　صيروا الندمان فى عينى نسيا
يا صبوحى يا غبوق ضلة　　لكما منى بكورا أو عشيا
قات ربى وأنا جاث له　　فحبانى عطفه قلبا رضيا
تبت من ذنبى ومن ترجع به　　نفسه لله يبعثه نقيا

ثم أنظر إلى هذا الأسى الذى امتلأ به هذا البيت ، الذى نظمه فى يوم عيد ، لم يطرق بابه فيه أحد من الزائرين :

من زائرى فى العيد ؟من بالباب ؟　　وهم فقدت به رشيد صوابى

ثم أنظر وصفه لصديقه الحلاق ، الذى يقرضه ويؤنسه ويواسيه :

أخى وجارى وحلاق ودياني　　وممسكى إن أمال الدهر ميزانى
مقصه حالق للشيب يمحقه　　وحالق بالحديث الغث أحزانى
مقصه قصص صدق وراوية　　كم قص شعرى على صحبى وخلانى
مرآته زينة للعين ساحرة　　موساه أفضل من موسى بن عمران

ويقول الديب أن المقصود (بموسى بن عمران) هنا ، حلاق فى إبان الحملة الفرنسية وليس النبى موسى عليه السلام ، وهو تفسير أراد أن يرد به عن نفسه تهمة الاجتراء على مقام النبى . ثم أسمع نقده لمشروع الحفاء الذى أعلن عنه فى عهد الملك السابق ، والذى قيل أن الغاية منه ، توزيع الأحذية على الحفاة من المصريين :

قالوا الحفاء فقلنا لا يضيركمو　　من يأمن الموت جوعا أنه حافى
الشعب جوعان لم يشك الحفا أبدا　　ولم يجد لكم رجلا لإنصاف

فقد يبيع الحذاء الفخم صاحبه   لينقذ النفس من جوع وإتلاف
هذا هو البؤس لا حاف ولا منتعل   والجرح .. لكنه عن طبكم خافى

ثم أنظر سخطه الضارى على الحكومة ، فى فترة الحرب العالمية الثانية عندما حرمت ذبح المواشى يومين كل أسبوع فقد اتخذ من هذا الإجراء الجائز مجرد ذريعة للحملة على الحكومة .

كلوا الحكومة أو موتوا من الجوع
صوت الضعيف المرجى غير مسموع
من حرموا اللحم فى يومين هل علموا
أن ليس فى حكمهم زيد لتشريع
حكومة الفقر والألم قبلهمو
على الورى حرمته ألف أسبوع

* * *

كان عبد الحميد الديب بشعره وبؤسه ، وهزء الناس به ، وتنديده هو بالمجتمع ، وثورته عليه حينا ، واستسلامه له حينا جانباً من جوانب صورة حياتنا بين الثورتين: مواهب تنقصها الإرادة : وتوثب وتهيئو للتمرد وللثورة ، لا يتبعه عمل ولا يكمله عزم ، وتشرد فراراً من المتاعب ، وفكاهات ومداعبات ، تنيم صرخات الألم إلى حين .

ولكنه قبل كل شىء وبعد كل شىء شاعر مطبوع ، لا شك فى أصالة موهبته ، ولا فى صدق عاطفته .

بيـــان

كان من ضمن فصول هذا الـكتاب فصلان أحدهما عن الشاعر عبد الرحمن شكرى ، وثانيهما عن أحمد فؤاد (الصاعقة) ، ولـكن الحديث عن الدكتور محمد حسين هيكل طال ، إذ استدرجنا حياته المديدة ، ونشاطه الذى بدأ مبكراً فى مطالع القرن العشرين والذى استمر فى ميادين السياسة والصحافة والأدب إلى ما بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بسنوات ، حتى جاوزت صفحات الفصل الخاص به مائة وثلاثين صفحة .

ولذلك لم يبق إلا أن نؤمل فى أن يكون لهذا الـكتاب حلقة ثانية تضم الفصلين اللذين لم يكتب لهما أن يكونا ضمن مواده ، مع فصول عن بعض رجال الأدب فى بلادنا فى نفس الحقبة ومن هؤلاء : عبد الرحمن الرافعى وزكى مبارك ومحمود عزمى وعبد القادر حمزة وأمين الخولى ومحمد مندور .

كتب للمؤلف

تراجم

(١) المهاتما غاندى نفد

(٢) محمد عليه السلام نفد

(٣) محمد الثائر الأعظم

(٤) ديفاليرا نفد

(٥) موسولينى نفد

(٦) مصطفى كامل نفد

مسرحيات :

(٧) دموع أبليس

(٨) أخلاق للبيع وعشر شخصيات تحاكم مؤلفاً (مسرحيتان)

(٩) إله رغم أنفه (خمس مسرحيات)

(١٠) شقة للايجار

قصص وذكريات سياسية

(١١) قبيل الفجر

(١٢) الملك والثوار فى عربة

فى التاريخ السياسى

(١٣) أخى المواطن

(١٤) هذا الشرق العربى

(١٥) فى المعركة

فى القصص

(١٦) محام صغير

(١٧) أسطورة حب (١٠ قصص)

(١٨) شافع ونافع (١٠ قصص)

متنوعات

(١٩) حقائق وأحلام .

فى السياسة والاجتماع

(٢٠) مع الإنسان فى الحرب والسلام .

فى القانون الدستورى

(٢١) الدول والدساتير مذكرات لطلبة كلية الشريعة والقانون

تحت الطبع

السارق والمسروق مجموعة قصص

الملك منتصراً مجموعة مسرحيات

تاريخ مصر الدستورى بحث فى السياسة أو القانون

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
الفصـــــل الثامن : يوسف حلمى	٥
الفصـــــل التاسع : أحمد لطفى السيد	٢٩
الفصـــــل العاشر : الدكتور محمد حسين هيكل ..	١٠١
الفصـل الحادى عشر :أحمد أمين	٢٣٥
الفصـل الثانى عشر : عبد الحميد الديب	٢٩١